إريش فروم

الحكايات والأساطير والأحلام





ترجمة : صلاح حاتم

الحكايات والأساطير والأحلام

ما طبيعة الأحلام؟ ماذا عن تاريخ وفنّ تفسيرها؟ ماذا عن اشتغال فرويد ويونغ فيها؟

يجيب عالم النفس المرموق: إريش فروم على هذه الأسئلة، في هذا الكتاب الذي يقدم صلاح حاتم ترجمة رفيعة له عن الألمانية. ومن أسئلة الأحلام يتابع فروم البحث في أسطورة أوديب وأسطورة التكوين، وفي رواية كافكا: القضية، وفي الحكايات والطقوس، ليقدم بجملة هذا الكتاب مفاتيح اللغة المنسية، اللغة الرمزية، لغة الحكايات والأساطير والأحلام، لغة الروح والنفس.

الغلاف: [illegible]



دار الحوار للنشر والتوزيع ـ سورية ـ اللاذقية

ص ـ ب 1018 ـ هاتف 422339

الحكايات والأساطير والأحلام
مدخل الى فهم لغة منسيّة

★ الحكايات والأساطير والأحلام
★ إريش فروم
★ ترجمة د. صلاح حاتم
★ الطبعة الأولى ١٩٩٠

★ الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية - اللاذقية - ص.ب ١٠١٨ - هاتف ٢٢٣٣٩

العنوان الأصلي للكتاب :
MÄRCHEN, MYTHEN, TRÄUME
EINE EINFÜHRUNG IN DAS VERSTANIS
EINER VERGESSENEN SPRACHE

إريش فروم

الحكايات والأساطير والأحلام

ترجمة : صلاح حاتم

إنَّ حلماً غيرَ مفسَّرٍ يشبهُ رسالةً غير مقروءة .

(تلمود . بيراخوت ٥٥/أ)

النوم يجردّنا من زيّ الظروف الخارجية
ويسلحنا بجرية رهيبة
فتصبح كلُّ إرادة موضع التنفيذ على الفور .
وإنَّ إنساناً متمرساً بذلك ليقرأ أحلامه
كي يتعرّف على نفسه ،
لكن لا على التفاصيل ، بل على الكيفية والنوع

(ايمرسون)

مقدّمة

بقلم المترجم

«حين نكون أيقاظاً نكون مخلوقات نشيطة عاقلة . . ونقوم بأفعال ونراقب . ولربما لا نرى الأشياء من حولنا كما هي في الواقع ، ولكننا قد نراها على الأقل على نحو نستطيع أن نفيد منها ونستعملها . . وإننا لمهرةٌ نتقن أعمالنا . . لكننا نفتقر في أثناء ذلك إلى الخيال . . وحين ننام نستيقظ على صيغة أخرى للوجود . إننا نحلم . ونبتدع قصصاً لم تحدث قط . . وتارة نعيش ونشهد أجمل الأشياء ونكون سعداء ، وكثيراً ما نجد أنفسنا في حالة من الخوف الشديد . ولكن أيا كان الدور الذي نقوم به في الحلم فإننا المؤلف والحلم حلمنا ونحن أوجدنا الحوادث . . . إننا في الحلم صانعو عالم ليس للمكان والزمان . . سلطان فيه .» .

إنّ النائم ليحيا حياة سرية خفية . وليس النوم بحالة راحة عامة للكائن الحي ، بل إنَّ نشاط الدماغ في أثناء النوم ليفوق قيم النهار بمرات كثيرة . وصرنا نعرف عن عمل الدماغ الانساني ونشاطه في أثناء النوم أكثر مما نعرفه عن نشاطه في أثناء اليقظة .

والنوم يكون مصحوباً دائما بالاحلام . وإنَّ نوماً لا تتخلله أحلام ليسفر عن اضطرابات نفسية شديدة . وهذا ما توصل اليه العلماء في العقود الأخيرة . ومنذ آلاف السنين كان النوم والحلم ميدان اختصاص السحرة والأنبياء . ثم صار

موضوعاً لعلم يفحص ويروز ويقيس . كما أن الأحلام وتأويلاتها أثارت مخيلة فلاسفة وأطباء وكهنة وسحرة . وسواء أكان النوم «بلسم الروح» كما سماه شكسبير ، أم «فائدة الموت المؤقتة» ، كما رآه شوبنهاور ، فإنَّ حكم الشعراء والمفكرين عليه يبقى متعدد الألوان والاشكال ، مثله مثل صور الأحلام .

ومنذ أربعة آلاف سنة ، ومن ملحمة «جلجامش» البابلية التي يؤوِّل الحلم فيها على أنه وحي إلهي ، يقود تقليد غنيٌّ الى «رمزية الاحلام» ، الكتاب الموسوعي في تفسير الأحلام لليوناني ارتميدوروس الافسوسي (١٣٥ ـ ٢٠٠) الذي صار قدوة لأدب أحلام متعاظم بدءاً من القرن السادس عشر . وبقي الحلم منهلاً ثراً لتفكير شعري وأداة نقلٍ لإلهام ورع . كما تميزت الأحلام في كثير من الأحيان بقدر مدهش من الالتصاق بالواقع .

وإنَّ لنا في رؤيا فرعون مثلاً على ذلك . إذ كان لهذه الرؤيا وزنٌ سياسي ، إذا صح التعبير . كما كان تأويل يوسف لرؤيا فرعون عن البقرات السمان والبقرات العجاف نوعاً من البرنامج الاقتصادي الذي يشبه ما نسميه نحن في أيامنا هذه «خطة السبع سنوات» . كما أن ثمة علماء توصلوا في الحلم أيضا الى اكتشافات رائدة . فها هو الكيميائي الألماني اوغست كيكولي يجد في النوم البنية الحلقية لصيغة البنزول (السائل المركب من الكربون والهيدروجين) ، إذ أنه رأى في الحلم أفعى عضت ذنبها . ثم إن يوهان فون نويمان ، واضع نظرة المخ الالكتروني ، طوّر في النوم بعض صيغه الرياضية . واذا كان فرويد ، صاحب مدرسة التحليل النفسي ، رأى في الأحلام «الطريق الملكي» إلى العقل الباطن فإن إريش فروم يرى الحلم طاقة خلاقة توجد منفذاً إلى مخزن الخِبَر والذكريات التي لا نعرف عنها شيئاً في أثناء النهار . وحين نتبحر في هذه الخِبَر والذكريات ونلم بلغتها الرمزية نستطيع أن نكشف عن تشابهات بينها وبين الأساطير ، أقدم مما أبدعته العبقرية البشرية .

والحق أننا نسينا أن نفهم الأساطير كما نفهم الحكايات أيضاً على أنها خبر البشرية وذكرياتها ، وأننا لم نعد قادرين على أن نفهم لغتها .

ولكي نتمكن من الاحاطة بالأشياء والبشر والعلاقات بعامة متجاوزين مظهرها الخارجي كان لا بد لنا من أن نعاود الوقوف على هذه اللغة المتعددة

الجوانب . وبذلك تصبح الحكايات والأساطير والاحلام عنصراً ضرورياً لوجودنا وجزءاً متمماً لحياتنا .

أما إريش فروم ، مؤلف هذا الكتاب ، فغني عن التعريف ، فهو محلل نفساني ومؤلف كتب كثيرة كانت ولا تزال محط اهتمام الخاصة والعامة : مثل «الانسان الحديث والمستقبل» ، «الخوف من الحرية» ، «فن الحب» ، «ما وراء الأوهام» «وعلم تشريح القدرة الانسانية على الهدم والتدمير» وغير ذلك مما له علاقته بعلم النفس التحليلي وعلم الاخلاق والدين وعلم الاجتماع والأدب .

ولد إريش فروم سنة ١٩٠٠ في مدينة فرنكفورت على نهر المابن (المانيا الاتحادية) ودرس في جامعات هايدل بيرغ وفرنكفورت وميونيخ ونال في عام ١٩٢٢ الدكتوراة . وكان واحداً من مجموعة العلماء الشباب العاملين في ميدان الفلسفة وعلم الاجتماع (لوفينتال ، ماركوزي ، ادورنو وبنجامين وبولوك) الذين التفوا حول الفيلسوف وعالم الاجتماع ماكس هوركهايمر (١٨٩٥ - ١٩٧٣) وعرفوا بما يسمى «مدرسة فرنكفورت» التي وجهت نقدها الى ما سماه هوركهايمر وادورنو «صناعة الحضارة» وعبّرت عن خوفها من مجتمع الاستهلاك الجماهيري العريض الذي تندرج فيه بوسائل جديدة نتاجات الحضارة في عملية التوزيع .

شغل إريش فروم مناصب تدريسية عديدة في نيويورك وميشغان ومكسيكو سيتي . ثم تخلى منذ عام ١٩٦٥ عن مهنة التدريس وتفرّغ كليا للبحث العلمي . وارتحل فيما بعد الى سويسرا واستقر في مدينة تيسين حيث وافته المنية عام ١٩٨٠ عن عمر مديد قضاه في العطاء المستمر والبحث العلمي المثمر .

ويسرنا أن نقدم الى قراء العربية عملاً جديداً من أعماله الكبيرة ، وإننا لعلى ثقة من أن القارىء العربي ، المختص وغير المختص ، سيجد في هذا الكتاب القيم ضالته المنشودة : المتعة الفكرية التي لا تضاهيها متعة .

اللاذقية في ١٩٨٨/٦/١

صلاح حاتم

تصدير

إنّ أساس هذا الكتاب هو محاضرات ألقيتها في دورات تمهيدية لطلاب متخرجين التحقوا للمزيد من التدريب بمعهد ويليام اكنسون وايت لطب الأمراض النفسية ، كما ألقيتها على طلبة غير متخرجين في كلية بنغتون . ويتوّجه هذا الكتاب إلى قرّاء مماثلين : الى طلبة الطب النفسي وعلم النفس فضلاً عن الناس العاديين غير المتخّصصين .

وكما هو بيِّن من العنوان الفرعي فالمسألة هي مسألة مدخل إلى فهم لغة رمزية . ولهذا السبب لا يقف الكتاب أيضاً على الكثير من القضايا المعقدة في هذا المضمار . فلا أتطرق مثلاً ، الى نظرية فرويد إلاّ من حيث «تفسير الأحلام» وأضرب صفحاً عن المسائل الصعبة التي طوّرها في مؤلفاته المتأخرة . كما إنني لا أعالج أوجه اللغة الرمزية ، تلك التي لا غناء عنها للفهم الكامل للقضايا المتعلقة بالموضوع ، مع أنها تتطلب أن نقف عليها جميعاً الأمر الذي تسعى هذه الصفحات الى القيام به . هذه الأسئلة المتتابعة كلها أريد أن أتقصاها في كتاب لاحق .

وفي العنوان أتكلم بوضوح وصراحة على مدخل إلى فهم لغة منسية ، لا على تفسيرها كما هو شائع مألوف . فإذا كانت اللغة الرمزية لغةً مستقلة ، كما سأحاول أن أبيّن ذلك على الصفحات التالية ، وإذا كانت حقاً لغة عالميةً وحيدة طورتها البشرية في وقت من الأوقات ، فالمسألة هي مسألة فهم هذه اللغة وليست مسألة تفسيرها كما لو أن الموضوع له علاقته بكتابة سرية مخترعة . وإن امكانية فهم هذه اللغة الرمزية لأمر مهم ، لا بالنسبة لطبيب نفساني يحاول أن يزيل الاضطرابات

النفسية ويقضي عليها فحسب ، بل لكلّ من يريد أن يكون على إتصال بذاته ويتعرف عليها . وعلى هذا كان ضرورياً إدخال تدريس اللغة الرمزية في البرنامج التعليمي في معاهدنا العالية وجامعتنا أيضا ، مثلها مثل تدريس «اللغات الأجنبية» الأخرى . ويرمي هذا الكتاب الى أن يساهم في تحقيق هذا الهدف .

وإني لأتوجه بشكري إلى الدكتور س . تاوبر الذي قرأ المخطوط وكان لي عوناً كبيراً بنقده البناء واقتراحاته .

اريش فرُوم ١٩٥١

الفصل الأول :

تمهيد

إذا صحَّ أنَّ القدرة على الدهش هي بداية كلّ حكمة فإنَّ هذا يلقي ضوءاً قاتما على حكمة الانسان المعاصر . ولعلنا نمتلك على مستوى رفيع من الثقافة الأدبية والعامة ، أمّا القدرة على الدهش من شيء فقد فقدناها . وإنه لمفترض أن كل شيء معروف . وإذا كنا نحن أنفسنا لا نعرف شيئاً عن ذلك فإنَّ هنالك اختصاصياً مهمته أن يعرف ما لا نعرفه نحن . والاستعجاب من شيء هو أقرب ما يكون إلى الازعاج والارباك ويُعَدُّ دليلاً وعلامة على أننا لسنا متفوقين عقلياً . حتى أطفالنا قلّما يتفاجأون أو أنهم يحاولون ، على الأقل ، ألا يُظهروا هذا . وإننا ، مع التقدم في العمر ، لنفقدُ القدرة أكثر وأكثر على التعجب والدهش من شيء ما . وما يهمنا هو أن نهيء الإجابة الصحيحة دائماً وأبداً . ولمّا كنا قادرين على أن نطرح الأسئلة الصحيحة فإنَّ هذا يُعَد نسبياً أقل أهمية بكثير . ومن الممكن أن يكون هذا الموقف هو أحد الأسباب في أنَّ أحلامنا ، التي هي إحدى أعظم الظواهر المدهشة في حياتنا ، قلّما تسبب لنا الدهش والاستغراب . إننا كلنا نحلم ؛ ولا نفهم أحلام ثم نتصرف وكأنه لم يخامرنا في النوم أيُّ شيء غريب يمكن مقارنته على الأقل بتفكيرنا المنطقي الهادف في حالة اليقظة . وحين نكون أيقاظاً نكون مخلوقات نشيطة عاقلة ونكون حراصا على أن نحصل على ما نريد الحصول عليه وعلى أهبة لأنْ ندفع عنا الهجمات . ونقوم بأفعال ونراقب . ولربما لا نرى الأشياء من حولنا كما هي في الواقع ، ولكننا قد نراها على الأقل على نحو نستطيع أن نفيد منه ونستعملها . والحق أننا لا نملك كثيراً من الخيال ؛ وفيما اذا لم نكن أطفالاً أو شعراء ، فإنَّ هذا يقتصر أكثر ما يقتصر على تكرار التاريخ وخطط تجاربنا وحوادثنا

اليومية . وإننا لمهرة نتقن أعمالنا ، لكننا نفتقر في أثناء ذلك إلى الخيال . ونسمي ما نشاهده في النهار «واقعاً» ونفخر «بواقعيتنا» التي تمكننا من أن نتقن استخدامها خيرَ إتقان .

وحين نام نستيقظ على صيغة أخرى للوجود . إننا نحلم . ونبتدع قصصاً لم تحدث قطّ وليس لها أحيانا ما يماثلها في الحياة الواقعية . فتارة نكون البطل ، وطوراً نكون الوغد الشرير . وتارة نعيش ونشهد أجمل الأشياء ونكون سعداء . وكثيراً ما نجد أنفسنا في حالة من الخوف الشديد . ولكن أيا كان الدور الذي نقوم به في الحلم فإننا المؤلف ، والحلم حلمنا ونحن أوجدنا الحوادث .

إنَّ معظم أحلامنا لتجمعها سمةٌ واحدةٌ : انها لا تراعي قواعد المنطق التي تتحكم بتفكيرنا الصاحي اليقظ . ولا تُراعى مقولتا الزمان والمكان . فالأموات نراهم أحياء . كما أننا نرى حوادث تقادم العهد عليها وكأنها حاضرة . ونحلم بحادثتين وكأنهما وقعتا معاً على حين أن هذا ليستحيل في الواقع . كما أننا لا نكترث لقواعد المكان . فلا يصعب علينا البتة أن نتوجه في غمضة عين الى مكان بعيد وأن نكون في آنٍ واحد في مكانين وأن ندمجَ شخصين في شخص واحدٍ أو أن نحول عجأة شخصاً الى شخص آخر . والحق أننا في الحلم صانعو عالم ليس للمكان وللزمان اللذين يضعان حدودا لكل فعاليات جسدنا سلطانٌ فيه .

والغريب في أحلامنا أيضا أننا نتذكر حوادث وأشخاصاً لم نفكر بهم منذ سنوات طويلة ولم يخطروا ببالنا قط في اليقظة . فيظهرون فجأة في الحلم بمظهر مَنْ يعرف أحدنا الآخر معرفة جيدة ، وبمظهر من تذكرناهم كثيرا . ويبدو أننا فتحنا في الحلم خزان خبراتنا وذكرياتنا الكبير الذي نجهل عنه كل شيء في النهار .

ولكن رغم هذه الخصائص العجيبة الغريبة كلها فإن أحلامنا ، ما دمنا نحلم ، حقيقة في نظرنا مثلها مثل أي شيء عشناه وشهدناه بالتجربة في اليقظة . وليس في الحلم مكان «لكأن» . فالحلم شيءٌ واقعيٌّ يمر به الانسان في الحاضر وذلك الى حد يوحي إلينا بسؤالين اثنين : ما الواقع ؟ وأنى لنا أن نعرف أن ما نحلم به غير واقعي وأن ما نعيشه في اليقظة واقعي ؟ إنَّ شاعراً صينيا عبَّر عن ذلك خير تعبير حين قال : «حلمت الليلة الماضية بأنني فراشة ، ولست ادري الآن هل أنا انسان يحلم بأنه فراشة أم هل أنا فراشة تحلم الآن بأنها إنسان» .

إنَّ كل هذه الحوادث الليلية الحية المثيرة لا تختفي ولا تنمحي فحسب حين نستيقظ ، بل إنه ليصعب علينا جداً أن نتذكرها . وإننا لننسى الكثير منها نسيانا تاماً بحيث لا نعود نتذكر مرة أخرى اننا عشنا في هذا العالم الآخر . ونتذكر بعض الأحلام حين نستيقظ ، لكنه تذكر غير واضح . وفي اللحظة التالية نعجز عن أن نستحضرها في الذاكرة ، ولا نتذكر إلا النذر اليسير منها في الواقع . ونقصد بهذه الأحلام حين نقول : «إنني رأيت حلماً» . ويبدو كأن أشباحاً خيّرة أو شريرة زارتنا واختفت فجأة مع بزوغ الصباح . حتى انه ليصعب علينا أن نتذكر أنها كانت موجودة وأننا اهتممنا بها اهتماماً شديداً .

وإن الشيء الذي يدعو الى الدهشة والعجب أكثر بكثير مما ذُكِر حتى الآن هو تشابه نتاج قدرتنا الابداعية في النوم مع الأساطير التي هي أقدم مبتكرات الانسانية . على أن الأساطير لم تعد تحيِّرنا الآن كثيراً . وإذا كانت باتت موضع احترام بانتقالها الى ديننا فإننا نكنّ لها تقديراً تقليدياً سطحياً على أنها جزء من تقليد جدير بالاحترام . فإذا لم تتمتع بهذه المكانة التقليدية فإننا نرى فيها صيغاً تعبيرية طفولية لافكار بشر لم يستنيروا بعد بنور العلم . ومهما يكن فالأساطير ، سواء اتجاهلها المرء أم ازدراها أم احترمها ، تنتمي الى عالم غريب كل الغرابة عن تفكيرنا السائد في الوقت الحاضر . ومع هذا تبقى الحقيقة الواقعة قائمة بأن الكثير من أحلامنا شبيه بالأساطير ، سواء من حيث الأسلوبُ أو من حيث المضمون . واذا خِلناها أيضاً غريبة عند الاستيقاظ ومستمدةً من مكان بعيدٍ فلدينا القدرة في النوم على أن نضع هذه الروائع الشبيهة بالأساطير .

ويوجد في الأسطورة أيضاً حوادث مسرحية تستحيل في عالم تتحكم به قواعد الزمان والمكان . فالبطل يغادر البيت والوطن لكي ينقذ الوجود . أو يهرب من أداء مهمته ويعيش في جوف سمكة ويموت ويبعث حيّاً ، ويحترق الطائر الأسطوري وينبعث من الرماد مرة أخرى على نحو أجمل مما كان عليه بكثير .

وطبيعي أنَّ الشعوب المختلفة أبدعت مختلف الأساطير كما هي الحال لدى مختلف الناس الذين يحلمون أحلاماً مختلفة . ولكن رغم هذه الفروق كلها فإنَّ الأساطير كلها والأحلام لتشترك في شيءٍ واحد : هو أنها كلهًا كتبت باللغة الواحدة ، أي باللغة الرمزية .

لقد كتبت أساطير البابليين والهنود والمصريين والعبريين واليونانيين باللغة نفسها مثلما كتبت أساطير الهنود الحمر الاشانتيس والايروكيين وإنّ أحلام أحد سكان نيويورك أو باريس في هذه الأيام هي نفس الأحلام التي تروى عن ناس عاشوا في أثينا أو القدس منذ آلاف السنين .

فأحلام الناس القدامى والمحدثين كتبت بنفس اللغة ، مثلها مثل الأساطير التي عاش صانعوها وأصحابها في بداية التاريخ .

ولغة الرمز هي لغة يتم التعبير بها عن خِبَرٍ وتجارب داخلية نفسية وعن مشاعر وافكار كما لو أنّ الموضوع يتعلق بملاحظات حسية أو حوادث في العالم الخارجي . وإنها لغةٌ لها منطق آخر لا تهيمن فيه مقولتا المكان والزمان ، بل الشدّة والتداعي . إنّها اللغة العالمية الوحيدة التي سبق للانسانية أنْ طوّرتها ، وتوحد وتجمع الحضارات والثقافات كلّها في سياق التاريخ . وإنها لغةٌ لها قواعدها الخاصة بها وتراكيبها ، لغةٌ يجب أن يفهمها المرء حين يريد أن يفهم معنى الأساطير والحكايات والاحلام .

على أنّ الانسان الحديث نسي هذه اللغة ، ليس حين يكون نائماً ، بل حين يكون يقظاً أيضاً . أمهمٌ لنا أن نفهم هذه اللغة في اليقظة ؟

وبالنسبةلإنسان الزمن الغابر الذي عاش في حضارات الشرق والغرب العظيمة لم يكن هنالك من شكٍّ في الكيفية التي ينبغي الاجابة بها عن هذا السؤال . فهو يرى الأساطير والأحلام أهمَّ أشكال التعبير الفكري ويرى أن عدم فهمها مرادف للأميّة . ولم يتغير هذا الموقف في التراث الغربي والحضارة الغربية إلاّ في القرون الأخيرة . فالآن يُعد المرء الأساطير في أحسن الأحوال نتاجاً بسيطاً للفكر الذي أوجدها قبل أن يصبح فكراً علمياً وقبل أن يقوم الانسان باكتشافاته العظيمة في الطبيعة ، وقبل أن يتعلم كيف يسيطر عليها إلى حدّ ما .

وأنقص عصر التنوير الحديث بحكمه من اعتبار الاحلام ، اذ أنّ المرء عدّها تافهةً وغير جديرةٍ باهتمام الناس البالغين الذين تشغلهم أشياء بالغة الأهمية ، من مثل إنتاج الالات ، والذين رأوا أنفسهم «واقعيين» ولم يروا إلاّ واقع أشياء استطاع المرء أن يقتحمه ويغزوه ، كما أنّ لديهم لكل نموذج سيارة تسميةً خاصة ؛ أما بالنسبة للمحب بتجاربه العاطفية المتنوعة فليس لديهم إلاّ كلمة واحدة .

يضاف إلى ذلك أننا ربما واجهنا أحلامنا بمزيد من الرضى لو أن المسألة كانت عند الجميع مسألة أخيلة لطيفة تتحقق فيها كل أمنياتنا التي نتمناها . على أن الكثير منها يخلّف جوّاً منقبضاً ، وكثيراً ما تكون كوابيس ، ونكون شاكرين عند الاستيقاظ اننا حلمنا فقط . وهنالك أحلام ليست بكوابيس ، إلّا أنها تزعجنا لأسباب أخرى . فهي لا تليق بالشخص الذي حسبناه أنفسنا في النهار . ونحلم بأننا نكره ناساً نعتقد أننا نحترمهم ونحب أحداً نحسب أنفسنا غير مهتمين به . ونحلم بطموحنا ونحن مقتنعون كل الاقتناع بتواضعنا . ونحلم بأننا أذلّاء وخضعنا لآخرين على حين نفخر كل الفخر باستقلالنا . على أنّ الأسوأ من هذا كله أننا لا نفهم أحلامنا مع أننا مقتنعون ونحن إيقاظ بأنّ لدينا القدرة على فهم كل شيء حين ننصرف إليه دون سواه . وبدلاً من أن نقبل بدليل قوي كل القوة أنّ عقلنا متناهٍ ومحدود نفضّل بأن نرمي الاحلام بأنها تافهة لا معنى لها ولا نفع .

وفي العقود الأخيرة طرأ تغيّرٌ جذري على هذا الموقف من الأساطير والاحلام . ويعود السبب في هذا التحول إلى دراسات فرويد وبحوثه بصورة أساسية . فبعد أن حاول فرويد قبل كل شيء أن يساعد عصابيين في أن يفهموا أسباب مرضهم تبين له الحلم أنه ظاهرة إنسانية شاملة يمكن الوقوع عليها لدى المرضى والأصحاء على سواء . واكتشف أن الأحلام لا تتميز في الأصل من الأساطير والحكايات وأننا ، إن فهمنا لغة الأحلام ، نستطيع أيضاً أن نفهم لغة الأساطير والحكايات . ومن جديد وجّهت البحوث الانتربولوجية النظر إلى الأساطير . فجمعها المرء وبحث فيها . وبواسطتها تأتّى لبعض العلماء الروّاد في هذا المضمار ، من مثل يوهان ياكوب باخ أوفن ، أن يلقوا ضوءاً جديداً على ما قبل تاريخ الانسانية . على أن البحث في الأساطير والاحلام لا يزال في البداية . إذ تعترض سبيله أمور شتى ؛ فتارة هي شيء من العقائدية وشيء من التعنت والعناد المفرط لمدارس مختلفة خاصة بالتحليل النفسي تزعم بالاجمال أنها وحدها تفهم اللغة الرمزية فهماً صحيحاً . وبذلك يغيب عنا أنّ للغة الرمزية جوانبها المتعددة ونحاول أن نحصرها في معنى واحد .

ثم إنّ هنالك عائقاً آخر هو الرأي الذي لا يزال سائداً أنّ تفسير الأحلام ليس مشروعاً إلّا عندما يستخدمه الطبيب النفساني في أثناء معالجة المصابين بمرضى

العصاب . وبالعكس أرى أنا اللغة الرمزية اللغة الأجنبية الوحيدة التي ينبغي علينا جميعاً أن نتعلمها . فحين نفهمها نتعرف على الأسطورة التي هي أحد أهم ينابيع الحكمة ونقف على أعمق طبقات شخصيتنا . والحق أنها تساعدنا على فهم مستوى تجربة خاص بالإنسان ذلك لأنَّ البشرية تشترك فيه قلباً وقالباً .

ويقول التلمود (بيراخوت ٥٥/أ) : «إنَّ حلماً غير مفسَّر ليشبه رسالةً غير مقروءة». وبالفعل فإن الأحلام والأساطير على سواء هي أخبارٌ مهمة عنا وإلينا . وحين لا نفهم هذه اللغة نخسر جزءاً كبيراً مما نعرفه ونقوله في الساعات التي لا نكون مشغولين بأن نسيطر على العالم الخارجي .



الفصل الثاني

طبيعة اللغة الرمزية

لنفترض أننا أردنا أن نوضّح لأحد ما الفرقَ بين طعم النبيذ الأبيض وطعم النبيذ الأحمر . وأغلب الظنّ أن هذا سيكون هيّناً علينا . وطبيعي أننا نعرف الفرق معرفةً جيدة ؛ فلمَ سيكون إذاً صعباً علينا أن نصفه لشخص آخر ؟ ومع هذا يبدو أن أكبر الصعوبات ستواجهنا في صياغة هذا الفرق في الطعم . والأرجح أننا سنضع في نهاية المطاف حدّاً للموضوع حين نقول : «لا ، لن أستطيع أن أشرح لك ذلك . فاشربْ أولاً كأساً من النبيذ الأحمر ثم كأساً من النبيذ الأبيض ، عندها ستعرف الفرق» . وليس صعباً علينا أن نشرح لشخص من الأشخاص أعقد الآلات ، أما أن نصف إحساساً بسيطاً بالتذوق والطعم فإننا نفتقر الى الكلمات بشكل واضح .

ثمَّ ألاَ تواجهنا الصعوبة نفسها حين نحاول أن نصف تجربة شعورية ؟ فلنأخذ حالة نفسية نحسّ فيها بالضياع والخذلان ويبدو فيها الوجود قاتماً كما يبدو لنا مزعجاً ، إن لم يكن محفوفاً بالاخطار والتهديدات . ونود أن نصف هذه الحالة النفسية ، على أنَّ بحثنا عن كلمات يذهب أيضاً هنا سدى ونحسّ في نهاية المطاف أن لا شيء مما قلناه يصف شتى أنواع الفوارق الدقيقة للحالة النفسية وصفاً صحيحاً . وفي الليلة التالية نرى حلماً . ونجدنا قبيل طلوع الصباح في ضواحي احدى المدن . الشوارع لا تزال خالية ، ولا شيء يمكن رؤيته إلاّ سيارة حليب . وتحدث البيوت أثراً متواضعاً وتبدو لنا الناحية غريبة ونفتقد وسائل النقل المألوفة التي كان في وسعها أن تنقلنا الى أحياء مألوفة لا نحسّ فيها بالغربة . واذا استيقظنا وتذكرنا الحلم خطر ببالنا أن الاحساس الذي كان لدينا في الحلم هو نفس

الاحساس القاتم الكئيب الذي حاولنا أن نصفه لصديقنا قبل ذلك في النهار ، ولكن من غير طائل . إنَّ هذا ليس إلا صورةً لم تتطلب رؤيتها إلا ثانية . ومع هذا فإنَّ هذه الصورة هي أدق وصفاً وأكثر حيوية من ذلك الذي كنا تمكنا من اعطائه لو أننا تكلمنا على ذلك في إطالة . فالصورة المرئية في الحلم هي الرمز لشيء أحسسناه .

فما الرمز ؟ كثيراً ما يعرف الرمز بأنه «شيء ينوب عن شيء آخر .» ويكاد هذا التعريف أن يكون سطحياً لا يقدم ولا يؤخر . على أنه يصبح أكثر طرافة وأهمية حين ندرس تلك الرموز التي لها علاقتها بمحسوسات من مثل الرؤية والسمع والشم واللمس وتنوب عن شيء «آخر» هو تجربة روحية أو احساس أو فكرة . وإنَّ رمزاً من هذا القبيل ليقع خارج أنفسنا . فما يرمز اليه هو شيء في دخيلتنا . واللغة الرمزية هي اللغة التي نعبّر بها عن تجارب نفسية كما لو كانت المسألة في أثناء ذلك هي مسألة أحاسيس أو شيء نفعله أو تتعلق بشيء حدث لنا في عالم الأشياء . إنَّ اللغة الرمزية هي لغة يكون فيها العالم الخارجي رمزاً للعالم الداخلي ، رمزاً لروحنا وعقلنا .

وحين نعرّف رمزاً بأنه «شيء ينوب عن شيء آخر» ، عندها يأتي السؤال الحاسم القائل : «ما العلاقة الخاصة بين الرمز والمرموز إليه ؟» .

وإذا أردنا أن نجيب عن هذا السؤال وجب علينا أن نميز بين ثلاثة أنواع من الرموز : بين الرمز التقليدي والرمز العرضي والرمز الكلي . وكما سيتبين لنا على الفور فإنَّ كلا النوعين الاخيرين من الرموز يعبر عن تجارب نفسية كما لو أنَّ المسألة تتعلق باحساسات أو محسوسات هي وحدها فيها علامات اللغة الرمزية .

إنَّ الرمز التقليدي المصطلح عليه هو أكثر الأنواع الثلاثة شيوعاً لأننا نستعمله في لغتنا اليومية . فحين نرى كلمة «منضدة» مكتوبة أو حين نسمع التشكيل الصوتي «منضدة» فإن الأحرف م . ن . ضـ . د . ة تنوب مناب شيء آخر ، أي المنضدة التي نلمسها ونستعملها . فما العلاقة الكائنة بين الكلمة «منضدة» وبين الشيء أو الأداة «منضدة» ؟ هل ثمة علاقة داخلية بينهما ؟ والظاهر أن الحال ليست هكذا . فليس للشيء «منضدة» علاقة بالتشكيل الصوتي «منضدة» . والسبب الوحيد أنَّ الكلمة ترمز الى الشيء هو الاتفاق لوصف هذا الشيء الخاص بهذا

الاسم الخاص . ونتعلم هذه العلاقة ونحن أطفال ، اذ نسمع الكلمة مقترنة بالشيء المرة تلو المرة بحيث ينشأ في النهاية تداعٍ دائم ولا نكون بحاجة الى التفكير لكي نجد التسمية الصحيحة .

على أنَّ هناك كلماتٍ معينةً لا يكون التداعي عندها ذا طبيعة تقليدية فقط . فحين نقول مثلاً : «تفّاً لك!» فإننا نحدث في شفاهنا حركة تجعلنا ندفع الهواء بسرعة . إنه تعبير عن التقزز والاشمئزاز يشارك به فمنا . وبواسطة هذا الدفع السريع للهواء نعبِّر بالمحاكاة عن قصدنا ومرادنا في أن ندفع عنا شيئاً ما أو نبعده عن جسدنا . وفي هذه الحال ، كما في الحالات الأخرى ، يكون للرمز علاقة داخلية بالاحساس الذي يرمز إليه . ولكن حتى لو افترضنا أن الكثير من الكلمات ، أو حتى كلها ، يرجع في الأصل إلى مثل هذه العلاقة الداخلية بين الرمز والمرموز اليه فإنَّ معظم الكلمات لم يعد لها في هذه الأيام هذا المعنى حين نتعلم لغة من اللغات .

وليست الكلمات الأمثلة الوحيدة على الرموز التقليدية ، وإنْ كانت بالنسبة لنا الأكثر تكراراً والأكثر شيوعاً . كما أنَّ الصور يمكنها أن تكون رموزاً تقليدية فالعَلم مثلاً ، أيٌّ علم كان ، يمكن أن يرمز إلى دولة أو بلد مع أنه ليس من علاقة بين ألوانه والبلد الذي تمثله هذه الألوان . فلقد قبل بها على أنها علامات مميزة للبلد المذكور . وننقل الانطباع أو الأثر الحسي للعلم إلى تصورنا عن البلد المذكور وذلك لأسباب تقليدية أيضاً . إنَّ بعض الرموز الواضحة المجسمة ليست تقليدية فحسب ، كالصليب مثلاً ، فقد يكون الصليب رمزاً تقليدياً للكنيسة المسيحية فقط ولا ينحاز في هذا الصدد من العلم . أمّا المعنى الخاص للصليب الذي له علاقته بموت المسيح فضلاً عن علاقته أيضاً بالتداخل المتبادل للمستوى المادي والعقلي ف يرفع العلاقة بين هذا الرمز والمرموز اليه الى مستوى أرفع من مستوى الرموز ال هي تقليدية ، ليس غير . والنقيض التام للرمز التقليدي هو الرمز العرضي ؛ على أن كليهما يلتقيان في أمر واحد وهو أنه لا علاقة داخلية بين الرمز والمرموز إليه . ولنفترض مثلاً أن أحد الأشخاص عاش تجربة محزنة في مدينة معينة . فإذا سمع باسم هذه المدينة فإنَّ الاسم سيربطه بسهولة بحالة نفسية موحشة . كما سيربطه بحالة نفسية بهيجة لو أنه مرَّ هنالك بتجربة سعيدة . وطبيعي أن المدينة في حد ذاتها

ليس فيها شيء محزنٌ أو شيء بهيج . إنّما التجربة الذاتية المرتبطة بها هي التي جعلتها رمزاً لهذه الحالة النفسية . وفي الامكان الوصول الى رد الفعل نفسه قرينَ بيت معين أو شارع أو ثوب أو مشهد معين أو أي شيء آخر كانت له صلته بحالة نفسية خاصة في يوم من الأيام . وفي إمكاننا أن نحلم مثلاً بأننا موجودون في مدينة معينة . وقد لا ترتبط بها في الحلم أية حالة نفسية معينة . فلا نرى إلاّ شارعاً أو اسم المدينة . ونتساءل لِما خطرت ببالنا هذه المدينة بالذات في المنام . وقد نكتشف أنّ النوم قد غشينا في حالة نفسية كانت شبيهة بالحالة النفسية التي ترمز اليها المدينة بالنسبة لنا . فالصورة في الحلم تمثل هذه الحالة النفسية ، وتنوب المدينة مناب الحالة النفسية التي مررنا بها ذات يوم . وهنا تكون العلاقة بين الرمز والتجربة المرموز اليها مجرّد علاقة عرضية .

وخلافاً للرمز التقليدي فإنه ليس في وسع شخص آخر أن يشارك بالرمز العرضي إلا إذا روينا له تجاربنا المرتبطة بهذا الرمز . ولهذا السبب فإنَّ الرموز العرضية قلما ترد في الأساطير والحكايات أو الأعمال الفنية التي صيغت بلغة رمزية ذلك لأنهُ ليس في الامكان الإفضاء بها إلاّ إذا أضاف المؤلف إلى كل رمز مستعمل شرحاً مناسباً . أما في الأحلام فإنَّ الرموز العرضية يكون ورودها كثيراً . وفي موضع لاحق من هذا الكتاب سأتطرق الى الطريقة التي نستطيع أن نتعلم بها فهم هذه الرموز .

أما في الرمز الكلي فهنالك علاقة داخلية بين الرمز وبين الشيء الذي يمثله . وسبق أن سقنا مثالاً على ذلك الحلم في أحياء المدينة . فالتجربة الحسية لحي زري غريب مهجور لها في الحقيقة قرابتها الواضحة بحالة نفسية مخيفة محزنة . فلو لم نكن قط في أحياء مدينة ما لما خطر ببالنا قطّ هذا الرمز . كما أن كلمة «منضدة» ما كان لها معنىً في نظرنا لو لم نرَ منضدة . فضواحي أو أحياء مدينة ما من المدن لا يمكن أن يكون لها قيمةٌ رمزيه إلا لسكان المدينة وليس لناس يعيشون في حضارة لا مدن كبيرة فيها . وكثيرٌ من الرموز الكلية الأخرى لها جذورها في تجربة كل إنسان ولنأخذ رمز النار مثلاً على ذلك . فنار الموقد تفتننا بصفات معينة ، فنفتتن في المقام الأول بحيويتها . فهي تتحول وتتحرك طوال الوقت ، ومع هذا فلها ثباتٌ معين . فهي تبقى نفسُها من دون أن تبقى على حالها . وتوحي بالقوة والقدرة والظرف

والخفّة . ويخيّل لنا أنها ترقص وأنَّ لها مصدر طاقةٍ لا ينضب . وحين نستخدم النار رمزاً نصف تجارب نفسية موصوفة بنفس العناصر التي نحسّها لدى رؤية النار : فيكون لدينا إحساسٌ بالقوة والخفة والحركة والظرف والفرح على حين يغلب على احساسنا تارة هذا العنصر وطوراً العنصر الآخر .

ومن وجهة نظر معينة فإنَّ رمز الماء ، ماء البحر أو النهر ، لا يكون شبيهاً بذلك ؛ بل يكون مغايراً لذلك أيضاً . إذ أننا هنا أيضاً نقع على مزيج من حركة دائمة وثبات متزامن . كما أننا نحسّ هنا بالشيء الحيوي وبالاستمرار والطاقة . على أنَّ هنالك فرقاً . فعلى حين يكون في النار شيءٌ مقرون بالمغامرات ، شيء خفيف الحركة ومثير فإنَّ الماء هادىء وبطيء وثابت . ومن خواص النار عنصر المفاجأة على حين يتصف الماء بشيء يمكن التنبؤ به . كما أن الماء يرمز أيضاً الى حالة نفسية نشطة ، لكنها «أثقل» «وأكثر هوناً» ، بل هي أقرب الى الراحة منها إلى الاثارة .

ولما أنَّ ظاهرة من ظواهر العالَم الفيزيائي تستطيع أن تعبر عن تجربة داخلية روحية تعبيراً مناسباً وأنَّ عالم الأشياء يمكن أن يكون رمزاً لعالم النفس فإنَّ هذا لم يعد شيئاً يدعو إلى الاستغراب . إننا كلنا نعرف أن روحنا تعبّر عن ذاتها في جسدنا . فأوداجنا تنتفخ حين نغضب ويجمد دمنا حين نخاف . وتتسارع ضربات قلبنا حين نغضب ، وحين نكون سعداء يكون جسمنا كله في حالة توتر تختلف عما هو فيه حين نكون محزونين . وتتجلى حالتنا النفسية في سيماء الوجه ، كما يتجلى موقفنا وتتجلى مشاعرنا في حركاتنا وايماءاتنا جلاءً واضحاً ودقيقاً بحيث يعرفها الآخرون بمزيد من الوضوح من تصرفاتنا أكثر مما يعرفونها من كلماتنا . والحق أنَّ الجسم رمز الروح وليس مجازاً . إنَّ إحساساً خالصاً عميقاً ، بل إنَّ فكرة تمَّ الاحساس بها إحساساً خالصاً ، لتجدُ تعبيرها في كامل جسدنا . وفي الرمز الكلي نقع على نفس العلاقة بين تجارب نفسية وتجارب جسدية . وتشير بعض الظواهر الجسدية من خلال طبيعتها الى تجارب نفسية وعاطفية محددة . ونعبّر عن تجاربنا العاطفية بلغة تجارب جسدية ، أي أننا نعبّر تعبيراً رمزياً .

والرمز الكلي هو الرمز الوحيد الذي لا تكون فيه العلاقة بين الرمز والمرموز إليه عرضية ، وإنما ملازمةً باطنة . إنَّ له جذوره في التجربة ذات العلاقة الداخلية بين العاطفة والفكرة من جهة والتجربة الحسية من جهة أخرى . وعلى هذا نستطيع

أن نسميه كلياً لأنه مشترك بين الناس كلهم . وهذا ليس نقيضاً للرمز العرضي الذي هو بطبيعته ذاتي محض فحسب ، وانما أيضاً نقيض الرمز التقليدي الذي يقتصر على مجموعة من الناس اتفقوا على شيء واحد . فالرمز الكلي متأصل في خواص جسدنا وحواسنا وعقلنا وفي خصائصها المشتركة بين الناس كلهم ؛ وعلى هذا لا تقتصر هذه الخصائص على أفراد أو مجموعات بشرية معينة . حقاً إنّ الرمز الكلي هو اللغة الوحيدة التي طورتها البشرية كلها ، لغة نُسيت من جديد قبل أن يتأتى لها أن تتطور إلى لغة عالمية تقليدية .

وعلى هذا لسنا في حاجة إلى أن نتكلم على وراثة نوعية لكي نوضح طبع الرموز الكلي . إنّ كل كائن بشريَ يشترك مع بقية الناس بسماته الجوهرية والروحية والفكرية ليستطيعُ أن يتكلم ويفهم لغة الرمز التي ترتكز على هذه الخصائص المشتركة . وكما أنه لا ينبغي علينا أن نتعلم البكاء إلاّ إذا كنا محزونين ولا احمرار الوجه إلاّ إذا كنا غاضبين . وكما أن ردود الأفعال هذه ليست حصراً بعرق معين أو مجموعة بشرية معينة فلا ينبغي علينا أن نتعلم اللغة الرمزية باديء ذي بدء وهي لا تقتصر على أية فئة من الجنس البشري . ولذلك فإنّ اللغة الرمزية ، كما وردت في الأساطير والاحلام ، موجودة في كل الحضارات ، سواءٌ الحضارات البدائية أم حضارات مصر واليونان المتطورة . وفضلاً عن ذلك فإنّ الرموز المستعملة في مختلف هذه الحضارات شبيهة ببعضها شبهاً ملحوظاً ، ذلك لأنها كلّها تعود إلى نفس المحسوسات أو المدركات الحسية وتعود إلى نفس التجارب الروحية التي تجمع أقوام هذه الحضارات كلهم وتوحدهم . إنّ ثمة أدلةً اضافيةً على ذلك أقامتها تجارب حديثة تبيّن في ضوئها أن بشراً لم يعرفوا شيئاً عن نظرية تفسير الاحلام استطاعوا بفعل التنويم المغناطيسي أن يفهموا رمزية أحلامهم دونما صعوبة . وحين أفاقوا من التنويم المغناطيسي وطلب إليهم أن يفسروا الأحلام نفسها أوضحوا مرتبكين أنه «لا معنى لها على الاطلاق - إنها هراء محض» . على أن هذا الإثبات يحتاج إلى وصف وتحديد . إنّ هنالك أيضاً بعض الرموز التي لها في مختلف الحضارات معنى يختلف باختلاف الأزمان وفقاً لمدلولها المرتبط بالواقع . وهكذا فإنّ وظيفة الشمس مثلاً في بلاد الشمال والمدلول المطابق لذلك ليختلفان عما هما عليه في البلاد الحارة . ففي البلدان الشمالية حيث الماء الوفير يتوقف كل نمو على سطوع الشمس الكافي . وعلى

هذا فإنَّ الشمس قوةٌ دافئة تحبّ وتحمي وتهب الحياة . وفي الشرق الأدنى حيث تسطع الشمس على نحو أشد تكون الشمس قوة خطيرة ، بل ومهددة يجب أن يحمي المرء نفسه منها على حين يجد المرء الماء مصدر الحياة وأهم شروط النماء . وفي مقدورنا أن نتكلم على لهجات اللغة الرمزية العالمية التي هي وقفٌ على الفرق في وقائع الطبيعة ومعطياتها التي تؤدي الى أن رموزاً معينة في شتى أرجاء المعمورة لها معنى مختلف . شيء آخر غير هذه «اللهجات الرمزية» هو أنَّ كثيراً من الرموز يكون لها أكثر من معنى طبقاً لمختلف أنواع التجارب التي قد تكون مرتبطة بالظاهرة الطبيعية نفسها . ولنعُد مرة أخرى إلى رمز النار . فحين نراقب النار في الموقد الذي يشعّ بهجة وارتياحاً وانشراحاً فإنَّ هذا ليعبّر عن حالة نفسية نشطة دافئة طيبة . أمّا حين نرى بناءً يحترق أو غابة تحترق فإنَّ هذا في نظرنا تجربة أو حادثة مخيفة تحف بها الأخطار وتجعلنا نحسّ بعجز الانسان تجاه عناصر الطبيعة . وعلى هذا يمكن أن ترمز النار إلى حيوية روحية وسعادة أو إلى خوف وعجز وميول هدامة خاصة . وينطبق الشيء نفسه على رمز الماء . فقد يكون الماء قوةً هدامة جداً حين تحركه العاصفة أو حين يفيض أحد الأنهار ، ولذلك فإنَّ هذا قد يرمز إلى الهول والفوضى أو إلى العزاء والسلام من جهة أخرى .

ولدينا مثلٌ آخر له علاقته بالموضوع وهو رمز الوادي . إنَّ وادياً تحيط به الجبال ليستطيع أن يوقظ في أعماقنا الاحساس بالأمن والطمأنينة والحماية من كل الأخطار الخارجية ؛ على أنَّ الجبال الحامية يمكنها أن تكون أيضاً أسواراً تعزلنا وتحول دون خروجنا من الوادي . ولهذا السبب يمكن أن يستحيل الوادي الى رمز للحبس . فالمعنى الخاص لأي رمز لايمكن فهمه إلاَّ من السياق الكلي الذي يظهر فيه الرمز ، مع مراعاة التجارب السائدة للانسان الذي يصطنع هذا الرمز . وسنتطرق إلى هـ حين نعالج رموز الحلم . إنَّ ثمة مثلاً مناسباً على وظيفة الرمز الكلي ، هو قصة مكتوبة بلغة الرمز ويعرفها الجميع تقريباً في نطاق حضارتنا الغربية[!] . إنّها قصة يونس (يونان) . لقد سمع يونس صوت الرب يأمره بأن يذهب إلى نينوى لينذر شعبها بأنَّ عليهم أن يكفوا عن سلوكهم المنكر وإلاَّ فإن الهلاك محيق بهم . ولا يملك يونس أن يصمّ أذنيه عن صوت الرب مما جعله نبياً . على أنّه نبي بالاكراه . ومع أنه يعرف ما ينبغي القيام به ، إلاَّ أنه يحاول أن يتهرب من أمر الرب (وفي وسعنا القول

أيضاً ـ أن يتهرب من صوت ضميره) . فهو انسان ليس عنده قلب على بني جنسه . وهو إنسان ذو حس قوي للشرع والقانون والنظام . على أنه يفتقر الى الحب[1] .

فكيف تصوّر القصة ما يعتمل في نفس يونس ؟

ونعلم أن يونس ينزل إلى يافا حيث يجد سفينة مسافرة إلى ترشيش . ولكن ما إن يجد نفسه في عرض البحر حتى تهب عاصفة شديدة . وبينما الآخرون كلهم في خوف وقلق واضطراب ينزل يونس الى جوف السفينة وينام نوماً عميقاً . أما البحارة الذين يعتقدون أن الرب أرسل العاصفة لأن شخصاً ما موجود هنا على ظهر السفينة ويجب معاقبته فيوقظون يونس الذي كان حدّثهم قبل ذلك أنه هارب من أمر الرب . ويقول لهم إنّ عليهم أن يحملوه ويلقوه في عرض البحر لكي يهدأ البحر . فالبحارة الذين يكشفون عن حس إنساني جدير بالملاحظة ذلك لأنهم يحاولون في باديء الأمر كل شيء قبل أن يذعنوا لطلبه . وأخيراً يمسكون بيونس ويرمونه في البحر الذي سرعان ما توقف عن الصخب والهدير . ويبتلع يونس حوتٌ ويبقى في جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليال ، ويصلي للرب في بطن الحوت لأن يحرره من سجنه . ويأمر الرب الحوت بأن يلفظ يونس الى البر . وهنا يتوجه يونس الى نينوى ملبياً أمر الرب وينقذ بذلك شعب المدينة .

وتروى الحكاية كما لو أنّ الأشياء وقعت هكذا على أرض الواقع . على أنها كتبت بلغة رمزية . والحوادث الموصوفة فيها وصفاً حقيقياً هي كلها رموز لتجارب البطل النفسية . ونصادف سلسلة من الرموز المتتابعة : صعود السفينة والنزول إلى جوف السفينة والنوم والاقامة في البحر وفي جوف الحوت . هذه الرموز كلها تنوب مناب التجربة النفسية المماثلة ، أي حالة الأمن والطمأنينة والعزلة لإنسان يتخلى عن ارتباطه بالناس الآخرين وعن معاشرته لهم لأسباب تتعلق بأمنه وسلامته . فهي تمثّل حالة يمكن التعبير عنها برمز آخر هو رمز الجنين في رحم أمه . ومع أنه في الامكان رؤية هيكل السفينة ، والنوم العميق والبحر وجوف السمكة رؤية واقعية مختلفة إلاّ أنها تعبيرٌ عن نفس التجربة الروحية وعن ذلك المزيج من الأمن والعزلة .

---

(١) انظر : اريش فروم ، المؤلفات الكاملة ، المجلد الثاني ، ص٦٥ ومابعدها ، حيث يتناول المؤلف قصة يونس على ضوء معنى الحب ومدلوله .

وفي القصة الصريحة تحدث الأشياء في المكان والزمان . ففي باديء الأمر يدخل البطل إلى جوف السفينة ثم ينام وبعدها يُلقى به في عرض اليم ثمَّ يبتلعه الحوت . الأشياء تحدث ، الواحد تلو الآخر . حتى إذا حدث الشيء الذي لا يمكن أن يطابق الواقع في ظاهر الأمر فإنَّ القصة ، مع هذا ، تتمتع من حيث المكان والزمان بمنطق مترابط متسق . وحين نفهم أنّ المؤلف لم يكن ينوي أن ينقل الينا سير حوادث خارجية ، وإنما أراد أن يصف لنا تجربة نفسية روحية لرجل تنازعه ضميره والرغبة في الهروب من صوته الداخلي فإنه يتضح لنا أن مختلف أعماله وتصرفاته المتلاحقة كلها تعبّر عن نفس الحالة النفسية التي تسيطر عليه وأن التعاقب الزمني المحدد يعبّر عن الحدة أو الشدة المتزايدة للاحساس المماثل .

وعلى حين يحاول النبي يونس أن يتهرب من الواجب تجاه أبناء قومه فإنه يعزل نفسه أكثر وأكثر عنهم إلى أن يتراجع أخيراً الاحساس بالأمان في جوف الحوت أمام الاحساس بالسجن حتى إنه لم يعد يحتمل هذا فيُضطر الى أن يطلب من الله أن يحرره من السجن الذي رمى بنفسه فيه . (وإنَّ هذا لميكانيكية (آلية) مميزة كل التميز لاضطراب نفسي وتشوش عصبي . فالمذكور آنفاً يتخذ موقفاً معيناً من أجل دفع خطر . على أنَّ هذا الموقف يتجاوز بعد ذلك الدور الأساسي للدفاع ويستحيل الى عَرَض من أعراض العصاب أو الاضطراب العصبي الذي يحاول المعني الخلاص منه) . وهكذا فإن هرب النبي يونس الى أمن العزلة ينتهي في عذاب السجن وآلامه . ويستأنف حياته من جديد في المكان الذي حاول الهرب منه .

ثم إنَّ هنالك فرقاً آخر بين منطق الحكاية الصريحة ومنطق الحكاية الكامنة . ففي الحكاية الصريحة تقوم علاقة سببية منطقية بين الحوادث الظاهرية الخارجية . فيونس يريد أن يقطع البحر لأنه يريد الهرب من الرب ويروح في سبات لأنه متعب ويُلقى به من على ظهر السفينة لأن المرء يعدّه السبب في الاعصار ويبتلعه الحوت لأن في البحر حيتاناً وأسماكاً تلتهم البشر . فالحوادث تتمخض عن بعضها . (والقسم الأخير من القصة ليس واقعياً ، لكنه ، مع هذا ، منطقي) . أما في الحكاية الكامنة فيسود نوع آخر من المنطق . إذ أن الحوادث المختلفة ترتبط مع بعضها من طريق تداعيها وترابطها مع التجربة النفسية ذاتها . فما يبدو تسلسلاً سببياً لحوادث خارجية ينوب مناب حوادث تترابط بحكم تداعيها مع تجارب نفسية

داخلية . وإنَّ هذا أيضاً لمنطقي ، مثله مثل الحكاية الصريحة ـ على أنَّ المسألة هنا هي مسألة منطق من نوع آخر . وإذا انتقلنا الآن الى دراسة طبيعة الأحلام فإنَّ المنطق السائد في لغة الرمز سيكون في نظرنا أكثر جلاء ووضوحاً .



الفصل الثالث :

طبيعة الأحلام

تتفاوت الآراء حول طبيعة الأحلام على مدى القرون وفي شتى الحضارات والثقافات تفاوتاً كبيراً . ولكن سواءٌ آمن المرء أن الأحلام تجاربُ حقيقيةٌ لروحنا التي هي غير ذات جسد والتي غادرت الجسد في أثناء النوم أم أعتقد أن الأحلام موحاة إلينا من الله أو من أرواح شريرة ، وسواء أرأى فيها التعبير عن عواطفنا اللاعقلانية أم رأى فيها ، بالعكس تماماً ، التعبير عن أعظم قوانا وأنبلها فإنَّ شيئاً واحداً لا جدال فيه هو أنَّ الأحلام لها كلّها معنى ومدلول . فهي ذات معنى لأنها تنطوي على رسالة ليستطيع المرء أن يفهمها إذا ما كان لديه المفتاح لحل لغزها . وهي ذات مدلول لأننا لا نحلم بشيء ثانوي حتى لو عبّر عن ذاته بلغةٍ تخفي الشيء المهم لرسالة الحلم وراء واجهة لا مضمون لها ولا معنى .

ولم يتخلَّ المرء أصلاً عن هذا الرأي إلاّ في القرون الأخيرة . فلقد أحيل تفسير الأحلام الى حقل الخرافات ، ولم يشكُّ المتنورون والمثقفون ، علماء وغير مختصين ، في أنَّ الأحلام هي تجليات ومظاهر تافهة فارغة لروحنا أو أنها ، على أكثر تقدير ، انعكاسات نفسية لانطباعات جسدية تمَّ استقبالها في النوم . وكان فرويد هو الذي أكدّ من جديد في مطلع القرن العشرين الرأي القديم أنَّ الأحلام ذات معنى ومدلول وأننا لا نحلم بشيء لا يكون تعبيراً مهماً عن حياتنا النفسية وأنَّ المرء يستطيع أن يفهم الأحلام كلها إذا ما امتلك المفتاح إلى ذلك ، ليس غير . ووصف فرويد تفسير الأحلام بأنه الطريق الملكي إلى معرفة اللاشعور[٢] . ووصف الحلم

---

(٢) ـ انظر ، فرويد ، سيغموند : تفسير الاحلام ، ١٩٠٠ ، ص ٦١٣ .

بأنه أشد القدرات والطاقات التي تعللّ سلوكنا السوي والمرضي على سواء . وإلى جانب هذا الاثبات الاكثر عمومية في طبيعة الأحلام تبنّى فـرويد بشدة وبشيء من الصرامة إحدى أقدم النظريات المتعلقة بذلك وهي أنّ الأحلام تحقيق لأهوائنا اللاعقلانية التي كبتناها في اليقظة .

وليس في ودي أن أسهب الآن ، وفي هذا المقام ، في بحث نظريات فرويد في الأحلام والنظريات القديمة من هذا القبيل ، وانما سأعود إلى ذلك في فصل آخر . وبادىء ذي بدء أود أن أعالج طبيعة الحلم كما تعلمت فهمها بوساطة مؤلفات فرويد ومن طريق تجاربي حالاً ومفسر أحلام .

وحيث إنه ما من تعبير لفاعلية النفس ونشاطها إلاّ ويظهر في الحلم فإني أعتقد أن التعريف الوحيد لطبيعة الحلم الذي لا يشوّه هذه الظاهرة ولا يقلل من شأنها هو التعريف المصوغ صياغة عامة أنّ الحلم تعبير عن أي نشاط نفسي روحي في حالة النوم وله معناه ومدلوله .

وليس من شك في أنّ هذا التعريف صيغ صياغة أعم بكثير من أن تساعدنا في فهم طبيعة الأحلام إذا لم نستطع أن نقول شيئاً أدق عن «حالة النوم» وعن تأثيرها الخاص في نشاطنا النفسي . وإذا استطعنا أن نتبين أيَّ أثر نوعي للنوم في نشاطنا النفسي ربما استطعنا أن نكتشف ونعرف المزيد عن طبيعة الأحلام .

ومن الناحية الفزيولوجية فإنَّ النوم حالة تجديد كيميائية للجسد . وعلى حين يتعطل كل نشاط ويتعطل كـل حس تقريباً فإن طاقة جديدة تختزن . ومن الناحية السيكولوجية (النفسية) يعطل النوم الوظيفة الأساسية المميزة لوجودنا في اليقظة : أي رد فعلنا على البيئة الخارجية من طريق الحس والملاحظة والعمل . وهذا الفرق بين وظائف اليقظة والنوم البيولوجية يعني في الحقيقة فرقاً بين حالتين من حالات وتجودنا . ولكي نستطيع أن نحكم حكماً صحيحاً على أثر حالة النوم في حياتنا النفسية لا بدَّ لنا قبل كل شيء من أن ندرس مشكلة عامة وهي التوقف المتبادل لكل من نشاطنا في أي وقت من الاوقات وللعملية الذهنية المرتبطة بذلك . فما نفكر به يتحدد إلى حدّ كبير بما نريد أن نفعله ونقوم به . وهذا لا يعني أن تفكيرنا سيتشوّه بوساطة اهتمامنا في أي وقت من الأوقات ؛ بل انه سيتغيّر وفق ذلك . فما الموقف الذي سيتخذه ناس مختلفون من غابةٍ مثلاً ؟ فالرسام ، أي رسام كان ، يذهب الى

الغابة ، أية غابة كانت ، لكي يرسم هنا ، وصاحب الغابة الذي يريد أن يعرف ما ستدر عليه الغاية من نفع ، والضابط ، أيا كان ، يهتم بمسألة التكتيك وكيفية الدفاع عن المنطقة ، والجوّال ، أيا كان ، يريد أن ينشرح صدره بذلك ؛ إنّ كلاً من هؤلاء سيكون له موقفٌ مختلف كل الاختلاف ، ذلك لأن كلا منهم يهمه ناحية أخرى أو وجهٌ من الغاية نفسها . فالرسام سيوجه اهتمامه إلى الأشكال والألوان والتاجر سيهتم بحجم الأشجار وعمرها وعددها والضابط سيهتم بامكانيات الرؤية والحماية على حين تهمّ الجوال مسالك الغابة وحركته الجسدية . والحق أنهم سيتفقون كلهم بخصوص الاثبات المجرد أنهم يقفون على طرف غابة ؛ إلا أن نوع تجربتهم في «رؤية غابة» وقفٌ على النشاط المتنوع الذي يخطر ببالهم .

إنَّ الفرق بين الوظائف البيولوجية والسيكولوجية للنوم واليقظة هو في الأصل من نوع آخر يختلف عن الفرق بين فاعليات وأنشطة أخرى . وعلى هذا فإنَّ الفرق أيضاً بين المفهومين العامين المتعلقين بكلتا الحالتين هو أكبر بكثير . ففي حالة اليقظة تستجيب أفكارنا وأحاسيسنا في المقام الأول لما يطلب منها ولمهمة التغلب على بيئتنا الخارجية وتغييرها أو مقاومتها ودفعها . فمهمة الانسان الصاحي اليقظ هي البقاء ، فهو خاضع للقوانين التي تتحكم بالواقع الفعلي . وهذا يعني أنَّ عليه أن يفكر بمفهومي الزمان والمكان .

وعلى حين ننام لا نشغل أنفسنا بأن نخضع العالم الخارجي لمقاصدنا ومآربنا . فنحن لا حول لنا ولا طول ، ولذلك صدق من سمى النوم «أخا الموت» . على أننا أحرار أيضاً ، بل أكثر حريّة مما نحن عليه في اليقظة . فلقد تحررنا من عبء العمل ومن مهمة الهجوم أو الدفاع عن النفس . فليس من داعٍ لأن نراقب الواقع ونسيطر عليه ؛ ولسنا في حاجة الى أن نعبأ بالعالم الخارجي . إنّنا نحول نظرنا إلى الداخل ونتفرغ لأنفسنا . وفي النوم نستطيع أن نقارن أنفسنا بجنين أو حتى بميت أو بملائكة أيضاً لا تخضع لقوانين الواقع الفعلي . وفي النوم يخلي عالم الضرورة مكاناً لعالم الحرية على حين يكون «وجود الانا» الشيء الوحيد الذي تتعلق به أفكارنا وأحاسيسنا .

وفي أثناء النوم يبدي النشاط النفسي منطقاً آخر يختلف عما يبديه في أثناء اليقظة . فلا داعي لأن نهتم في النوم بأشياء لا أهمية لها ولا معنى إلاّ عند التعامل

مع الواقع . فحين أشعر ، مثلاً ، بشخص أنه جبان ففي وسعي عندئذ أن أحلم به أنه تحوّل من إنسان الى دجاجة . ويكون لهذا التحول معناه العميق من حيث إحساسي وشعوري تجاه هذا الشخص ، وليس له معنى من حيث اتجاهي الى العالم الخارجي (أو بالنسبة لما يمكنني أن أفعله بالشخص المعني على حيز الواقع) . فحادثة النوم لا تفتقر الى المنطق ، على أنَّ المسألة هي مسألة قوانين منطقية أخرى يسري مفعولها تماماً في هذه الحالة من التجارب والحوادث .

إنَّ النوم واليقظة قطبا الوجود الانساني . فحياتنا في اليقظة تستغرقها مهمة العمل . على حين نتحرر في النوم من هذه المهمة . فليس للنوم إلاَّ وظيفة اختبار الذات . فإذا أفقنا من النوم انتقلنا مرة أخرى إلى عالم الحياة النشطة . ومن ثمَّ فإننا نكون مهيئين كل التهيؤ لهذا العالم الذي تتحرك فيه أيضاً أفكارنا : ـ فنتذكر بمفاهيم مكانية زمانية ما نستطيع أن نسترجعه . ويزول عالم النوم ولا نستطيع أن نتذكر ما عشناه فيه وشهدناه ، أي أحلامنا ، إلاَّ بجهد جهيد وبصعوبة بالغة[٣] . ولقد تمَّ تصوير هذا الموقف في كثير من الحكايات تصويراً رمزياً : ففي الليل يكون المشهد مسكوناً بالأشباح والأرواح الطيبة والشريرة ، أما حين يبزغ الصبح فإنها تختفي ولا تبقى بقية باقية من الحادثة الهائلة العجيبة كلها . ويتمخض عن هذه التأملات بعض النتائج من أجل طبيعة اللاشعور : فهو ليس عالم يونغ الأسطوري بتجاربه وخبراته المستمدة من تاريخ الأجناس ولا موطن فرويد للقوى الليبيدية غير المعقولة . بل إنَّ علينا أن نفهمه تبعاً للمبدأ القائل «إنَّ ما نفكر به ونحسه يتأثر بما نفعله» .

فالشعور هو الفاعلية النفسية في حالة وجودنا الذي نشْغَلُ فيه بالعالم الخارجي على نحو عمليّ . واللاشعور هو الخبرة النفسية في حالة وجودنا الذي قطعنا فيه كل الروابط مع العالم الخارجي ولم نعد نتوخى العمل أو النشاط والفعالية وإنما التفرغ لأنفسنا ، ليس غير . فاللاشعور هو الخبرة المرتبطة بصيغة خاصة من صيغ وجودنا وهي اللافعالية . وتنتج سماته المميزة عن طبيعة هذه الصيغة الوجودية .

---

٣) انظر : شاختل ، ارنست ج . : الذاكرة وفقدان ذاكرة الطفولة ، ١٩٤٧ . وفي هذه المقالة المحركة يعرض لمسألة وظيفة الذاكرة من حيث فعالية الحلم ونشاطه .

أما خصائص الشعور فتحددها طبيعة العمل الفعال ووظيفة بقاء حالة اليقظة. «فاللاشعور» هو اللاشعور من حيث علاقته «بحالتنا السوية» ، حالة الفعالية فقط . وحين نتحدث عن «اللاشعور» نريد في الواقع أن نكتفي بالقول إنَّ خبرة من الخبر لا تنسجم مع المكان النفسي العقلي الموجود ونحن نعمل . ونحس به عندئذ على أنه عنصر رهيب منغص لا يمكن فهمه أو التعبير عنه إلاّ بصعوبة ولا نستطيع أن نتذكره إلا بصعوبة . ولكن حين ننام لا نعرف شيئاً عن عالم النهار كما لا نعرف شيئاً أيضاً عن عالم الليل في اليقظة . والشائع المألوف أننا لا نصطنع مفهوم «اللاشعور» إلاّ من ناحية خبرتنا اليومية . وعلى هذا لا يتضح في ذلك أن الشعور واللاشعور ليسا إلاّ حالتين نفسيتين مختلفتين لهما علاقتهما بمختلف الحالات التي نمرّ بها ونخبرها .

ولربما اعترض المرء على أنّ تفكيرنا واحساسنا في اليقظة لا يخضعان كل الخضوع لقيود الزمان والمكان وأنَّ مخيلتنا الخلاقة تمكننا من أن نفكر بأشياء في الماضي والمستقبل كما لو أنها حاضرة وأن نحكم في أشياء بعيدة وكأنها ماثلة أمامنا . وسيعترض علينا المرء أيضاً أن احساسنا في اليقظة لا يتوقف على الحضور الجسدي للموضوع ولا يتوقف أيضاً على تواجدها الزمني وأنه لهذا السبب لا يكون انعدام النظام الزمني والمكاني خاصيّة لوجودنا في النوم خلافاً لليقظة ، بل إنه ليميز تفكيرنا واحساسنا خلافاً لعملنا الفعال . وإن هذا بالنسبة لي اعتراض مقبول ؛ على أنّه يمكنني من أنْ أوضح نقطة جوهرية من نقاط حجتي .

وعلينا ، إذاً ، أن نميّز بين محتويات العملية الفكرية عندنا والمقولات المنطقية المستعملة في أثناء التفكير . وعلى حين يصحُ أن مضامين تفكيرنا في اليقظة لا تخضع لحدود المكان والزمان فإن مقولات وتعابير التفكير المنطقي ذات طبيعة مكانية وزمانية . ولهذا أستطيع أن أتذكر مثلاً والدي وأوكد أن موقفه في وضع معين مطابق لموقفي . وهذا الاثبات هو صحيح من الناحية المنطقية . وحين أزعم من ناحية أخرى «أنني أبي» فإنَّ هـذا الزعم «غير منطقي» لأنه لا يطابق مفاهيم العالم الفيزيائي . أما من حيث نوعيةُ الحادثة البحتة فالجملة منطقية إذ أنني أعبّر عن مشاعر التماثل والمطابقة مع أبي . ثم إنَّ عمليات التفكير المنطقية في حالة اليقظة تخضع لمقولات لها جذورها في نمط خاص من أنماط الوجود ، أي في النمط الذي

نتصل فيه بالواقع اتصال العاملين الفعالين . وإنَّ وجودي وأنا نائم ليتميز بانعدام أي عمل من الأعمال ، حتى الأعمال الممكنة أيضاً . وتستعمل في هذا الوجود مقولات لا تتعلق إلا بتجربة ذاتية ، ليس غير . وينطبق الشيء نفسه على الاحساس . فحين يتوجه احساسي في اليقظة الى انسان لم أره منذ عشرين سنة فإني أبقى أبداً على بيّنة من أنَّ الشخص المذكور ليس حاضراً . أما اذا حلمت به فأحسه وكأنه حاضر موجود . ولكنني إذا قلت «كأنما هو حاضر موجود» فإني أعبر عن إحساسي وكأنه حاضر موجود . ولكنني إذا قلت «كأنما هو حاضر موجود» فإني أعبر عن إحساسي بمفهومات تطابق «حياة اليقظة» . أما في النوم فلا مكان «لكأنما» . فهنا يكون الشخص المذكور حاضراً موجوداً .

لقد حاولت في الصفحات السابقة أن أصف الظروف السائدة في النوم وأن نستدل من هذا الوصف باستدلال معين على فعالية الحلم . وعلينا الآن أن نخطو خطوة أخرى ونبحث عنصراً خاصاً من عناصر الظروف الخاصة بالحلم . وسيتبين لنا أن هذا العنصر على اهمية كبيرة جداً في فهم عملية الحلم . ولقد قلنا إننا لا نشغل أنفسنا في النوم بأن نؤثر في الواقع . فلا ننتبه الى الواقع أبداً ولا نؤثر فيه ، كما أننا نحن أنفسنا لا نخضع لتأثيرات العالم الخارجي . ويستدل من هذا أن أي أثر يحدثه فينا انعزالنا عن الواقع هو وقف على حالة هذا الواقع الخارجي . فإذا أثَّر فينا العالم الخارجي أثراً طيباً في جوهره فمن المحتمل أن يقلل غياب هذا التأثير في النوم من قيمة فعالية الحلم عندنا بحيث تكون هذه القيمة أقل بكثير من قيمة فعالية نفسنا في النهار حيث يعمل العالم الخارجي بتأثيراته الطيّبة هذه عمله فينا . ولكن هل يصح أن يكون تأثير الواقع فينا مواتيا وجيداً في المقام الأول ؟ ألا يمكن أن يكون أيضاً ضاراً لنا وعلى هذا ، وإذا ما انعدم هذا التأثير ، ألا يمكن أن تظهر فينا خصائص وصفات تكون أفضل مما هي عليه في اليقظة ؟ وحين نتكلم على الواقع خارج أنفسنا فإننا نقصد بذلك عالم الطبيعة في المقام الأول . فالطبيعة في ذاتها ليست خيرة وليست شريرة . وفي إمكانها ان تكون معينة لنا أو خطيرة علينا . وإذا كنا لا نكترث لشيء فيها فإنَّ هذا يحررنا في الحقيقة من مهمة السيطرة عليها أو الدفاع عن الناس حيالها . ومهما يكن فإن هذا لا يجعلنا أكثر غباء ولا أكثر ذكاء ، لا أفضل ولا أسوأ . أما بالنسبة للعالم المحيط بنا والذي أوجده البشر وبالنسبة

للحضارة فالأمر مختلف تماماً . فتأثيره فينا متباين كل التباين حين نميل الى الافتراض أيضاً بأنه لا يؤدي إلاَّ لنتيجة تكون في صالحنا .

والحق أن كثيراً من الدلائل تشير على نحو شديد للغاية الى أنَّ الحضارة تؤثر فينا تأثيراً مباركاً . وإنها لقدرتنا على أن نضع حضارة تميزنا من عالم الحيوان . فالفرق في المستوى الحضاري هو ذلك الذي ينطوي على الفرق بين مراحل التطور الانساني العليا والدنيا . واللغة ، أهم سمات الحضارة ، شرط لكل انجاز انساني . ولقد اطلق المرء بحق على الانسان اسم الحيوان الصانع للرموز . إذ أننا ما كنا سُمّينا بشراً لولا قدرتنا على اللغة . على أن كل وظيفة انسانية أخرى تتوقف أيضاً على تماسنا واتصالنا بالعالم الخارجي . فنحن نتعلم التفكير حين نراقب الآخرين ونتلقى العلم على أيديهم . ونطور قدراتنا العاطفية والذهنية والفنية على حين نكون على اتصال بالعلم المكدّس والانجازات الفنية التي صنعها المجتمع . ونتعلم الحب والعناية بالآخرين من طريق الاحتكاك بهم ونعرف كيف نكبح جماح دوافعنا العدوانية وأنانيتنا وذلك بأن نحب الآخرين أو أن نخشاهم على الأقل . إذن ، أليس الواقع الذي صنعه الآخرون ، أي العالم الخارجي ، بأهم العوامل لتطور الأفضل في أنفسنا ، وعلى هذا ، وإذا لم نكن على اتصال بالعالم الخارجي ، أليس من المتوقع أن نرجع بين الأونة والأخرى إلى حالة ذهنية بدائية شبه حيوانية لا يقرها العقل ؟ وهنالك الكثير من الدلائل التي تشير إلى مثل هذا الافتراض . وكثيرون ممن اهتموا بالحلم بدءاً من افلاطون وانتهاء بفرويد يذهبون إلى أن ارتداداً أو تراجعاً من هذا القبيل هو السمة الجوهرية المميزة للنوم ، وبذلك فهو أيضاً سمة لعمل الحلم وفعاليته .

وانطلاقاً من هذه الوجهة نتوقع من الأحلام بأن تتجلى فيها الدوافع البدائية غير المعقولة الكامنة في أنفسنا . ولما أننا ننسى أحلامنا بمنتهى السهولة فإن هذا يعزى الى حد بعيد الى أننا نخجل من تلك الدوافع اللامعقولة الآثمة التي نظهرها حين لا نخضع لسيطرة المجتمع . وليس من شك في أنَّ هذا التحليل للحلم صحيح . وستكون لنا عودة إلى ذلك على الفور وسنسوق بعض الأمثلة على ذلك . ولكن السؤال هو هل هي الحقيقة كلها أم أليست العناصر السلبية في تأثير المجتمع هي السبب في المفارقة بأننا في النوم لا نكون أقل حكمة وتعقلاً وعفة فحسب ، بل

نكون أيضاً أكثر ذكاء وفطنة وقدرة على الحكم مما نحن عليه في اليقظة .

والحق أنَّ الحضارة ليس لها تأثير طيّب فحسب ، بل ضارٌ مؤذ أيضاً في وظائفنا الفكرية والأخلاقية . فالناس وقف على بعضهم ويحتاجون بعضهم . على أن تاريخ الانسانية تأثر حتى يومنا هذا بحقيقة حاسمة وهي أن النتاج المادي لا يكفي لكي يشبع الحاجات المشروعة للناس كلهم . فالمائدة لم تكن دائماً وأبداً محدودة إلا لنفرٍ من الناس أرادوا تناول الطعام . والأقوياء حاولوا أن يحجزوا لهم مكاناً ، وهذا يعني أنه كان عليهم أن ينتزعوا هذا المكان من الآخرين . فلو أنهم أحبوا الغير الحب الذي نادى به بوذا والأنبياء وعيسى لقاسموهم خبزهم بدلاً من أن يأكلوا اللحم ويشربوا النبيذ . ولما كان الحب أعظم وأصعب منجزات الانسانية فلا نستطيع أن نرمي الناس بأن أولئك الذين استطاعوا أن يجلسوا الى مائدة ممدودة ويستمتعوا بطيبات الحياة رفضوا أن يشاركهم الآخرون ولهذا كان عليهم أن يحاولوا السيطرة والتسلط على أولئك الذين هدّدوا امتيازاتهم ومصالحهم . وكثيراً ما كانت هذه السلطة هي سلطة الفاتح ، السلطة الجسدية التي أجبرت الأكثرية على أن يرضوا بمصيرهم . أما وسائل السلطة الجسدية فلم تكن دائماً وأبداً طوع البنان . وكثيراً ما كانت غير كافية . كما أنه كان على المرء أيضاً أن يسيطر على أرواح البشر لكي يحول بينهم وبين استخدامهم قبضاتهم . وما كانوا ليستغنوا عن هذا التحكم بالتفكير والاحساس إذا ما أرادوا الابقاء والحفاظ على امتيازاتهم . على أن القليل من الناس عانوا بهذه العملية من ضرر نفسي كما عانى الكثيرون . فحارس السجناء قد يتحول الى سجين مثله مثل السجين نفسه . «والصفوة» التي تتحكم بأولئك الذين لم يُصطفوا ستتحول إلى سجناء ميولها المقيدة . وهكذا ينصرف العقل والروح عند الحاكم والمحكوم عن مهمتها الانسانية الاساسية بأن يحسّا احساساً انسانياً ويفكرا تفكيرا انسانياً ويستعينا بقوى العقل والحب التي تنطوي عليها طبيعة الانسان فيستخدماها وينمياها ويواصلا تطويرها ، ذلك لأن الانسان يبقى من دون تطورها الكامل مشوّهاً .

وفي أثناء عملية التحول والتشوّه هذه يفسد طبع البشر . فتبرز أهداف تناقض اهتمامات الذات الانسانية الحقة . وتنشلّ قوة الحب مما يؤدي بالمرء إلى أن يبحث عن السيطرة على الآخرين . وتضيع الثقة والطمأنينة ويبحث المرء عن توازن

بأن يطلب المجد والشهرة بحماسة ، وبذلك يفقد المرء الاحساس بالكرامة والعفة والكمال ويرى نفسه مضطراً إلى أن يتحول إلى سلعة ويجعل عزة نفسه وقفاً على براعته ومهارته في البيع وعلى نجاحه . هذا كلّه يقود الى أننا لا نتعلم ما هو صحيح فحسب ، بل ما هو خطأ أيضاً ، وأننا لا نسمع فقط ما هو جميل وطيب ، بل ما يخضع دائماً لنفوذ أفكار تضر الحياة وتؤذيها .

وينطبق هذا على قبيلة بدائية تمارسُ فيها قوانين صارمةٌ وعاداتٌ وأعرافٌ سلطانها على الأرواح ، كما أنَّ هذا ينطبق أيضاً على مجتمعنا الحديث الذي تحرر ، كما يقال ، من كل الطقسيات الصارمة . فالقضاء على الأمية وانتشار وسائل الاتصال بالجماهير جعلا للتصورات الحضارية المصبوبة في قوالب مبتذلة شائعة الاستعمال تأثيراً كبيراً على نحو ما هو أيضاً في حضارة قبلية صغيرة ذات تقييدات فائقة الشدة والقوة . ويكاد الانسان المعاصر أن يكون عرضة لأي صخب ؛ لصخب المذياع والتلفزيون والعناوين المكتوبة بالخطوط العريضة والدعاية والأفلام التي لن تزيدنا في الغالب فطنة بل على العكس من ذلك تجعلنا جهلة أغبياء : فنحن عرضة لتبسيطات وتسويفات كاذبة تتظاهر بأنها حقيقية ؛ ونكون عرضة لسخف خالص يتستر بستار العقل الانساني السليم أو ستار حكمة الاختصاصي السامية ، وعرضة للثرثرة المرائية والتبلد الفكري والخداع والمنافقة التي ترفع الصوت عالياً باسم «الشرف» تبعاً للظروف أو تتظاهر بمظهر «الواقعية» . والحق أننا نشعر بالاستعلاء والتفوق على خرافات أجيال قديمة أو ما يسمى بالحضارات البدائية . على أن المرء لا يزال يلقننا نفس النوع من الآراء الخرافية التي تتظاهر بأنها آخر مكتشفات العلم . أليس بمستغرب ، إذاً ، أنَّ النمو ليس ببركة فحسب ، بل لعنة أيضاً ؟ وهل هو مستغرب أننا في النوم ، وحين نخلو إلى أنفسنا ونستطيع أن نتأمل في أعماقنا من دون أن يزعجنا عندئذ الصخب والسخف اللذان يحيطان بنا في النهار ، لأقدر على أن نحسَّ بأصدق مشاعرنا وأنفسها قيمة وأن نفكر ؟ وبذلك فإننا نخلص إلى النتيجة التالية : إنَّ لحالة النوم وظيفة مزدوجة تحتمل أكثر من معنى . فما هو أفضل وما هو أسوأ يظهران فينا على سواء ، لأننا لا نكون على اتصال بالحضارة . وعلى هذا نستطيع أن نكون في الحلم أقل فطنة وحكمة واستقامة وعفة ، لكننا نكون أيضاً أفضل وأحكم مما نحن عليه في اليقظة .

وهنا ، وعند هذه النقطة ، تواجهنا المشكلة الصعبة : أنّى لنا أن نعرف إن كان في الامكان فهم حلم بأنه تعبير عن الأفضل أم هو تعبير عن الأسوأ في أنفسنا ؟ وهل هنالك مبدأ يكون في إمكانه أن يرشدنا الى الطريق ؟ وللاجابة عن هذا السؤال علينا أن ننهي نقاشنا العام ونحاول أن نستخلص آراء أخرى من خلال مناقشتنا لبعض أمثلة الحلم العيانية الملموسة .

والحلم التالي رواه رجل كان التقى قبل ذلك بيوم «شخصية مهمة جداً» ، اشتهرت بأنها كانت على قدر كبير من الحكمة والطيبة . وكان هذا الحالم بحث عن هذا الشخص لأنه كان متأثراً الاثر الكبير بما رواه الجميع عن هذا الرجل العجوز . وبعد ساعة أو نحوها كان غادره مرة أخرى وهو يحس بأنه تعرف على انسان طيب مهم .

«أرى السيد فلان [الشخص المهم جداً] ويبدو وجهه على غير ما كان عليه أمس . أرى فماً متوحشاً ووجهاً صارماً . ويحدّث شخصاً ما وهو يضحك بأنه أفلح في أن يخدع امرأة أرملة في آخر ما عندها من نقود . إني لاحسُّ بالاشمئزاز» .

ورداً على السؤال عما خطر بباله عند هذا الحلم قال الحالم : إنَّ في وسعه أن يتذكر أنه أحسّ إحساساً عابراً بالخيبة حين دخل غرفة السيد فلان وألقى أول نظرة على وجهه . على أن هذا الوجه اختفى مرة ثانية لما طفق هذا الشخص يتحدث معه حديثاً ودياً لطيفاً .

كيف يمكن فهم هذا الحلم ؟ ولربما كان الحالم يحسد السيد (فلان) على مجده وشهرته فلا يستطيع أن يطيقه من أجل ذلك ؟ وفي هذه الحال قد يكون الحلم تعبيراً عن البغض اللاعقلاني الذي يعمر صدر الحالم من دون أن يكون على بيّنة من ذلك . على أنَّ الأمر يختلف في هذه الحالة المرويّة هنا . فبعد أن بات الحالم سيء الظن بوساطة أحلامه راقب السيد (فلان) مراقبة دقيقة واهتدي في الاجتماعات التالية الى أنَّ في هذا الرجل شيئاً من القسوة واللامبالاة كان لاحظه في حلمه أول مرّة . وأكدَّ هذا الانطباع بعضُ الأشخاص الذين جرؤوا على أن يشككوا في رأي الأكثرية بأن الشخص الفلاني غاية في الطيبة . وأكدّت الانطباع الرديء بعض الوقائع في حياة هذا الشخص التي لم تكن في مثل هذه الشناعة والضخامة التي كانت عليها الحادثة في الحلم ؛ على أنها ، مع ذلك ، تنمُّ عنها الذهن نفسه .

ونرى ، إذاً ، أنَّ الحالم أصاب في حكمه على طبع السيد (فلان) وهو نائم أكثر مما أصاب في الحكم وهو يقظ . إنَّ «صخب» الرأي العام الذي أكدَّ دائماً وأبداً أن الشخص الفلاني هو إنسان رائع حال بينه وبين ادراكه لشعوره النقدي نحو هذا الشخص حين رآه . أمّا فيما بعد ، وبعد أن كان رأى الحلم فقد خطر بباله أنَّ شكّا وسوء ظن ساوراه في أقل من لحظة عين . ففي الحلم حيث كان في جوٍّ من «الصخب» وكان قادراً على أن يخلو إلى نفسه وانطباعاته ومشاعره ، استطاع أن يبني حكماً كان أصوب وأكثر مطابقة للحقيقة من انطباعه في اليقظة . وفي أثناء هذا الحلم ، كما في أيّ حلم آخر أيضاً ، لا نستطيع أن نقرّر ما إذا كان الشيء الذي يتجلّى فيه هو هوى لا عقلانياً أم عقلاً ، إلاّ إذا اعتبرنا شخصية النائم وحسبنا حساباً لحالته النفسية عند النوم وراعينا كل ما هو في حوزتنا من بيانات واقعية عن الموقف الذي حلم به . وفي هذه الحال تثبت تحليلنا سلسلةٌ كاملة من البيانات . فالحالم ما زال قادراً على أن يتذكر أنَّ فلاناً كان ترك في نفسه أثراً مزعجاً في بادىء الأمر . فهو لم يكن يكنُّ له مشاعر عدائية ولم يكن لديه ما يدفعه إلى ذلك . كما أن وقائع من حياة هذا الشخص (فلان) وملاحظات لاحقة أكدت هذا الانطباع الذي كوّنه الحالم عنه في الحلم . فلو لم تكن هذه العوامل كلها موجودة لكنّا فسّرنا الحلم تفسيراً آخر . فلو كان الحالم ، مثلاً ، ميالاً إلى أن يحسد ناساً مشهورين ولو لم يستطع أن يأتي ببراهين وأدلة على صحة حكم الحلم على (فلان الفلاني) ولو لم يخطر بباله أنَّ (فلاناً) الفلاني بدا له سمجاً ثقيل الظلّ حين رآه أوّل مرة لافترضنا بطبيعة الحال أنَّ ما جاء في هذا الحلم ليس رؤيته وتبصره بل بغضه اللاعقلاني .

والرؤية وثيقة الصلة بالتنبؤ. والتنبؤ بشيء يعني الاستدلال على سير الحوادث في المستقبل من اتجاه القوى وشدّتها وهي تعمل عملها في الوقت الحاضر . إنَّ معرفة عميقة للقوى الفعالة في الأعماق لا للانطباع السطحي لتتيح الفرصة لتنبؤات ، وإنَّ تنبؤا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجد لا بدَّ أنْ يرتكز دائماً على مثل هذه المعرفة . ولا غرابة أننا كثيراً ما نتنبأ تطورات وحوادث تؤكدها فيما بعد وقائع وحقائق . فإذا أغفلنا التخاطر أو التداعي مرة واحدة فإنَّ كثيراً من الأحلام التي يتنبأ فيها الحالم حوادث آتية في المستقبل تكون أحد التنبؤات اللاعقلانية ، كما عرَّفنا التنبؤ توّاً . وإنَّ أحد أقدم الاحلام المأثورة التي صدقت كان حلم يوسف :

«ورأى يوسف ذات مرة رؤيا . وحين قصّها على أخوته ازدادوا كرهاً له . قال لهم : استمعوا الى ما رأيت في المنام ! كنّا نربط حزماً في وسط الحقل . وانتصبت حزمتي وبقيت واقفة . وأحاطت بها حزمكم وانحنت أمام حزمتي . عندها قال له اخوته : هل ستصير ملكاً علينا أم ستظهر بمظهر السيّد الأمر علينا ؟ واشتد كرههم له بسبب أحلامه وحديثه .

ورأى حلماً آخر أيضا . وقصّ رؤياه هذه على اخوته وقال : «لقد حلمت مرة أخرى بأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً سجدوا لي . ولما قصّ هذا على أبيه وإخوته زجره أبوه قائلا : ما معنى الرؤيا التي رأيتها ؟ أينبغي علينا ، أنا وأمك واخوتك ، أن نأتي ونسجد لك ؟ وغار منه اخوته وحسدوه . أما أبوه فلم ينس المسألة» (سفر التكوين ٣٧ ، ٥ ـ ١١) .

إنَّ هذه القصة من الكتاب المقدس لتبيّن لنا موقفاً فهم فيه ناسٌ غير مختصين الأحلام فهما مباشراً وما كانوا في حاجة الى مساعدة مفسّر أحلام محترف لكي يفهموا حلماً هو بسيطٌ نسبياً (ولما أن المرء احتاج الى مختصٍ في تفسير الاحلام ليفهم حلماً معقداً فإنَّ قصة فرعون لتوضح ذلك حيث إنَّ كهنة البلاط أنفسهم عجزوا عن فهم هذه الأحلام فكان لا بدَّ من احضار يوسف) . فالاخوة يفهمون من فورهم أن حلم يوسف يعبّر عن تصوّرات خيالية وهمية هي أنه سيسمو على أبيه واخوته ذات يوم وأنهم سوف يضطرون إلى الخضوع أمام رهبة ومهابة . ولا ريب في أن طموح يوسف يتجلى في هذا الحلم ؛ إذ لولا هذا الطموح لما كان توصل ، على الأرجح ، إلى المنزلة العالية التي كان عليه أن يتسنمها ذات يوم . لكن الحلم يصدق ؛ فلم يكن تعبيراً عن طموح لا عقلاني فحسب ، وانما كان في الوقت نفسه تنبؤاً بحوادث وقعت في الحقيقة . فكيف استطاع يوسف أن يتنبأ مثل هذا التنبؤ ؟ تشير قصة حياته في العهد القديم أنه لم يكن رجلاً طموحاً فحسب ، بل كان أيضاً موهوباً على نحو غير عادي . فهو ، في الحلم ، يستشعر مواهبه الخارقة على نحو أوضح مما استطاع القيام به في اليقظة حيث كان خاضعاً للانطباع أنّه أصغر إخوته وأضعفهم جميعاً . فالحلم مزيج من طموحه الملتهب ومن رؤية في مواهبه التي لولا هي لما تأتى للحلم أن يتحقق .

أما الحلم التالي فينطوي على نوع آخر من التنبؤات : كان (أ) التقى (ب)

لكي يتفاوض معه في صفقة تجارية مقبلة . وكان كوّن عن (ب) انطباعاً طيباً وقرر أن يقبله شريكاً له في متجره . وفي الليل ، وبعد المقابلة ، رأى الحلم التالي :

«أرى (ب) يجلس في مكتبنا المشترك . إنه يراجع الدفاتر ويغير بعض القيود لكي يطمس الحقيقة ، حقيقة اختلاس مبالغ كبيرة» .

ويستيقظ (أ) ، ولما أنه كان معتاداً على أن يلقي بالاً إلى الأحلام فقد تولّته الدهشة وخاف . ولكنه لما كان مقتنعاً أن الاحلام هي أبداً تعبير عن أمنيات ورغبات غير معقولة قال في ذات نفسه إنَّ ما يظهر في هذا الحلم هو عداؤه للآخرين وغيرته من المنافس . وهذا العداء والريبة أوحيا اليه بالتصور أنَّ (ب) لص . وبعد أن فسّر الحلم على هذا النحو يبعد عن نفسه هذا الشك اللاعقلاني على أنه غير مسوّغ . لكنه لما كان اتفق مع (ب) على الشركة وقعت سلسلة من الحوادث نبهت شكّه من جديد . على أنَّه تذكر حلمه وتفسيره وعاوده الاقتناع بأنه خاضع لتأثير سوء ظن غير عقلاني ولمشاعر عدوانية . وعلى هذا قرّر ألا يلقي بالاً إلى تلك الحوادث التي كانت أثارت شكّه . على أنه اكتشف بعد سنة أن (ب) كان اختلس مبالغ كبيرة وكان أخفاها وغطى عليها بقيود زائفة في الدفاتر . فكان حلمه صدق حرفياً .

وبيّن تحليل التداعيات الخاصة بـ (أ) أن حلمه عبّر عن رؤية في طبع (ب) كان اكتسبها في أول لقاء ؛ على أنه لم يكن على معرفة بها في تفكيره النهاري اليقظ . وبوساطة تلك الملاحظات المعقدة الكثيرة التي نقوم بها بالنسبة الى آخرين في لحظة واحدة من دون أن نكون على علم أو معرفة بعملية التفكير العائدة إلينا كان (أ) أدرك أن (ب) صعّب على تفكير (أ) الصاحي أن يصدق غش (ب) وخداعه كان كبت التفكير بذلك تماماً ، أو بتعبير أفضل ، لم يسجل الفكرة اطلاقاً في حال اليقظة .

أما في الحلم فقد كان على معرفة واضحة بشكّه وكان في وسعه أن يجنب نفسه غيظاً شديداً لو أنه أنصت الى ما أفادته به نفسه . فاقتناعه بأنَّ الاحلام هي دائماً تعبير عن أخيلتنا وأوهامنا اللامعقولة وعن رغباتنا اللاعقلانية كان السبب في أنه فسّر الحلم ، بل وبعض الملاحظات الأخرى الواقعية ، تفسيراً خاطئاً .

ومن الأحلام التي أصدر فيها الحالم حكماً أخلاقياً هو حلم كاتب كان عُرض عليه وظيفة ، وكان سيكسب من هـذه الوظيفة مالاً يزيد على ما كسبه الى الآن بكثير ، على أنه كان سيكره أيضاً في هذه الوظيفة على أن يكتب أشياء لا يؤمن بها ، وهذا ما كان سيسيء إلى شخصه ونزاهته وأمانته . ومع هذا كان العرض من حيث الأجر والشهرة مغرياً جداً بحيث إنه لم يكن واثقاً مما اذا كان في وسعه أن يرفض هذا العرض . ولم ينسَ كل التسويفات والذرائع التي يفكر بها معظم الناس في مثل هذه الحالات . وقال في ذات نفسه إنه ربما رأى الموقف قاتم السواد ولعلّه لن يضطر في النهاية الى أن يقوم بتنازلات كبيرة عن جانب من حقوقه وامتيازاته . وبالاضافة إلى ذلك قد لا يستمر هذا الوضع إلاّ بضع سنوات ، هذا إذا لم يستطع أن يكتب ما يريد ، ثمّ يتخلى بعدئذ عن الوظيفة مرة أخرى ويكون كسب مالاً كثيراً جداً فيستطيع أن يعمل بعد اليوم عملاً حراً مستقلاً يكون ذا نفع وقيمة له . كما أنه فكر أيضاً باصدقائه وذويه وفكر بكل ما في مقدوره أن يقدمه لهم . بل بدا له بين الحين والحين كأنَّ واجبه الأخلاقي أن يقبل الوظيفة ، أو كأنما كان علامة ودليلاً على سلوك أناني شديد الحرص على الذات لو أنه رفض الوظيفة . والحق أنه ما من تبسيط من هذه التبسيطات وما من تسويغ من هذه التسويغات أرضاه ارضاء كاملاً . كما أنه صار من الآن وصاعداً في شك ولم يكن في مقدوره أن يتخذ قراراً في أن يقبل العرض إلى أن رأى ذات ليلة الحلم التالي :

«كنت أجلس في سيارة على سفح جبل عالٍ حيث بدأت طريق ضيقة شديدة الانحدار والوعورة أدت الى القمة . ولم أعرف هل كان عليَّ أن أصعد المرتفع إذ أن الطريق بدا لي غاية في الخطورة . على أنَّ رجلاً كان يقف بالقرب من سيارتي قال لي إنَّ علي أن أصعد المنحدر وإلا أخاف . وأنصت له وقررت أن أمتثل لنصيحته وصعدت الى فوق وازداد الطريق خطورة . لكنني لم أستطع أن أتوقف لأنني لم أستطع أن انعطف الى أي مكان . ولما أوشكت أن أبلغ القمة توقف المحرك وتعطلت الكوابح وتدحرجت العربة الى الأسفل وهوت الى الهاوية ! أفقت والفزع ملء نفسي !» .

ولكي نفهم الحلم فهماً تاماً لا بدَّ لنا من أن نذكر تداعياً آخر . فالحالم قال : إنَّ الرجل الذي شجعه على أن يصعد المنحدر الجبلي كان صديقاً قديماً وكان رساماً

«نفدت» بضاعته فصار رساماً لأشخاص الأزياء . وكسب بذلك مالاً كثيراً لكنه خسر طاقاته المبدعة وقدراته الخلاقة . ويعرف أنَّ هذا الصديق تعيس ، رغم نجاحه ، ويعاني من أنه ارتكب خيانة بحق نفسه ، وليس من الصعب أن نفهم الحلم كلّه . فالجبل المنحدر الذي كان على الرجل أن يصعده يعبر تعبيراً رمزياً عن المهنة الناجحة التي كان عليه أن يتخذ قراراً فيها ويختار أحد أمرين ، إما الرفض أو القبول . وفي الحلم يعرف أن هذه الطريق خطيرة ويعرف أنه ، إذا ما قبل العرض ، سيفعل ما فعل صديقه السابق الذي احتقره من أجل ذلك وقاطعه . ويعرف في الحلم أنَّ قراراً مماثلاً قد يقوده الى التهلكة . فالدمار أو الهلاك له في صورة الحلم علاقة بكيانه الجسدي الذي يرمز إلى كيانه الفكري والروحي المهدد بالانهيار .

ولقد رأى الحالم في النوم المشكلة الاخلاقية بوضوح وعرف أن عليه أن يختار بين «النجاح» ونزاهته وحظه وسعادته . وعرف ما سيكون عليه مصيره لو أنه اتخذ قراراً خاطئاً . وفي اليقظة لم يكن قادراً على أن يرى الخيار بين أمرين رؤية واضحة . فالثرثرة العالية الصاخبة كانت أحدثت في نفسه مثل هذا الأثر والانطباع بحيث انه فكرّ فيما إذا كان من الحماقة والغباء أن يترك الفرصة تفوته من دون أن يكسب المزيد من المال ويحظى بمزيد من الجاه والهيبة والنفوذ . وكان يخضع الخضوع الشديد لتأثير أولئك الذين يقولون إنه لمن السخف وإنه لبعدٌ عن الواقع أن يكون «مثالياً» بحيث أقحم نفسه في التسويغات والذرائع الكثيرة التي تعود المرء أن يصطنعها حين يريد أن يخمد صوت الضمير .

وكان هذا الحالم الخصوصي على معرفة بحقيقة الأمر أننا كثيراً ما نعرف في أحلامنا أكثر مما نعرفه في اليقظة . فهذا الحلم أيقظه من سباته وحرّكه بشدة بحيث إن الضباب الذي كان أعمى بصره انقشع واستطاع أن يرى الآن أحد الامرين بوضوح . وقرر على أن يختار طريق النزاهة والاستقامة رافضاً الغواية المدمرة للذات .

فيما يحدث في أحلامنا ليس رؤيتنا في علاقاتنا بالآخرين أو بمواقف هؤلاء منا فحسب ، وليس فقط احكاماً قيمة وتنبؤات ، بل إنَّ منجزاتنا الفكرية لتمتاز بين الحين والحين على تلك المنجزات في اليقظة . وليس هذا ما يدعو الى الاستغراب ،

اذ أن تفكيراً حاداً يتطلب تركيزاً يتأبى علينا كثيراً في اليقظة على حين نتوصل إليه في النوم . وإنَّ أشهر الأمثلة على حلم من هذا القبيل هو حلم كيكولي ، مكتشف حلقة النزول . إذ أنَّ هذا العالم بحث زمناً طويلاً عن الصيغة الكيميائية للبنزول . وذات ليلة رأى أمامه في الحلم الصيغة الصحيحة . ولحسن الحظ لم ينس هذه الصيغة حين أفاق ، بل تذكرها . وهناك الأمثلة الكثيرة التي لا حصر لها عن ناس اجهدوا فكرهم في حل مسألة رياضية أو تقنية أو فلسفية أو عملية تطبيقيّة ثم وجدوا بعد ذلك الحل أمامهم ماثلاً في الحلم ذات ليلة من الليالي .

وفي بعض الأحيان يتأمل المرء في الحلم تأملات فكرية على غاية من التعقيد . والحلم التالي هو مثال على ذلك ولو أنه اشتمل الى ذلك على عنصر شخصي جداً . والحالة امرأة ذكية . وحلمها هو :

«رأيت قطة وفئراناً كثيرة . وفكرت أن أسأل زوجي في الصباح الباكر لماذا لا تكون مئة فأرة أقوى من قطة واحدة ولماذا لا تستطيع أن تقضي عليها . وأعرف بانه سيجيبني أنَّ هذا هو نفس الشيء كما في السياسة حيث يستطيع حاكم مطلق أن يحكم الملايين من الناس ، أمّا هم أيضاً فلا قبل لهم به . على أنني عرفت أن هذا كان سؤالاً مخادعاً وأن جوابه كان خاطئاً» .

وفي صباح اليوم التالي قصّت على زوجها الشطر الأول من الحلم وسألته : «ما معنى أنني حلمت أن مئة فأرة لا تستطيع أن تتغلب على قطة واحدة ؟» وردّ عليها الزوج على فوره ذلك الجواب الذي كانت تنبأت به في الحلم . وبعد يومين قرأت على زوجها قصيدة كانت نظمتها هي ، وكان موضوع القصيدة قطة سوداء في حقل غطاه الثلج وقد أحاطت بها مئات الفئران . وكانت الفئران كلها تضحك من القطة لأنها كانت فاحمة السواد بحيث تميزت من الثلج بوضوح . وتمنت القطة لو أنها كانت بيضاء فلا يستطيع المرء أن يتميزها بسهولة .

وجاء في أحد أبيات القصيدة ما يلي : «والآن أفهم ما أجهدت فكري فيه الليلة الفائتة» .

ولما تلت القصيدة على زوجها لم تنتبه الى أية علاقة بين القصيدة والحلم . أمّا هو فقد انتبه الى العلاقة وقال : «ها أنت حصلت بقصيدتك على الجواب عن

حلمك . فأنت لم تتشبهي بالفئران ، كما افترضت في بادىء الأمر ، وانما بالقطة . وفي هذا الحلم كنت فخورة بأنَّ مئة فأرة لم تستطع أن تنال منك . ولكنك ، في الوقت نفسه ، تجدين الأمر مهانة وإذلالاً أن الفئران الضعيفة التي تحس بأنك متفوقة عليها غاية التفوق تسخر منك لأنها تستطيع أن تراك بوضوح شديد» . (وتحب الحاملة القطط . إنها تستلطفها وتحسّ بأنها قريبة منها) .



الفصل الرابع :

الحلم عند فرويد ويونغ

صحيح أنَّ تعريفي للحلم أنه نشاط نفسي أو فعالية نفسية ضمن شروط النوم يستند على نظرية فرويد في الأحلام ، لكنه يعارضها من وجوه عديدة معارضة شديدة . فأنا أذهب إلى أنَّ الأحلام يمكنها أن تكون تعبيراً عن أحطّ وظائف النفس وأشدها لا معقولية كما أنها تستطيع أن تكون تعبيراً عن أسمى هذه الوظائف وأعظمها شأناً وقيمة . ويذهب فرويد إلى أن الشيء الذي لا محيد عنه دائماً هو أن الأحلام تعبير عن الجانب اللاعقلاني أو اللامعقول في شخصيتنا . وسأحاول فيما بعد ، أن أبين في سياق هذا الكتاب أن هذه النظريات الثلاث أن الاحلام ليست إلَّا نتاجاً لا معقولاً وأنها ليست إلَّا نتاجاً معقولاً أو أنها كلا الأمرين ، يمكن أن نصادفها في الماضي السحيق في تاريخ تفسير الأحلام . ونظراً إلى أن تفسير فرويد للأحلام هو بداية العلوم وأشهر ما كتب في تفسير الأحلام من مقالات علمية سأبدأ بوصفٍ لتفسير فرويد للأحلام ومناقشته قبل أن أعرض لتاريخ هذه النظريات الثلاث التي سبقت فرويد .

ويقوم تفسير فرويد للأحلام على نفس المبدأ الذي تقوم عليه نظريته في علم النفس . فهو يرى أنه في امكاننا أن يكون عندنا ميول ومشاعر ورغبات تكون دوافع لتصرفاتنا وأعمالنا ؛ ومع هذا لا نكون على علم بها ولا نشعر بها . ولقد وصف مثل هذه الميول والرغبات بأنها «لا شعورية» حيث أراد أن يقول إننا لا نكون على علم بها ، بل إنَّ رقيباً قوياً مرهوب الجانب يحفظنا ويحمينا من أن نراها . ولأسباب قد تولد فينا مشاعر الذنب وتخيفنا من العقاب لو أننا كنا على معرفة بها . على أن كبت مثل هذه الرغبات وازاحتها من شعورنا لا يعني أنه لم يعد لها

وجودها . والحق أنها تبقى حيّة بحيث انها توجد تعبيراً بشتى أنواع الطرق ، إنما على نحو لا يجعلنا نشعر أو نعرف أنها دخلت مرة أخرى من باب خلفي ، إذا صحّ التعبير ، ويظن نظامنا الشعوري أنه تخلص من هذه المشاعر والرغبات المرغوب عنها وتروعه الامكانية بأنها قد تكون موجودة فينا . ومع هذا وحين تعاود الظهور وتبتدي للعيان فإننا نحجبها ونشوهها لدرجة أنَّ تفكيرنا الشعوري لا يرى فيها الشيء الذي هي عليه في الواقع .

وعلى هذا النحو أوضح فرويد عرض مرض العصاب . وذهب إلى أنَّ دوافع ورغبات قوية أعاقها «الرقيب» ومنعها من أن تكون شعورية بالنسبة لنا ، تظهر في أعراض ؛ على أن ظهورها يكون في صورة خفية بحيث لا نحسّ إلاَّ بالألم الذي سببه هذا العَرَض ؛ أمّا إشباع هذه الرغبات والدوافع اللاعقلانية ، فلا نحسّ به . وبذلك كان فرويد أوّل من رأى في الظاهرة العصابية شيئاً تخلفه قوى داخلية ويكون له معنى معيّن ينبغي علينا أن نجد له المفتاح قبل كل شيء .

ولدينا مثالٌ يوضح ذلك . وهو أنَّ احدى السيدات تشكو من الضرورة الملحة الى أن تغسل يديها كلما لمست شيئاً . وطبيعي أنَّ هذا صار في نظرها عرضاً غاية في الازعاج ، ذلك لأنه يزعجها في كل عمل وينغص عيشها . ولا تعرف لماذا ينبغي عليها أن تفعل ذلك . على أنها تكتفي بالقول انها تشعر بخوف لا يطاق حين تحاول الكف عن ذلك . ولما أنه كان عليها أن تذعن لدافع سيطر عليها من دون أن تعرف السبب فإن هذا وحده يجعل شقاءها وتعاستها أكبر بكثير . وعند تحليل أخيلتها وتداعياتها يتبيّن أن عليها أن تقاوم شعوراً عنيفاً بالعداء . وظهر عَرَضها المرضي أول ما ظهر لما بدأ زوجها علاقة غرامية مع امرأة أخرى وهجرها على نحو بشع فَظ . وكانت متعلّقة بزوجها دائماً ولم تجرؤ قطّ على أن تنتقده أو تعارضه . حتى إنها لم تتفوه بكلمة حين فاتحها بأنه ينوي هجرانها . ولم تلمه في ذلك قطّ . ولم تُبد أية شكوى ولم تعنفه أو تؤنبه . على أنَّ هذا العرض المرضي بدأ آنذاك يملك عليها جميع خواطرها . وبيّن تحليل آخر أنه كان للمريضة أبٌ قاسٍ جائر . وكانت تخشاه ولم تكن تجرؤ قط على أن تعلن عن سخطها أو تلومه . ثم تبين عند التحليل أيضاً أن رقتها وخضوعها لم يكونا دليلاً على أنها كانت حانقة ساخطة في أعماق نفسها ، بل على العكس من ذلك كان غيظها تجمّع في ظلّ سلوكها الصريح . على أنه لم يظهر

إلّا في الأخيلة التي كانت تتراءى لها أن أباها ميّت أو مقتول أو مشوّه . ومع الأيام تعاظمت رغبتها في الانتقام واشتد كرهها ؛ ومع هذا أكرهها خوفها ومطالب ضميرها أن تكبت مثل هذه الرغبات كبتاً مطلقاً تقريباً . وأجج سلوك زوجها نار غضبها المختزن مرة أخرى وغذّاها من جديد . لكنها الآن لم تستطع أن تعبر عنه ، بل إنها لم تستطع أن تحس به . فلو شعرت بعدائها لتولّدت في نفسها الحاجة إلى أن تقتل زوجها أو أن تهينه على الأقل ، ولما طوّرت بعد ذلك أعراض العصاب ، وأغلب الظن أنها ما كانت أظهرته . لكنّ عداءها اعتمل في نفسها من دون أن تشعر بذلك .

ولقد كان عَرَض هذه المرأة ردَّ فعل على هذا العداء . ففي اللاشعور استحال لمسُ الأشياء بالنسبة لها الى عمل تدميري . وكان عليها أن تغسل يديها لكي تطهر نفسها من العمل المدمر الذي كانت قد أقدمت عليه . وبدا كما لو أن دماً كان على يديها وأنه كان عليها أن تغسله بصورة دائمة . فضرورة الغسل كانت رد فعل على دافع عدائي ومحاولة لأن تمحو أثر الجريمة التي كانت ارتكبتها ، من صفحة الوجود مرة أخرى . على أنها لم تشعر إلّا بالحاجة الى غسل اليدين على حين لم تكن على معرفة بالاسباب الداعية الى ذلك . وكان في الامكان فهم هذا العرض المَرَضي الذي لا معنى له في ظاهره بأنه سلوك له معناه بعد أن كنا تجاوزنا المنطقة اللاشعورية لشخصيتها ، وفي هذه المنطقة ضرب سلوكها الفارغ من المعنى في ظاهره جذوره وارتبط ارتباطاً وثيقاً . وكان غسل اليدين في نظرها حلَّ وسط مكنها ، ولو في اللاشعور ، من أن تستمتع بغيظها وأن تطهر نفسها ، مع هذا ، من الذنب بوساطة عملية الغسل .

فالكيفية التي كان ينبغي أن نفهم بها مثل هذه العمليات اللاشعورية اكتشاف قاد فرويد إلى اكتشاف يلقي الضوء أيضاً على سلوكنا السوي . فلقد تمكن بذلك من أن يفسّر زلة لسان ، مثلاً ، الأمر الذي أعيا الكثيرين ممن كانوا انصرفوا إلى ذلك ولم يجدوا لذلك تفسيراً حتى ذلك الحين . ونعرف جميعاً الظاهرة بأننا لا نستطيع أن نتذكر فجأة اسماً نعرفه معرفة جيدة . وقد يكون لهذا النسيان جملة من الأسباب . على أن فرويد اكتشف أنه كثيراً ما يعزى ذلك الى أن شيئاً ما فينا لا يرغب في أن يتذكر الاسم المشار إليه لأنَّ له علاقة بالخوف أو الغضب أو بإحساس مماثل واننا

نسينا الاسم لأننا نود أن نبعد عنا هذا الشيء المزعج المقرون في نظرنا بذلك . وكما يقول فريد ريش نيتشه : «إنّ ذاكرتي تقول «هذا ما فعلته» وتقول كبريائي وتبقى قوية لا تلين : «لا يمكن أن أكون فعلت هذا» . وأخيراً تستسلم الذاكرة» .

فالدافع الى مثل هذه الزلة هو حتماً إحساس بالخوف أو إحساس بالكرامة وعزة النفس . وحين نلتقي شخصاً ما ونقول له «وداعاً» عوض من قولنا «طاب يومك» فإننا نعبّر عن احساس صادق وهو اننا نتمنى لو أننا نتخلص على فورنا من هذا الشخص الذي التقيناه لتونا ونتمنى لو أننا لم نقابله . ويحول العرف الاجتماعي بيننا وبين التعبير عن هذا الشعور ؛ ومع هذا انتصر نفورنا من هذا الانسان وفرض نفسه من وراء الظهر ، إنْ صحَّ التعبير . فهو لقننا الكلام الذي يعبّر عن مشاعرنا الصادقة على حين تعمدنا أن نعرب عن سرورنا بهذا اللقاء . ويرى فرويد في الأحلام أيضاً التعبير عن دوافع ورغبات لا شعورية ويذهب الى أنَّ الحلم أيضاً ، مثله مثل عَرَض مرض العصاب أو زلة اللسان ، يكشف عن دوافع لا شعورية لا نجيز لأنفسنا أن نراها ، وعلى هذا نبعدها من شعورنا ما دمنا نتحكم بأفكارنا التحكم التام . وهذه الأفكار والمشاعر المكبوتة تستيقظ في الحلم وتنشط وتجد امكانية التعبير في الشيء الذي نسميه أحلاماً .

وتنتج عن هذا الرأي الشائع في الحلم الافتراضات التالية :

إنَّ القوى المسببة والمعللة لأحلامنا هي رغباتنا اللاعقلانية . ففي الحلم تنشط دوافع ورغبات لا نرغب أو لا نجرؤ على أن نعترف بوجودها في اليقظة . وتتجلى في الحلم رغبات لاعقلانية كالبغض والطموح والغيرة والحسد ، وعلى الأخص رغبات متعلقة بنكاح المحارم أو رغبات جنسية دالّة على انحراف جنسي فنبعدها من منطقة شعورنا . ويذهب فرويد إلى أننا نحمل كلنا في نفوسنا مثل هذه الرغبات اللا عقلانية التي كبتاها بناءً على المطالب الاجتماعية ، على أننا لم نتخلّص منها نهائياً . وفي أثناء النوم تضعف المراقبة بوساطة شعورنا وتنشط هذه الرغبات وتجعل كلمتها مسموعة في أحلامنا .

على أنَّ فرويد يسير إلى أبعد من ذلك . فهو يربط نظرية الأحلام هذه بوظيفة النوم . فالنوم ظاهرة فيزيولوجية . ويحاول جسدنا أن يتكفّله على أفضل وجه . أما إذا شعرنا في النوم بالرغبات اللا عقلانية الشديدة فقد تزعجنا ، ومن ثمَّ فقد

نستيقظ وعلى هذا قد تصطدم هذه الرغبات بالضرورة البيولوجية ـ الى أن نواصل النوم . فماذا نفعل ، إذاً ، لكي نظفر بنومنا ؟ إننا نتصور كأنّ الرغبات تحققت وأننا نحسّ بالرضى والارتياح عوض من أن نحس بحرمان منغّص .

وعلى هذا يتوّصل فرويد إلى الافتراض أن طبيعة الاحلام هي التحقيق الوهمي لرغبات لا عقلانية . ووظيفتها هي الحفاظ على النوم . وفي الامكان فهم هذا التفسير على نحو أسهل في حالات لا تكون فيها الرغبة لا عقلانية وبهذا لا يكون الحلم فيها مشوّهاً ، كما هي الحال في متوسط الاحلام ، على رأي فرويد . ولنفترض أن شخصاً ما تناول قبل الذهاب الى النوم طعاماً شديد الملوحة وشعر في الليل بعطش شديد فقد يحلم بعدئذ بأنه يبحث عن ماء ثم يجد ينبوع ماء ويشرب كمية كبيرة من الماء البارد المنعش . وعوضا من أن يفيق لكي يطفيء ظمأه يتوصل النائم عن طريق شرب الماء في المنام إلى إشباع هلوسي يمكنّه من أن يواصل النوم . ونحن كلنا نعرف إشباعاً هلوسياً مماثلاً حين نحلم في نفس اللحظة التي يفزعنا فيها المنبّه بأننا سمعنا قرع أجراس كنيسة وأنّ الوقت هو يوم أحد وأنه لا داعي الى النهوض مبكراً . وفي هذه الحال أيضاً تكون وظيفة الحلم أن يحمي نومنا . ويذهب فرويد إلى أنّ هذا التحقيق الساذج للرغبات هو في حدّ ذاته معقول وأنه نادرٌ عند البالغين ندرة نسبية ، على أنه كثيراً ما يحدث عند الأطفال ؛ ويرى أنّ أحلامنا بعامة ليست تحقيقاً لمثل هذه الرغبات المعقولة ، بل هي تحقيق لرغبات لا معقولة نكبتها في أثناء النهار .

ويذهب فرويد أيضاً إلى أنّ هذه الرغبات اللاعقلانية التي نراها محققة في الحلم تعود بجذورها إلى طفولتنا وأنها عاشت في أعماقنا عندما كنا لا نزال أطفالاً ، ثم تواصل وجودها السري الخفي في أعماقنا وتُبعث في أحلامنا إلى حياة جديدة . ويقوم هذا الرأي على اقتناع فرويد العام بلاعقلانية الطفل (Irrationalität) . وللطفل ، في رأي فرويد ، دوافع لا اجتماعية كثيرة (asozial) . ولما أنه لا يملك القوة البدنية ولا المعرفة الضرورية لكي يستجيب عملياً لهذه الدوافع فلا يؤذي أحداً ، ولسنا في حاجة الى أن نحترس من نواياه السيئة . أمّا إذا حوّلنا اهتمامنا الى نوعية هذه الدوافع لا إلى نتائجها العملية فإنّ الطفل كائن لا اجتماعي ولا أخلاقي . وينطبق هذا في المقام الأول على دوافعه الجنسية . ويرى فرويد أن

تلك الدوافع كلّها تعود إلى التطور الجنسي السوي للطفل . فالطاقة الجنسية (الليبيدو) عند الرضع تتجمع وتتركز حول منطقة الفم ، ويكون لها فيما بعد علاقتها بالتغوط إلى أن تتركز أخيراً على الأعضاء الجنسية . فالطفل يحسّ بدوافع سادية ماسوشية عنيفة . فهو ينتمي إلى فئة المستعرضين الذين يعانون من نزوع مرضي إلى التعرّي وكشف العورة ، كما أنه رجل صغير ؛ ولا يزال عاجزاً عن أن يحب إنساناً ما ؛ بل إنّه نرجسي ولا يحب إلاّ نفسه في آخر المطاف . وهو غاية في الغيرة ، كما أنّ ملء نفسه دوافعَ هدامة حيال منافسيه . وتتحكم في الحياة الجنسية عند الفتيان والفتيات دوافعُ متعلقة بنكاح المحارم . فلهم علاقة جنسية قوية بأحد الوالدين ويغارون من الآخر ويكرهونه ، أباً كان أم أماً . والخوف ، وليس غير الخوف من الاجراءات الانتقامية الاقتصادية من جانب المنافس المكروه يدفع الطفل إلى أن يكبت ويقمع هذه الرغبات المتعلقة بغشيان المحارم . وعلى حين يتمثل الصبي بأوامر الأب ونواهيه فإنه يتغلب على كرهه لهذا الأب ويستعيض عن هذا الكره بالرغبة في أن يشابهه . فنشوء الضمير هو نتيجة «لعقدة أوديب» .

إنّ الصورة التي يرسمها فرويد للطفل لتُظهر شبهاً ملحوظاً بالصورة التي كوّنها اوغسطينوس عن نفسه هو . فمن الأدلة التي يقدمها اوغسطينوس على الخطيئة التي تلازم الانسان دليله على شرّ الطفل الصغير وخبثه . ويستخلص من ذلك أنّ الانسان فطر على الخبث والشر ذلك لأنّ الطفل خبيث وشرير قبل أن يتاح له أن يتعلم الخبث والسوء من الآخرين وقبل أن تفسده أمثلة رديئة سيئة . فلا اوغسطينوس ولا فرويد يشيران إلى الصفات والخصائص في الطفل التي قد تعادل هذه الصورة على الأقل ، كأن تشيران إلى عفويته وقدرته على الاستجابة وردود الفعل وإلى حكمه الحساس على الآخرين وقدرته على أن يرى موقف الآخرين ويعرفه من دون مراعاة لما يقوله هؤلاء ، ثمّ اجتهاده الدؤوب لأن يفهم محيطه ، وباختصار ، كل تلك الصفات التي نعجب بها في الأطفال وتحببهم إلى نفوسنا بحيث إننا لنعتبر صفات طفولية عند فتى يافع من أنفس ما يمتلكه . ولأسباب كثيرة لا حصر لها أكدّ فرويد وبخاصة على الجوانب السيئة في الطفل وأبرزها . وأحد هذه الأسباب هو أنّ العصر الفيكتوري كان استهلك وهم الطفل «البريء» أو تخيّل هذا الطفل . وافترض المرء آنذاك أنّ الطفل ليس عنده دوافع جنسية أو أية دوافع أخرى «سيئة» «شريرة» .

وحين عارض فرويد هذا الافتراض المريح عاب عليه المرء أنَّه دنَّس براءة الطفل وهاجم أرفع قيم الأسرة الفيكتورية . وإنه لطبيعي ومفهوم أن فرويد انتقل في أثناء هذا الجدل من نقيض إلى آخر ورسم صورة محدودة جداً لرداءة الطفل . وفي امكاننا أن نعزو حكم فرويد على الطفل إلى أنه فهم أنَّ من شأن المجتمع أن يحمل الانسان على أن يكبت دوافعه ورغباته اللا أخلاقية واللا اجتماعية وأن ينمي ويطوّر سجايا ذات قيمة اجتماعية . وهذا التحول من الشرّ إلى الخير ومن الخبث إلى الطيب يتم ، في رأي فرويد ، بوساطة آليات يسميها هو «تكوين ردّ الفعل» و «التصعيد والتسامي» (sublimierung) . إنَّ كبت دافع سيء ، كأنْ يكون دافعاً سادياً ، يؤدي إلى تشكيل أو تكوين دافع مضاد ، كأنْ يكون دافع الرضى واللطف ، الذي تنحصر وظيفته من الناحية الديناميكية في أن يمنع السادية المكبوتة من أن تظهر في أفكار أو أفعال أو مشاعر وأحاسيس . وفي أثناء التصعيد والتسامي ينحرف ، في رأي فرويد ، دافعٌ سيء عن أهدافه اللا اجتماعية في الأصل ويُسخر لأهداف أسمى وذات قيمة حضارية .

إنَّ مثالاً على التصعيد والتسامي هو إنسان صعّد دافعه الذي كان يدفعه إلى إهانة آخرين وتسامى به الى فن الجراحة القيّم الرفيع . ويذهب فرويد إلى أنَّ الدوافع اللطيفة المفعمة بالحب والبناءة في الانسان ليست أوليّة ويقطع بأنها نشأت بصورة ثانوية من الضرورة الى أن يكبت دوافعه الخبيثة في الأصل . ويفهم الحضارة على أنها نتيجة لمثل هذا الكبت . وخلافاً لروسو يرى فرويد أنَّ الانسان في وضعه الأصلي تتحكم به دوافع الشر . فكلما نما المجتمع وتطور وكلما مضى في إكراهه للانسان على أن يكبت هذه الدوافع ازداد المرء معرفة وعلماً بأن يطوّر ويوسّع «تشكيلات ردود الفعل وتكويناتها» وأنواع «التصعيد والتسامي» . وكلّما كان التطور الحضاري عالياً اشتد الكبت وتزايد . ولكن لما أن قدرة الانسان على تكوين ردء الفعل والتصعيد والتسامي بالدوافع محدودة فإنَّ هذا الكبت يبقى غير ذي فعاليه وغير ذي تأثير . وتعود الدوافع الاصلية الى الحياة وتنشط . ولما أنه كثيراً ما يصعب إحداث تأثير أو تغيير عميقين في هذه الدوافع فإنها تفضي إلى أعراض مَرَض العصاب .

ويفضي هذا الرأي بالضرورة إلى الافتراض أنَّ الطفل يبقى في جوهره كائناً لا أخلاقياً فاسداً ما دام لا يخضع لمتطلبات المجتمع وأن هذه الرقابة نفسها لن تزيل

بوساطة المجتمع أبداً الجانب الأساسي من هذه الدوافع الرديئة الخبيثة وأن هذه الدوافع استمرت في حياتها السرية .

هذا وإنَّ هنالك سبباً آخر حمل فرويد على أن يؤكد لا عقلانية الطفل . وفي أثناء تحليل أحلامه هو لفت نظره أنه في الامكان اكتشاف دوافع لا عقلانية كالكره والغيرة والطموح عند فتي يافع سوي وسليم النفس . وفي نهاية التسعينات وبداية قرننا هذا ساد الشعور أنَّ هنالك حدّاً فاصلاً دقيقاً بين الانسان المريض والانسان السليم . وكان من الصعب التصوّر أنَّ مواطناً محترماً سوياً كان يمكن أن يحمل في نفسه الدوافع الكثيرة «المهووسة» التي كانت تظهر في أحلامه . فكيف كان في مقدور المرء أن يفسّر وجود هذه الدوافع في الاحلام من دون أن يدمر ويحطم التصوّر عن هذا الفتى اليافع «السوي» ؟ .

ووجد فرويد حلاً لهذه الصعوبة بأن ذهب الى أنَّ الطفل الموجود في اليافع نبه الى حضوره في هذه الدوافع اللا عقلانية وظل يتابع حياته في هذا الفتى اليافع وأعرب عن نفسه في أحلامه . ونصّ تركيب أفكاره النظري على أنَّ بعض دوافع الطفل المكبوتة تبقى حيّة وتنشط في اللا شعور على نحوٍ خفي مستتر وتعود إلى الظهور في الحلم حتى لو كان ظهورها في صورة شوّهتها وأخفتها حاجة الفتى اليافع إلى ألاّ يستشعرها في النوم على نحو تام . وإني لاستشهد هنا بأحد أحلام فرويد الذي اتخذه فرويد مثالاً على التحليل في كتابه «تفسير الأحلام» .

«١ - . . . الصديق ر . هو عمي . أحسّ بحنان كبير نحوه .

٢ - أرى وجهه متغيراً بعض الشيء . ويبدو كأنه استطال . وتحيط به لحية صفراء برزت بروزاً شديد الوضوح .

ثم يلي هذا الجزءان الآخران ، فكرة وصورة ، اللذان سأضرب عنهما صفحاً .

وفُسِّر هذا الحلم على النحو التالي : لما خطر ببالي في وقت الضحى ضحكت وقلت : الحلم هراء . ولكنه لم ينمحِ وبقي يلاحقني طوال النهار إلى أن أنّبت نفسي أخيراً في المساء وقلت : «لو أنَّ أحد مرضاك لم يجد شيئاً ليقوله في تفسير الحلم إلاّ عبارة : هذا هراء لأنّبته وظننتَ أن وراء الحلم قصة مزعجة يريد أن

يجنّب نفسه مؤونة العلم بها . عاملْ نفسك بالطريقة نفسها . ورأيك أن الحلم هراء لا يعني إلاّ مقاومة داخلية بإزاء تفسير الحلم . فتابعْ ولا تتوقفْ!» ثم شرعت التفسير .

«ر . هو عمي» ماذا يمكن أن يعني هذا ؟ ليس لي إلاَّ عمٌّ واحد هو العم يوسف . (وإنه لغريب وعجيب كيف لا يتسع تذكري هنا في اليقظة إلاَّ لأغراض التحليل . ولقد عرفت خمسةً من أعمامي وأحببت واحداً منهم وبجلته . أما في هذه اللحظة ، لحظة تغلّبي على مقاومة تفسير الحلم أقول لنفسي : لم يكن لي إلاَّ عمٌّ واحد هو العم المقصود في الحلم) . وفي هذه الحالة فإن قصته قصةٌ محزنة . فمنذ أكثر من ثلاثين عاماً كان اندفع ، بنيّة التهالك على المال ، إلى القيام بعمل يعاقب عليه القانون عقوبة صارمة ، ونال هذه العقوبة فيما بعد . وأبي الذي شيّبه الهمُّ والغمُّ آنذاك في أيام معدودات اعتاد أن يردد دائماً قوله : إنَّ العم يوسف لم يكن قط انساناً سيئاً ، لكنه كان غبيّاً أحمق : هكذا عبّر عما في نفسه . فإذا كان الصديق ر . عمي فمرادي أن أقول : إن ر . غبي أحمق . أمر يكاد لا يصدق ولا يبعث على الرضى . على أنَّ هنالك ذلك الوجه الذي أراه في الحلم ، إنه الوجه المستطيل باللحية الصفراء . والحق أنه كان لعمي مثل ذلك الوجه ، وجه متطاول تحيط به لحية شقراء جميلة .

وصديقي ر . كان فاحم السواد . على أنَّ ذوي الشعر الفاحم يدفعون الثمن لبهاء شبابهم إذا ما أخذ الشيب يغزو شعورهم . فلحاهم الداكنة يطرأ عليها شعرة فشعرة تحوّلٌ في اللون لا يسرّ . فيصبح الشعر في البداية ضارباً الى الحمرة ثم ضارباً إلى الصفرة ثم يستحيل في النهاية إلى الرمادي . وفي هذا الطور الأخير كانت لحية صديقي ر . وبالمناسبة فإن لحيتي كانت أيضاً هكذا كما ألاحظ في غير رضا وفي غير ابتهاج . والوجه الذي أراه في الحلم هو في الوقت نفسه وجه صديقي ر . ووجه عمي أيضاً . فهو صورة فوتوغرافية خليطة من صور جالتون الذي سمح بتصوير غير وجه على نفس اللوحة الفوتوغرافية لكي يكشف عن تشابهات أسروية . فلا مجال ، إذاً ، للشك أنني أعني حقاً أنَّ صديقي ر . هو غبي أحمق مثل عمي يوسف .

ولا أعرف حتى الآن ما الغرض من إقامة هذه العلاقة التي ينبغي عليَّ أن

أقاومها بلا توقف . وهي ليست بعلاقة عميقة جداً . إذ أنَّ عمي كان مجرماً وصديقي ر . كان طاهر الذيل ، اللهم إلاَّ من العقوبة التي نالها لأنه كان أوقع صبياً مع دراجته أرضاً . فهل قصدت بذلك هذه الفعلة ؟ وهذا يعني أنني أسخر من المقارنة . على أن حديثاً آخر خطر ببالي وكنت تناولت فيه الموضوع نفسه منذ أيام معدودات وذلك مع ن . صديقي الآخر . التقيت ن . في الشارع . وكان مرشحاً أيضاً لدرجة الاستاذية . وعلم أنني منحت هذا اللقب وهنأني على ذلك . ورفضت رفضاً قاطعاً . «أنت بالذات ما كان عليك أن تمزح ذلك لأنك عرفت قيمة التوصية في حد ذاتها .» وأغلب الظن أنه ردّ على ذلك بطريقة غير جادة : «هذا ما لا يستطيع المرء أن يعرفه . هنالك شيء خاص ضدي . ألا تعلم أنَّ امرأة شكتني ذات مرّة إلى القضاء ؟ ولا داعي لأن أؤكد لك أنَّ التحقيق حفظ وكانت محاولة ابتزاز دنيئة . ولقد بذلت قصارى جهدي لأجيب المرأة المبلغة نفسها جزاءها . ولكنهم ربما احتجوا عليَّ في الوزارة بهذه الحادثة لكي لا يعينوني . أما أنت فأنت بريء .» ها إنَّ المجرم في قبضتي ، وكذلك أيضاً تفسير الحلم واتجاهه في آن واحد . فعمي يوسف يصوّر لي هنا كلا الزميلين اللذين لم يعيّنا استاذين ، أحدهما الغبي الأحمق والآخر المجرم الجاني . وأعرف الآن أيضاً الغرض من حاجتي إلى هذا التصوير . فإذا كان لاعتبارات «مذهبية» أثرها الحاسم في إرجاء تعيين صديقيَّ (ر .) و(ن .) فإنَّ تعييني أيضاً يصبح موضع الشك والتساؤل . أمّا إذا ما استطعت أن أعزو رفض كلا الرجلين إلى أسباب أخرى لا تمسني فإنَّ الأمل يبقى سليماً . وعلى هذا النحو يسير حلمي . فهو يجعل من (ر .) غبيّا ومن (ن .) جانياً مجرماً . أما أنا فلا هذا ولا ذاك . فلا شيء يجمع بيننا . ولي أن أهنأ بتعييني أستاذاً ولقد تخلصت من النتيجة المؤلمة التي كان من الممكن أن اضطر إلى استخلاصها من خبر ر . الذي أعلمه به الموظف الكبير ، فأطبّق هذه النتيجة على شخصي .

وعليَّ أن أواصل اهتمامي بتفسير هذا الحلم . فهو لم ينتهِ بعد النهاية المرضية بالنسبة لاحساسي . وما زلت غير مطمئن الى السهولة التي حططت بها من قدر زميلين محترمين لكي يخلو لي الطريق الى الأستاذية . على أن سخطي على عملي وسلوكي قد خفّت حدّته منذ أن عرفت كيف أقدّر قيمة الأقوال في الحلم . وقد

أجادل أي انسان وأرد عليه بأنني أعدّ (ر .) حقيقة غبياً أحمق وأنني لا أصدّق قضية الابتزاز التي صوّرها (ن) . . . ومع ذلك أكرر أنَّ الحلم يبدو لي بحاجة إلى المزيد من الايضاح .

وأذكر الآن أن الحلم يشتمل على جزء أغفله التفسير حتى الساعة . فبعد أن خطر ببالي أن (ر .) هو عمي أحسّ في الحلم بحنان كبير تجاهه . ففي أي باب يدخل هذا الاحساس ؟ وبطبيعة الحال لم أكنَّ لعمي يوسف أبداً أية مشاعر حارة . والصديق (ر .) هو منذ سنوات حبيب إلى نفسي وعزيز عليّ . ولكنني لو جئت اليه وأعربت له عن محبتي بكلمات تناسب على وجه التقريب درجة حناني واعزازي في الحلم لدهش بلا شك . فحناني له ، كما يبدو لي ، غير حقيقي ومبالغٌ فيه مثله مثل حكمي على قدراته العقلية وهو الحكم الذي أعبّر عنه من طريق دمج شخصيته بشخصية عمي ؛ أما بالمعنى المضاد فهناك مبالغة . لكن الآن تتضح لي حقيقة جديدة . فحنان الحلم ليس جزءاً من المضمون الكامن أو من الأفكار المستترة وراء الحلم . بل هو يناقض هذا المضمون . فهو مناسب ليحجب عني معرفة تفسير الحلم .

والأرجح أن هذا هو مهمة الحلم ورسالته . وإني لأذكر أية مقاومة أقبلت بها على تفسير الحلم وكم نويت تأجيله وأرجعت الحلم إلى هراء صرف . وانطلاقاً من ممارسة العلاج بالتحليل النفسي أعرف كيف يمكن تفسير مثل هذا الحكم بالرفض . فليس له قيمة معرفية ، بل له فقط قيمة تعبير عن انفعال عنيف . فإذا رغبت ابنتي عن تفاحة قدِّمت لها زعمت أنَّ التفاحة مرة الطعم حتى لو لم تذقها . وإذا تصرَّفت مريضتي مثلما تصرفت طفلتي عرفت أن المسألة عندهما هي مسألة تصور تريدان كبته . وإن الشيء نفسه لينطبقُ على حلمي . فأنا أكره أن أفسّره لأن تفسيره يشتمل على شيء أأباه أشد الاباء . وبعد التفسير التام للحلم أعرف الشيء الذي كنت غالبت فيه . إنه الزعم أنَّ (ر .) غبيٌّ أحمق . فالعاطفة التي أحسها نحو (ر .) لا يمكنني ارجاعها إلى فكرة الحلم الكامنة . لكنني أستطيع عزوها إلى ممانعتي . فإذا تشوّه حلمي في هذه النقطة بالقياس إلى مضمونه الكامن ، بحيث ينقلب إلى ضدّه ، فإنَّ الحنان الصريح في الحلم هو في صالح هذا التشويه ، أو بعبارة أخرى ، فإنَّ هذا التشويه يظهر هنا متعمداً ووسيلة من وسائل الرياء والمنافقة .

فأفكاري في الحلم تنطوي على قدحٍ في (ر .) ولكي لا أفطن إلى هذه المسبّة فإنَّ النقيض أو الضد يصل إلى الحلم ليكون حناناً وحباً له .

واستأنف هنا ، وعند هذه النقطة ، تفسير حلم سبق أن استخلصنا منه درساً جديداً وأعني الحلم الذي موضوعه : صديقي ر . هو عمي . ولقد عززنا تفسيره بحيث إنَّ دافع الرغبة في انْ اتعين أستاذاً برز أمامنا واضحاً ملموساً . وأوضحنا حنان الحلم تجاه الصديق ر . على أنه ابتكار معارضة وعناد حيال طعن كلا الزميلين الذي انطوت عليه أفكار الحلم . فالحلم كان خاصاً بي . وعلى هذا كان من حقي ان أستأنف تحليله بأن أقول إنَّ احساسي لم يهدّئه ولم يرْضه بعدُ الحلُّ الذي تم التوّصل اليه . وعرفت أن حكمي على الزميلين اللذين أسيئت معاملتهما في أفكار الحلم كان له في اليقظة مضمون آخر . فقوة الرغبة في الّا أشاركهما مصيرهما من حيث التعيين بدت لي ضئيلة جداً لكي أكشف عن التضاد بين التقديرين ، تقدير اليقظة وتقدير الحلم ، الكشف التام . فإذا كان احتياجي الى أن أنادى بلقب آخر كبيراً جداً فإنَّ هذا ليدلُّ على طموح مَرَضيّ لا أعهده في نفسي وأظن أنّه بعيد عني . ولست أدري كيف سيحكم آخرون يحسبون أنهم يعرفونني ، عليَّ في هذا الموضوع . ولربما كان لديَّ طموح في الحقيقة ؛ ولكن إذا ما كان هذا موجوداً فإنه انصرف منذ زمن طويل إلى موضوعات أخرى غير لقب استاذ مساعد ومرتبته .

فمن أين جاءني ، إذاً ، الطموح الذي أُلهمت أياه في الحلم ؟ هنا يخطر ببالي ما روي على مسامعي كثيراً في الطفولة أنَّ احدى الفلاحات تنبأت عند ولادتي لأمي السعيدة بوليدها الأول أنها وهبت العالم رجلاً عظيماً . ولا بدَّ أن تكون مثل هذه التنبؤات كثيرة جداً . فهناك الكثير من الأمهات السعيدات بانتظار مولود والكثير من القرويات العجائز أو النسوة العجائز الأخر اللواتي فقدن نفوذهن وسلطانهن على الأرض فانصرفن بسبب ذلك إلى المستقبل وتحوّلن جهة الغيب . وستكون المتنبئة جوزيت على ذلك . أيمكن أن يكون تحرّقي الى العظمة نابعاً من هذا المنبع ؟ لكن هنا يخطر ببالي انطباع آخر يعود الى أيام الشباب وسيصلح للايضاح أفضل من غيره بكثير . في أحد مطاعم (براتر) حيث اعتاد أبواي أن يصطحباني إليه وأنا في الحادية عشرة أو الثانية عشرة حدث ذات مساء أن لفت انتباهنا رجل كان يتنقل من منضدة إلى منضدة ويرتجل لقاء مكافأة شرفية بسيطة

أبيات شعر في أي موضوع يعرض عليه . وأُرسِلْت في طلب الشاعر إلى مائدتنا وأظهر شكره وامتنانه للرسول . وقبلَ أن يسأل عن واجبه ومهمته نظم فيّ بضعة أبيات موزونة ورجح في إلهامه أنني سأصبح ذات يوم «وزيراً» . وما زال في إمكاني أن أذكر أحسن الذكرى انطباع هذا التنبؤ الثاني . وكان عهد وزارة الطبقة المتوسطة «الوزارة البورجوازية !» . وكان سبق لأبي أن أحضر إلى البيت صور الدكاترة البورجوازيين هيربست وكيسكرا وأونغر وبيرجر وآخرين . وكنا زيّنا بالأضواء إكراماً لهؤلاء السادة . وكان بينهم يهود أيضاً . وهذا يعني أنّ كل صبي يهودي مجتهد حمل الحقيبة الوزارية في محفظة كتبه . ولا بدُّ أن يكون لانطباعات ذلك الوقت صلة برغبتي ، قبيل التسجيل في الجامعة ، في أن أدرس الحقوق . ولم أغيّر دراستي إلاّ في اللحظة الأخيرة . إذ أنّ طالب الطب سيجد حتماً الأبواب إلى المناصب الوزارية مغلقة دونه في الحياة العملية . ثمّ حلمي ! لم ألحظ إلى الآن أنه نقلني من الحاضر الكالح الى عهد الوزارة البورجوازية ذي الآمال البهيجة ، وحقق رغبتي من ذلك الحين بقدر ما استطاع . وعلى حين أسيء معاملة كلا الزميلين العلاّمتين المحترمين أسوأ معاملة لأنهما يهوديان ، أحدهما وكأنه غبي أحمق والآخر وكأنه مجرم ، وعلى حين أسلك أنا مثل هذا السلوك أتصرف كأني وزير أو حللت محل الوزير . يا له من انتقام تام لا ينسى ، انتقام من صاحب المعالي ! إنه يرفض أن يعينني أستاذاً مساعداً ، ومن أجل ذلك أحلّ محلّه في الحلم»[٤] .

إنّ تفسير هذا الحلم لمثال ممتاز على ميل فرويد إلى أن ينظر الى الدوافع اللا عقلانية كالطموح على أنها تتنافى مع شخصية الفتى البالغ ، ولذلك فهي جزء من الطفل في الفتى البالغ . ويبيّن الحلم بوضوح الطموحات التي كانت لدى فرويد في وقت الحلم . لكنه ينكر بصراحة أنه كان في وسعه أن يبدي طموح ملحوظاً إلى هذه الدرجة . والحق أنه يمثّل بمثال جيد على التسويفات التي يصفها وصفاً جدّ رائع . ويحاجج على النحو التالي : «إذا كانت حاجتي الى أن أخاطب بلقب آخر [إنّه بهذا التعبير يقلّل من شأن الموضوع الذي يهمه في الحقيقة ، أي الصيت الذي اقترن بهذا اللقب] غاية في الشدّة فإنها تدل على طموح مَرَضي» .

---

٤) انظر : فرويد ، س : تفسير الاحلام ، ص ١٤٣ - ١٤٧و١٩٧ - ١٩٩

ويعني أنه لا يعرف هذا الطموح من حيث هو . إما إذا عدّه آخرون طموحاً إلى هذا الحدّ فإنه يؤكد أنَّ هذا الطموح لا يمكن أن تكون له علاقة بلقب أستاذ مساعد ، كما يرى هو . وعلى هذا يجد نفسه مجبراً على الافتراض أن لهذا الطموح علاقته برغبات من عهد الطفولة ، ولا علاقة له بشخصيته الحالية .

وعلى حين يصح أن تنمو دوافع مثل الطموح في طبع الطفل ويكون لها جذورها في المرحلة المبكرة من مراحل الحياة فليس بصحيح أنَّ المسألة هنا تتعلق بشيء لا يمتّ بصلة إلى الشخصية الحالية . وحين يتكلّم فرويد على شخص سويٍّ مثله هو يجد نفسه مكرهاً على أن يضع حدّاً فاصلاً دقيقاً بين الطفل في نفسه وبين نفسه بالذات . وفي الإمكان أن يعزى إلى تأثيره إلى حدٍّ كبير أنه لم يعد لدينا الاحساس أنَّ مثل هذا الخط الدقيق الفاصل موجود . ومن المسلّم به الآن أنَّ الانسان السويَّ نفسه يمكن أن تدفعه وتحرّكه كل الرغبات اللا عقلانية الممكنة وأنَّ المسألة في أثناء ذلك تتعلق برغباته هو حتى لو كانت تعود إلى مرحلة نموّ مبكرة .

لقد ناقشنا إلى الآن جانباً واحداً من نظرية فرويد في الأحلام . فالأحلام تُفهَمُ على أنها تحقيق هلاسي لرغبات لا معقولة ، وعلى الأخص رغبات جنسية مردّها إلى الطفولة المبكرة ولم تتحول تحولاً تاماً إلى تكوينات ردود فعل واستجابات أو إلى تطهيرات وصقل . وتظهر هذه الرغبة محققة حين تضعف الرقابة بوساطة الشعور كما هي الحال في النوم . ولكننا لو أجزنا لأنفسنا بأن نستمتع بتحقيق هذه الرغبات اللا معقولة في أحلامنا استمتاعاً كاملاً لما كانت هذه الأحلام غامضة ومربكة . وقلما نحلم بأننا نقتل قتيلاً أو نقترف فاحشة الزنا بالمحارم أو نرتكب جرماً آخر ، وحتى لو فعلنا ذلك فتحقيق هذه الرغبات في الحلم لا يرضينا . ويذهب فرويد ابتغاء تفسير هذه الظاهرة إلى أنَّ الرقيب الأخلاقي لا يغمض جفنه في نومنا إلاّ نصف اغماضة أيضاً . وعلى هذا النحو تستطيع أن تنفذ إلى شعورنا أثناء النوم أفكار وأخيلة كانت في غير هذا الوقت مبعدة أبعاداً مطلقاً . على أن الرقيب لا تغمض عينه إلاَّ نصف اغماضة . إنه ما زال يقظاً بما يكفي لأن يمنع من أن تظهر أفكار ممنوعة ظهوراً واضحاً لا لبس فيه ولا إبهام . فإذا كانت وظيفة الحلم أن يكون حارس نومنا فيجب أن تكون الرغبات اللا عقلانية الظاهرة في الحلم على غاية من التخفي والتنكر بحيث تخدع الرقيب . فهي ، مثل أعراض مرض العصاب ، حل

وسط بين القوى المكبوتة لـ «هو» والقوة الكابتة للأنا الأعلى التي تمارس الرقابة . ويحدث بين الحين والحين أن آلية التشويه هذه لا تعمل بشكل صحيح وأن حلمنا يصبح أوضح بكثير من أن يتمكن الرقيب من صرف النظر عنه ، وعندئذ نستيقظ . وعلى هذا يفترض فرويد أن العلامة الرئيسية المميزة للغة الحلم هي عملية الستر والتشويه للرغبات اللا معقولة التي تمكننا من أن نتابع النوم من غير اقلاق . وهذه الفكرة أثرت في مفهوم فرويد للرموز تأثيراً حاسماً . فهو يعتقد أن الوظيفة الأساسية للرمز تنحصر في أن تحجب وتشوه الرغبة التي هي أساس الرمز . ويفهم لغة الرمز بأنها ضرب من الرمزيات السرية وأن تفسير الحلم هو حلّ لهذه الرمزيات .

والافتراض أنّ مضمون الحلم ذو طبيعة طفولية لا عقلانية وأن وظيفة عمل الحلم هي تشويه هذا المضمون أدى إلى تفسير للغة الحلم أضيق بكثير من التفسير الذي اقترحته في أثناء مناقشتي للغة الرمزية . ويرى فرويد أن المسألة في اللغة الرمزية ليست مسألة لغة تستطيع أن تعبّر عن كل ضرب من ضروب المشاعر والأفكار تعبيراً خاصاً متميزاً ، بل إنّ المسألة هي مسألة لغة لا تعبّر إلّا عن بعض الرغبات البدائية الغريزية . والرموز الأكثر عمومية وشيوعاً هي ذات طبيعة جنسية . ويرمز إلى عضو التناسل الذكري بالعصي والأشجار والمظلات والسكاكين والأقلام والمطارق والطائرات وأشياء أخرى كثيرة يمكنها أن تمثله سواءً بشكلها أو بوظيفتها . أما الجهاز التناسلي عند المرأة فيرمز إليه بطريقة مماثلة ، وذلك بالكهوف والزجاجات والصناديق والأبواب وعلب المجوهرات والحدائق والزهور وغير ذلك . وتتمثل اللذة الجنسية بأعمال كالرقص وركوب الخيل والتسلق والطيران . ويعد سقوط الشعر والأسنان تصويراً رمزياً للخصاء . وإلى جانب عناصر جنسية تعبر رموز عن التجارب الأساسية للطفل الصغير . فيرمز إلى الأب والأم بأنهما ملك وملكة أو امبراطور وامبراطورة ويرمز إلى الأطفال بأنهم حيوانات صغيرة ويرمز الى الموت بأنه رحلة . ويسوق فرويد في تفسيره للأحلام رموزاً هي عرضية أكثر منها كلية . ويؤكد على وجهة النظر أنه ينبغي أن نجزيء الحلم عدة أجزاء إذا أردنا أن نفسّره لكي نتجنب بذلك ترتيبه النصف منطقي . ثم ينبغي علينا أن نحاول إيجاد الترابطات الحرة المناسبة لكل عنصر من عناصر الحلم وأن نحلّ الأفكار التي تخطر ببالنا في أثناء عملية التداعي محل العناصر الظاهرة في الحلم .

فإذا ما جمعنا الأفكار التي توصلنا إليها بوساطة التداعي الحر حصلنا على نص جديد له ترابط داخلي وسياق ومنطق داخلي ويكشف لنا عن المعنى الحقيقي للحلم .

ويسمي فرويد هذا الحلم الحقيقي الذي هو تعبير عن رغباتنا الخفية ، «بالحلم الكامن» . إنّ صيغة الحلم المشوّهة التي نتذكرها هي «الحلم الصريح» ، وعملية التشويه والحجب هي «عمل الحلم» . فالآليات الأساسية التي بوساطتها ينقل عمل الحلم الحلم الكامن إلى الحلم الصريح هي التكثيف والنقل أو التحويل ثم المعالجة الثانوية . والتكثيف ، كما يرى فرويد ، هو الحلم الصريح الذي يكون أقصر من الحلم الكامن بكثير . ويحذف جملة من عناصر الحلم الكامن ويركب أجزاء لعناصر مختلفة ويكثفها في عنصر جديد في الحلم الصريح . فإذا حلمنا ، مثلاً ، برجل له مكانته وهيبته فقد نرى في الحلم الصريح رجلاً شعره يشبه شعر والدنا الذي يحمل وجه معلم يبث الرعب في النفوس ويلبس مثل رئيسنا . أو إذا حلمنا بموقف أحسسنا فيه بالحزن والتعاسة فقد نحلم ببيت يرمز بشكل سقفه الى منزلٍ أحسسنا فيه ذات مرة بالتعاسة أو منزل يمثل بشكل الغرفة منزلاً آخر مررنا فيه بتجربة شعورية مماثلة . ففي الحلم الصريح يظهر كلا العنصرين بصورة مركبة لبيت واحد . وتبيّن هذه الأمثلة أن مثل هذه العناصر تتكثف وحدها في صورة وهي بحكم مضمونها الانفعالي متطابقة . وإذا أنعمنا النظر في طبيعة اللغة الرمزية كان في إمكاننا أن نفهم عملية التكثيف في سهولة ويسر . فإذا كان بالنسبة للواقع الخارجي أمراً مهماً أن شخصين أو شيئين يختلفان عن بعضهما فليست حقيقة الأمر هذه من ناحية الواقع الداخلي بذات أهمية . والمهم هو أنّ لهما علاقة بنفس التجربة الداخلية وأنهما يعبران عنها .

والنقل أو التحويل ، كما يفهمه فرويد ، هو حقيقة الأمر أنّ عنصراً من عناصر الحلم الكامن ، وكثيراً ما يكون عنصراً بالغ الأهمية ، يُعبر عنه في الحلم الصريح بوساطة عنصر قاصٍ يبدو في الحالة العادية عديم الأهمية . ونتيجة لذلك يتناول الحلم الصريح في كثير من الأحيان العناصر المهمة فعلاً وكأنما كانت بلا معنى خاص مما يخفي المعنى الحقيقي للحلم .

والمعالجة الثانوية في مفهوم فرويد هي الجزء من عمل الحلم وهو يكمل عملية الحجب والاخفاء . فتسدّ ثغرات في الحلم الصريح . ويتم تدارك أقوال

متناقضة بنتيجة أنَّ الحلم الصريح يتخذ شكل قصة مترابطة ترابطاً منطقياً تخفي وراء واجهتها لعبة حلم مسرحية مثيرة .

كما أنَّ فرويد يذكر أيضاً عاملين آخرين يعقّدان فهم الحلم ويلحقان بوظيفة عمل الحلم المشوِّهة المموِّهة . فتارة ترمز عناصر الحلم هذه إلى ما يناقضها مباشرة . فالاكتساء قد يعني العري . والغنى قد يرمز الى الفقر . وقد يرمز الاحساس بحنان خاص إلى العداء والسخط . زد على ذلك أن الحلم الصريح لا يعبر عن أية علاقات منطقية بين مختلف عناصره . فلا وجود فيه لِـ «لكن» أو «لذلك» ، أو لِـ «لأن» أو لِـ «إذا» ، بل يتم التعبير عن هذه العلاقات المنطقية من طريق العلاقة بين مختلف صور الحلم ، الواحدة تلو الأخرى . ويستطيع الحالم ، مثلاً ، أن يحلم برجل ينهض ويرفع الذراع ثم يتحول إلى دجاجة . وفي لغة اليقظة قد تعني الفكرة التي تمَّ التعبير عنها في الحلم أنه «يتصرف كما لو أنه قوي ، لكنه في الحقيقة ضعيف وجبان مثل دجاجة ، وفي الحلم الصريح يكون التعبير عن هذه العلاقة المنطقية بوساطة صورتين متعاقبتين .

وفي الامكان أن يلحق بهذا العرض الموجز لنظرية فرويد في الأحلام تكملة مهمة أخرى . فالتوكيد على طبيعة مضمون الحلم الطفولية قد يدفع إلى الظن بأن فرويد لا يفرض أن بين الحلم والحاضر صلة مهمة ، بل إنه لا يرى إلاَّ الصلة بالماضي . على أنَّ هذا ليس بصحيح إطلاقاً . إن فرويد يذهب إلى أن الحلم ينبعث أبداً من حادثة حاضرة راهنة ترجع في أصلها ، كما هو مألوف ، إلى يوم أو مساء سابق . على أنَّ حلماً ما لا تسببه إلاَّ حوادث لها علاقتها بدوافع طفولة مبكرة . فالطاقة الضرورية لإحداث الحلم تنبع من خبرة الطفولة الشديدة . على أن الحلم ما كان نشأ وحصل لو لم ينبّه الحدث اليومي الراهن التجربة أو الحادثة السابقة ويمهد لها أن تعود في تلك اللحظة إلى الحياة وتنشط . وها هو مثال بسيط يوضح ذلك : إن رجلاً يعمل تحت إمرة رئيس مستبد متسلط قد يشعر نتيجة ذلك بخوف مفرط لأنه كان يخاف أباه وهو طفل . وينتقده رئيسه ذات يوم لأمر ما . وفي الليلة التي أعقبت ذلك اليوم يرى كابوساً ويرى فيه شكلاً هو مزيج من أبيه ورئيسه يحاول أن يقتله . فلو لم يخش والده وهو طفل لما أرعبه غضب رئيسه . ولكن لو لم يحنق رئيسه عليه في ذلك اليوم لما حُشد هذا الخوف المتأصل في قرارة النفس ولما صار الحلم .

وسيظفر القارىء بتصوّر أفضل عن طريقة فرويد في تفسير الأحلام حين يرى كيف يستخدم فرويد المبادىء المذكورة آنفاً في تفسيره أحلاماً معينة . ويحتل مكان الصدارة في أول الحلمين التاليين رمزٌ كلي هو : العري . وفي الحلم الثاني لا يوجد الاّ رموز عرضية تقريباً .

حلم العري المربك :

«يحلم المرء أنه عار في حضرة ناس غرباء أو ليس عليه من الثياب إلاّ القليل والخفيف . كما أنه يضاف إلى الحلم أيضاً أنّ المرء نفسه لا يخجل من ذلك أبداً أو ما شابه ذلك . لكن حلم العري لا يستحق اهتمامنا إلاّ إذا استشعرنا فيه الخجل والارتباك ، وأردنا ان نهرب أو نختبىء ونخضع في أثناء ذلك للرادع المميز الغريب أننا لا نستطيع أن نغادر المكان ونحس بأننا عاجزون عن أن نغيّر هذا الموقف المزعج . وبهذا فقط يكون الحلم نموذجياً . فكنُهُ مضمونه يمكن أن يدخل عدا ذلك في شتى أنواع الروابط الأخرى أو أن يمزج باضافات وزيادات فردية . والمسألة هي في جوهرها مسألة احساس مؤلم بطبيعة الخجل بحيث يود المرء أن يخفي عريه بالتحرك والتنقل في أغلب الأحيان ولا يوفق إلى ذلك . واعتقد ان الغالبية العظمى من قرائي سيكونون وجدوا أنفسهم في هذا الموقف في الحلم .

والمألوف أن طريقة التعري واضحة بعض الشيء . ونسمع من يقول : كنت بالقميص . على أن هذا قلّ أن يكون صورة واضحة . ويكون العري عادة غير محدد بحيث إنه يوصف مرة أخرى في القصة بأحد أمرين :«كنت بالقميص أو كنت بالسترة الداخلية». والنقص في الثياب لا يكون في العادة بغيضاً ومغيظاً جداً بحيث يبدو الخجل العائد إلى ذلك مسوّغاً . وبالنسبة للذي لبس سترة القيصر فكثيراً ما يستعاض عن العري بملابس رسمية منافية للتعليمات . «فأنا في الطريق من دون سيف وأرى ضباطاً يقتربون ، أو أنا من غير ربطة عنق أو أنني ألبس سروالاً مدنياً مختلف الألوان وما شابه ذلك». فالناس الذين يخجل المرء منهم هم في أكثر الأحايين غرباء يطمئن المرء إلى وجوههم اطمئناناً غير محدد . ولا يحدث أبداً في حلم نموذجي أن عيب على المرء بسبب الثياب التي تسبب له مثل هذه الحيرة وهذا الارتباك أو اعير انتباهاً . فالناس، على العكس من ذلك تماماً ، تظهر عليهم اللامبالاة ، أو كما استطعت أن أرى هذا في حلم واضح وضوحاً خاصاً ، تعلو

وجوههم سيماء الفتور والبرود . وهذا ما يدعو إلى التفكير .

إنَّ ارتباك الحالم من الخجل ولا مبالاة الناس يسفران معاً عن تناقض يكثر وقوعه في الحلم . على أن الشيء الذي قد يناسب إحساس الحالم هو أن ينظر إليه الغرباء نظرة دهش ويضحكوا منه أو يستاؤوا منه . على أن هذه السمة المسيئة المخلة بالآداب قد تمَّ التغلب عليها من طريق تحقيق الرغبة على حين أن السمة الأخرى التي تمُّ الحفاظ عليها بوساطة قوة من القوى ، بقيت قائمة موجودة . وبذلك سيتعارض كلا الشطرين معاً . ولدينا شاهد ممتع على أنُّ الحلم لم يلق الفهم الصحيح في صورته التي شوّهها تحقيق الرغبة تشويهاً جزئياً . والحق أنه صار أساساً للحكاية التي نعرفها جميعاً في رواية اندرسون(*) «ثياب الامبراطور الجديدة» ، واستخدمها حديثاً لودفيغ فولدا استخداماً أدبياً في «الطلّسم». وتحدثنا حكاية اندرسون عن محتالين اثنين ينسجان للقيصر رداءً نفيساً لا يراه إلّا الأخيار والأوفياء المخلصون . ويخرج القيصر لابساً هذا الرداء اللا مرئي . ويرتاع الناس لقوة النسيج التي هي من نوع المحك . فيتصرفون وكأنهم لا يرون عري القيصر .

على أن الشيء الأخير هو موقف حلمنا . وإنه لا يتطلب الكثير من الجرأة على الافتراض أن مضمون الحلم الغامض كان الدافع إلى اختراع رداء يكون فيه الموقف الماثل أمام الذاكرة ذا معنى ومدلول . وفي أثناء ذلك يفقد الموقف نفسه معناه الأصلي ويسخّر لخدمة اغراض غريبة . على أننا سنسمع أن مثل هذا الفهم الخاطيء لمضمون الحلم كثيراً ما يحدث بوساطة نشاط ذهني شعوري لنظام نفسي ثانٍ ويمكن أن يُعدّ عاملاً لصياغة الحلم النهائية وتشكيله . وفضلاً عن ذلك فإن أي سوء فهم مماثل ، في نطاق الشخصية النفسية ذاتها أيضا ، له دور أساسي عند تكوين وسوسات قسرية ومخاوف مرضية . وبالنسبة لحلمنا يمكننا الاشارة الى مصدر المادة للتفسير الآخر . فالمحتال هو الحلمُ والقيصر هو الحالم نفسه . والميل الى الموعظة الأخلاقية تنم عن معرفة مبهمة بأن المسألة في مضمون الحلم الكامن هي مسألة

(*) هو كاتب الحكايات الدانمركي هانز كريستيان اندرسون (١٨٠٥ ـ ١٨٧٥) أما لودفيغ فولدا (١٨٦٢ ـ ١٩٣٩) فهو كاتب وشاعر الماني ، و«الطلسم» مسرحية هزلية ذات طابع رومانسي تعرض بالقيصر فيلهلم الثاني وتنتقده بسبب غطرسته وتكبّره . (المترجم) .

رغبات محرمة نذرت للكبت . فالصلة التي تبرز فيها مثل هذه الأحلام في أثناء قيامي بتحليل عصابيين لاتترك مجالاً للشك في أن الحلم يقوم على ذكرى ترجع إلى زمن الطفولة المبكرة . فطفولتنا هي الزمن الوحيد الذي كنا نظهر فيه أمام أقربائنا ومربين غرباء ، وخادمات وضيوف ونحن غير مكتملي الثياب ، ولم نكن نخجل آنذاك من عرينا . (على أن الطفل يظهر أيضاً في الحكاية إذ أن طفلاً صغيراً يصيح هناك فجأة : «لكنه لا يلبس شيئاً على الاطلاق»). ونستطيع أن نلحظ على كثير من الأطفال ، حتى في سنوات متأخرة من العمر ، أن نزعهم لملابسهم يفعل فيهم فعل السحر بدلاً من أن يدفعهم الى الخجل فيضحكون ويتواثبون هنا وهناك ويتضاربون ، والأم أو ، أيّا كان ، تقرّعهم قائلة : «تفًا لكم ! إنّ هذا لعار . هذا لا يجوز .» وكثيراً ما يبدي الاطفال رغبة وتلذذاً في أن يعرضوا أنفسهم . فلا يكاد المرء يمرّ بقرية من قرى ريفنا إلاّ ويصادف طفلاً في الثانية أو الثالثة يرفع قميصه للسائح وربما فعل هذا على سبيل التكريم . ولقد احتفظ أحد مرضاي بمشهد في ذاكرته الشعورية كان قد وقع له وهو في الثامنة من عمره ، وهو يريد أن يخرج الى أخته الصغرى في الغرفة المجاورة ويرقص بعد نزع ثيابه قبل النوم ، فتحول الخادمة بينه وبين ذلك . وفي تاريخ الشباب عند عصابيين يكون للتعري أمام أطفال من جنس آخر دورٌ كبير ، ففي الفصام المرتبط بالهلوسة وافكار الاضطهاد (البارانويا) يُعزى الوهم أنّ المرء مراقَبٌ في أثناء اللباس وعند نزع الثياب إلى مثل هذه الحوادث والتجارب . ومن بين مَنْ بقوا منحرفين انحرافاً جنسيا طبقة أولئك الذين يشتد عندهم الدافع الطفولي ويبلغ مبلغ العَرَض المرضي ، والطبقة هي طبقة المستعرضين . هذه الطفولة التي تخلو من كل حياء وخجل تبدو لنا حين نعود بذاكرتنا إلى الوراء فردوساً ؛ وهذا الفردوس ذاته ليس إلاّ تخيّلاً جماعياً من عهد الطفولة ، طفولة الفرد . وعلى هذا فإن الناس في الجنة عراة أيضا ولا يخجلون من بعضهم إلى أن تحين اللحظة التي يستيقظ فيها الخجل والخوف ويتبع الطرد وتبدأ الحياة الجنسية والعمل الحضاري . والحلم وحده يستطيع أن يعود بنا الى هذا الفردوس كلّ ليلة . وسبق أنْ عبرت عن الظن بأنّ الانطباعات من عهد الطفولة الأولى (من مرحلة ما قبل التاريخ وحتى تمام السنة الثالثة) تطمع في الاعادة أصلاً وربما من دون أن تكون المسألة رهن مضمونها ، بحيث يكون تكرارها تحقيق رغبة .

فأحلام العري ، إذاً ، هي أحلام استعراض (Exhibitions traume) . أما نواة حلم الاستعراض فتكوّنها صورة الشخص في الحلم التي ينظر إليها لا بصفتها صورة طفل ، بل كما ينظر إليها في الوقت الحاضر ، ويكوّن هذه النواة أيضاً اللباس القليل الذي يخرج غير واضح إمّا عن طريق تغطية الكثير مما تأخر من الذكريات المفضّلة أو حبّاً بالرقابة . ويضاف إلى ذلك الأشخاص الذين يخجل المرء منهم . ولست أعرف مثالاً واحداً يفيد بأنّ المتفرجين الفعليين عاودوا الظهور في الحلم في أثناء تلك الاستعراضات الطفولية . وليس الحلم أبداً تقريباً ذكرى بسيطة . ومن العجب أنّ أولئك الأشخاص الذين يتجه اليهم اهتمامنا الجنسي في الطفولة يُهملون في كل استحضار واسترجاع للحلم ، في الاضطراب العصبي (الهستريا) أو العصاب القهري . فجنون الاضطهاد (البارانويا) وحده يعاود أدراج النظارة المتفرجين ويستدل على حضورهم باقتناع ملؤه التعصب ، مع أنهم بقوا غير مرئيين . فما يجمعه الحلم ويظهره لهم ، «لناس غرباء ، كثر» لا يكترثون للتمثيلية المعروضة ، هو أقرب ما يكون الى نقيض رغبة ذلك الشخص الفرد المألوف كل الالفة الذي عُرض عليه التعرّي . وبالمناسبة فإنّ «الغرباء الكثر» ليكثر أيضاً وجودهم وجودهم في الأحلام في سياق يتنوّع بتنوع الرغبات والمآرب . وباعتبارهم نقيض الرغبة فهم يُعنون دائماً «في السر» كيف يراعي استرجاعُ الوضع القديم الذي يحدث في البارانويا هذا النقيض .

فالمرء لم يعد وحيداً ، بل هو مراقب مراقبة تامة . على أنّ المراقبين هم «ناس غرباء كثيرون، ذوو رزانة غير محددة إلى حدّ الغرابة» .

وفضلاً عن ذلك يؤتى على ذكر الكبت في حلم الاستعراض . فالاحساس المحض بالحلم هو ردُّ فعل النظام النفسي الثاني على تمثّل أو تصوّر مشهد الاستعراض الذي استنكره هذا الإحساس . ولتجنب هذا الاحساس ما كان ينبغي أن تدب الحياة في المشهد مرة ثانية وينشط»[٥] .

حلم المبحث النباتي :

«ألّفت كتاباً عن نبتة معينة . والكتاب موجود أمامي . واقلب صفحة ملوّنة

---

٥) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ - ٢٥١ .

معطوية . وربط بكل نسخة نموذج مجفف من النبتة كأنه أخذ من مجموعة عشبية محفوظة للدرس .

التحليل :

رأيت في الضحاء في واجهة احدى المكتبات كتاباً جديداً بعنوان : «فصيلة بخور مريم» - ومن الواضح أنه كتاب خاص بهذه النبتة .

وبخور مريم هو الزهرة المفضلة عند زوجتي . وألوم نفسي على أنني قلّما فكرت بأن أجلب أزهار بخور مريم كما تتمنى هي ذلك . وأما مسألة جلب الأزهار فتذكرني بقصة رويتها منذ زمن غير بعيد على مسمع من أصدقائي واستخدمتها دليلاً على قولي إنّ النسيان كثيراً ما يكون انجازاً لما يضمره اللا شعور وشرحاً لمقصده . ومع هذا يتيح لنا أن نستدل على سريرة الناسي . فقد اعتادت امرأة شابة أن تجد في انتظارها باقة زهر من زوجها بمناسبة عيد ميلادها . وفي مثل هذا اليوم ، يوم عيد ميلادها ، تفتقد أمارة الحنو والحب هذه وتنفجر بالدموع . ويأتي الزوج ولا يدري سبباً لبكائها إلى أن تقول له : اليوم عيد ميلادي . ويضرب بيده على جبهته ويصيح : اعذريني ، لقد نسيت هذا ويريد أن يخرج ليحضر لها الأزهار . على أنّ هذا لا يخفف من عزائها إذ أنها ترى في نسيان زوجها علامة ودليلاً على أنها لم تعد تشغل من أفكاره المكان الذي كانت تشغله من قبل . وهذه السيدة ل . التقت زوجتي منذ يومين وأخبرتها أنها مرتاحة البال وأنها سألت عني . فلقد توليت علاجها قبل ذلك بسنوات .

بداية جديدة : الحق أنني كتبت ذات مرة شيئاً من هذا القبيل ، دراسة عن نبتة ، وهي مقالة عن جبنة الكوكه لفتت انتباه كارل كوللر إلى خاصية الكوكائين المخدرة ، وكنت أشرت إلى استخدام المركبات شبه القلوية في دراستي المنشورة ولكنه لم يكن من العمق ما يكفي لمتابعة الموضوع . وإلى ذلك يخطر ببالي أنني تذكرت الكوكائين بنوع من وهم اليقظة في ضحوة النهار بعد الحلم (الذي لم أجد الوقت لتفسيره إلاّ في المساء .) فلو أصبت ذات مرة بالزرق (الجلوكوما) لسافرت إلى برلين ولأقدمت هناك عند صديقي البرليني على عملية جراحية يجريها لي طبيب وأنا باسم مستعار . فالقائم بالعملية الجراحية لا يعرف الشخص الذي تجري له العملية وقد يعاود مرة أخرى مدح السهولة التي تجري بها العملية بعد ادخال

الكوكائين . ولن يكون هناك في وجهي ما ينمّ على أنني ساهمت في هذا الاكتشاف بالذات بنصيب . وتبع هذا التخيّل أفكار وخواطر عن مدى انزعاج الطبيب أن يستخدم انجازات طبية قام بها الزملاء ويستأثر بها لنفسه . فطبيب العيون البرليني الذي لا يعرفني قد أنقده اجره كما يفعل أي شخص آخر . وبعد أن خطر ببالي حلم اليقظة هذا أرى أنه ذكرى حادثة معينة تتوارى وراءه . فبعيد اكتشاف كوللر أصيب والدي بمرض الزرق . وأجرى له صديقي طبيب العيون ، دكتور كونيجشتاين ، العملية . وتولّى الدكتور كوللر التخدير بالكوكائين وعلّق قائلا : إنَّ الأشخاص الثلاثة الذين ساهموا في ادخال الكوكائين بنصيب وجدوا أنفسهم مجتمعين في هذه الحالة .

وتذهب أفكاري إلى أبعد من ذلك إلى آخر مرة تذكرت فيها قصة الكوكائين هذه . كان ذلك منذ عدة أيام لما استلمت الكتاب التذكاري الذي أصدره طلاب يحفظون الجميل احتفالا بذكرى (يوبيل) معلمهم ومدير معهدهم . ومن بين العناوين الخالدة لمعهد البحوث ذُكر أيضاً أن اكتشاف خاصية الكوكائين المخدرة تمَّ على يد ك . كوللر . وأرى الآن ، وعلى حين غرة ، أن لحلمي علاقته بحادثة وقعت في المساء الماضي . إذا كنت صحبت الدكتور «كونيجْشتاين» إلى المنزل وكنت انخرطت معه في حديث تناول مسألة كانت تثير همتي وحماستي كلما تطرقت اليها . ولما توقفت معه في الدهليز أقبل الأستاذ غيرْتنسر وزوجته . ولم أملك إلّا أن أهنئهما كليهما على مظهرهما النضر المزهر . والأستاذ غيرتنسر أحد محرري الكتاب التذكاري الذي أشرت إليه توّاً . ومن الجائز أن يكون ذكرني به .

كما أنَّ السيدة ل . التي تحدّثت توّاً عن خيبة أملها في عيد الميلاد ذكرتها في حديثي مع الدكتور كونيجشتاين ، وإن يكن في قرينة أخرى . وسأحاول أن أفسّر أيضاً التحديدات الأخرى لمضمون الحلم . إنَّ نموذجاً مجففاً من النبتة مرفق بالبحث كما لو كان مجموعة عشبية محفوظة للدرس . وتقترن بالمجموعة العشبية ذكرى تعر إلى أيام المدرسة الثانوية . إذ أنَّ مدير مدرستنا جمع ذات مرّة طلاب الصفوف العليا ليسلمهم معشبة المدرسة ليقوموا بمراجعتها وتنظيفها . وكان فيها ديدان صغيرة ، ديدان كتب . ويظهر أنه لم يطمئن إلى مساعدتي إذ أنه كان عليها نبتات صليبيات (من ذوات الفلقتين) . ولم تكن لي قط صلة حميمة بعلم النبات . وفي الامتحان

التمهيدي الخاص بعلم النبات أعطيت نبتة صليبية مرة أخرى لتحديدها وتعريفها ولم أعرفها . ولو لم تسعفني معلوماتي النظرية وتنقذني من هذا المأزق لآلت الأمور معي مآلاً سيئاً . ومن النبتة الصليبية تنتقل أفكاري فجأة إلى فصيلة المركبات . والحقيقة أنَّ الأرضي شوكي هو أيضاً احدى المركبات . وعلى وجه التحديد فإنَّ النبتة المركبة يمكن أن تسمى زهرتي المفضلة . وعلى نحو أنبل مني وأكرم اعتادت زوجتي أن تحضر لي هذه النبتة المفضلة . وأرى الدراسة التي كتبتها «نصب عيني» . ثم إنَّ لهذا أيضا علاقته ومناسبته . فصديقي البَصَري كتب إلي أمس من برلين : «إنني مهتم بكتابك ، كتاب الأحلام ، اهتماماً كثيراً . وإني لأراه جاهزاً أمامي وأقلب فيه .» لكمْ غبطته على قدرته على التنبؤ والنظر بعين الغيب ! ليتني استطيع رؤيته جاهزاً منتهياً أمامي !

وماذا عن اللوحة الملونة المطوية : لَمَّا كنت طالباً أدرس الطب عانيت كثيراً من دافع الرغبة في التعلم من الدراسات والمباحث التي تتناول موضوعاً معيناً دون غيرها . ورغم ضيق مواردي استخدمت آنذاك غير واحد من الأرشيفات الطبية ومنشورات الجمعيات الطبية التي كانت لوحاتها الملونة بهجتي . وكنت تياهاً بهذا الميل الى الدقة والمثابرة والاستقصاء . ولما أخذت أنشر فيها بعد كان عليَّ أن أرسم اللوحات لدراساتي ، وأعرف أنا إحدى هذه اللوحات خرجت في شكل يرثى له بحيث إنَّ زميلاً محباً سخر مني بسبب ذلك . يضاف إلى هذا ، ولا أدري كيف ، ذكرى من ذكريات الطفولة . فأبي خطر له ذات مرة ، على سبيل المزاح ، أن يترك لي ولأختي الكبرى كتاباً حوى لوحات ملونة (وصف رحلة إلى فارس) من أجل إتلافه . وكان هذا ، من الناحية التربوية ، صعب التسويغ . كنت آنذاك في الخامسة من عمري وأختي دون الثالثة .

وصورتنا ، ونحن الطفلان نمزق هذا الكتاب بغبطة وحبور ، (وأراني أقول : مثل الأرضي شوكي ، ورقة ورقة) هذه الصورة هي تقريباً الشيء الوحيد الذي بقي في ذاكرتي من تلك المرحلة بارزاً مجسّماً . ولما صرت طالباً نما لديَّ ميلٌ واضح الى جمع الكتب وحيازتها (شبيه بالميل الى التعلم من الأبحاث ذات الموضوع الواحد ؛ هواية تظهر ، كما هي ، في أفكار الحلم بخصوص بخور مريم والأرضي شوكي .) فلقد أصبحتُ دودة كتب (انظر المجموعة العشبية المجففة !) وأرجعت دائماً هذا

الغرام الأول في حياتي إلى هذا الانطباع الطفولي ، أو بالأحرى ، ادركت أنَّ هذا المشهد الطفولي هو «ذكرى مستعارة» لغرامي بالكتب وحبّ جمعها فيما بعد . وطبيعي أنني علمت في وقت مبكر أنه لمن اليسير أن يعاني المرء ويتألم من عواطفه واهوائه . ولما كنت في السابعة عشرة من عمري كان عليَّ عند المكتبي حساب لا يستهان به ولم يكن عندي مالٌ لكي أسدّد هذا الحساب ، وعزَّ على أبي أن يقبل اعتذاراً على أن ميولي ونوازعي لم تتجه إلى شيء خبيث منكر . على أنَّ ذكرى هذه التجربة المتأخرة من تجارب حداثتي سرعان ما نقلتني إلى الحديث مع صديقي الدكتور كونيجشتاين ، إذ أنَّ الحديث في مساء يوم الحلم دار ، كما هي الحال في ذلك الوقت ، حول نفس الملاوم والمؤاخذات وهي أني أجري كثيراً وراء هواياتي .

ولأسباب لا مجال لذكرها هنا لا أريد أن أتابع تفسير هذا الحلم ، بل سأكتفي بتحديد الطرق المؤدية الى التفسير . ففي أثناء عملية التفسير تذكرت حديثي مع الدكتور كونيجشتاين انطلاقاً من أكثر من موضع . فإذا وجهت نظري إلى الأشياء والأمور التي تطرقنا إليها في هذا الحديث اتضح لي مغزى الحلم . فكلّ التداعيات والتسلسلات الفكرية المبتدأة من هوايات زوجتي وهواياتي ومن الكوكائين وصعوبة المعالجة الطبية وسط زملاء ومن ميلي إلى دراسات مونوغرافية واهمالي لبعض المواد كعلم النبات ، هذا كله له تتمته بعد ذلك ويؤدي إلى أحد خيوط الحديث المتشعب الأطراف . ويتخذ الحلم من جديد طابع تسويغ وطابع دفاعي عن حقي ، مثله مثل الحلم عن حقنة إرما المحلل أول مرة . والحق أنه ليتابع الموضوع المبتدأ به هناك ويعالجه في ضوء مادة جديدة أضيفت في فترة فاصلة بين الحلمين كليهما . حتى إنَّ لصيغة الحلم التعبيرية غير المبالية في الظاهر نبرتها . فهي تعني الآن : بأنني حقّاً الرجل الذي كتب دراسة قيّمة موفقة (عن الكوكائين) . مثلما قلت آنذاك بغ تبرئتي : بأنني حقاً طالب مجتهد كفء . وفي كلتا الحالتين إذاً : من حقي أن أجيز لنفسي هذا . لكنني لا أستطيع أن أتخلى هنا عن إتمام تفسير الحلم لأنَّ ما دفعني إلى الإفضاء بالحلم لم يكن إلاّ النية أنْ أمثّل بمثال عن علاقة مضمون الحلم بالحادثة المثيرة لليوم السابق . وما دمت لا أعرف من هذا الحلم إلاّ المضمون الصريح فلن تظهر لي إلاّ علاقة الحلم بانطباع يومي . وبعد أن قمت بالتحليل يظهر مصدر ثانٍ للحلم في تجربة أخرى أو حادثة أخرى لليوم نفسه . وأول هذين الانطباعين

اللذين يتعلّق بهما الحلم هو ظرف ثانوي عديم الأهمية . فأنا أرى في الواجهة كتاباً لا يؤثّر عنوانه في نفسي إلَّا تأثيراً سطحياً عابراً ولا يمكن أنْ يهمني مضمونه . فالحادثة الثانية كان لها قيمة نفسية عالية . فلقد تحدثت مع صديقي طبيب العيون ساعة كاملة حديثاً ملؤه الحماسة ولمحت له تلميحات كان من شأنها أن تهزنا كلينا ، وأيقظت في أعماقي ذكريات اتضحت لي فيها شتى أنواع انفعالاتي النفسية . وإلى ذلك توقفنا عن الحديث من دون أن نكمله لأنَّ ناساً نعرفهم انضموا إلينا . فما وجه العلاقة بين الانطباعين كليهما وبين الحلم الحاصل في الليل ؟ .

إني لا أرى في مضمون الحلم إلاَّ إلماعاً إلى الانطباع العديم الأهمية . وأستطيع أن أؤكد أن الحلم يؤثر أن يدخل في مضمونه شيئاً ثانوياً تافهاً من الحياة . أما في تفسير الحلم فكل شيء يؤدي إلى الخبرة المهمة المثيرة بحق . فإذا حكمت على مغزى الحلم ، وذاك عين الصواب ، وفق المضمون الكامن الذي استنبطه التحليل أكون توصلت فجأة ومن غير توقع إلى معرفة جديدة مهمة . وأرى اللغز ينحل بأنَّ الحلم لا يهتم إلا بنتفٍ عديمة الأهمية والقيمة من الحياة اليومية . وعليَّ أيضاً أن أعارض الادعاء أنَّ الحياة النفسية الخاصة باليقظة لا تستمر في الحلم وأنَّ الحلم يضيِّع ، نظير ذلك ، عملاً نفسياً على مادة سخيفة تافهة . والعكس هو الصحيح . فالشيء الذي شغلنا في النهار يسيطر أيضاً على أفكار الحلم . ونبذل جهوداً لنحلم في ظل مثل تلك المواد أو الموضوعات التي كانت ستدفع بنا إلى التفكير في النهار .

والتفسير الأكثر منطقية لكوني أحلم بانطباع يومي عديم الأهمية على حين يدفعني إلى الحلم الانطباع المثير بحق هو التفسير بأنَّ أمامنا هو ظاهرة تشويه الحلم التي أرجعناها آنفاً إلى قوة نفسية تعمل عمل الرقابة . فذكرى المبحث العلمي الخاص بفصيلة بخور مريم استخدمت كما لو أنها كانت إشارةً إلى الحديث مع الصديق ، كما هي الحال تماماً في حلم العشاء الممتنع حيث تنوب إشارة «سمك السلمون المدخن» مناب ذكر الصديقة . والسؤال هو أية همزات وصل يمكن أن تربط انطباع المبحث العلمي بالحديث مع طبيب العيون لأنَّ مثل هذه العلاقة لا تتضح في بادىء الأمر (. . .) وفي مثالنا تتعلق المسألة بانطباعين منفصلين لا شيء مشترك يجمع بينهما في أول الأمر إلاَّ أنهما حدثا في اليوم ذاته . فالمبحث

الخاص بالنبتة يلفت انتباهي في الضحاء ؛ ثم إني أجريت الحديث في المساء . فالجواب الذي مكننا منه التحليل هو أنّ مثل هذه العلاقات غير الموجودة من قبل بين كلا الانطباعين تبدأ فيما بعد من المضمون التصوري الفكري لأحد الانطباعين إلى المضمون التصوري الفكري للانطباع الآخر . وسبق أن أكدت همزات الوصل المذكورة في أثناء كتابة التحليل . فلا يرتبط بتصور المبحث الخاص بفصيلة بخور مريم من دون تأثير صادر من جهة أخرى إلاّ الفكرةُ بأنّ هذه هي زهرة زوجتي المفضلة ، وكذلك أيضاً التذكر لباقة الورد التي افتقدتها السيدة ل . ولا أعتقد أن هذه الأفكار المبطنة أو النيات المضمرة كافية لأن تحدث حلماً .

جاء في مسرحية «هاملت» : «لسنا في حاجة ، يا سيدي ، إلى شبح يخرج من القبر ليقول لنا هذا .» ولكن انظر ها هنا ! ففي التحليل أتذكر أنّ الرجل الذي قطع علينا الحديث كان اسمه «جيرتنر» وأنني وجدت زوجته «ناضرة»(*) أجل ، الأن أتذكر ، وفي وقت متأخر ، أنّ احدى مريضاتي التي حملت اسم «فلورا» استقطبت حديثنا برهة من الزمن . ولا بدّ أن يكون حدث أن تمّ وراء همزات الوصل هذه ارتباط كلتا الحادثتين اليوميتين ، الحادثة العديمة الأهمية والأخرى المثيرة المهمة ، من دائرة التصوّر النباتية ، ثم حصلت علاقات أخرى كعلاقات الكوكائين التي تستطيع أن تتوسط بين شخص الدكتور كونيجشتاين ومبحث نباتي كتبته ، وثبتت هذه العلاقات انصهار مجالي التصورات والأفكار كليهما في مجال واحد بحيث انه صار في الامكان استخدام جزء واحد من الحادثة أو التجربة الأولى اشارةً ورمزاً الى الحادثة أو التجربة الأخرى .

وإني لأضع في حسباني أن المرء سيطعن في هذا التعليل بأنه تعليل اعتباطي أو مفتعل . ماذا كان حدث لو أن البروفسور جيرتنر وزوجته الناضرة الوجه لم ينضم إلينا ولو لم يكن اسم المريضة فلورا بل آنا ؟ ومع هذا فالجواب سهل . فلو لم تنجم

(*) إن الاسم جيرتنر (Gärtner) يعني «البستاني» ، كما انه اصطنع كلمة «ناضرة» التي تعني بالألمانية (blühend) للدلالة على صفة «التفتح» و «الازدهار» على حين تعني كلمة «فلورا» الزهرة أيضاً ، وبذلك ربط بين هذه الأسماء واوجد علاقة مشتركة بين الزهرة . (المترجم) .

هذه الروابط الفكرية لتمّ ، على الأرجح ، اختيار صلات أخرى . وإنه لمن اليسير إقامة صلات من هذا القبيل ، كما تستطيع الأحاجي والنوادر التي نتسلى بها في النهار الاثبات والبرهان . إن منطقة نفوذ النكتة لا تحدّه حدود . زد على ذلك أنّه لو تعذّر إنشاء روابط وسيطة وافرة بما فيه الكفاية لتربط بين كلا الانطباعين اليوميين لخرج الحلم في صورة أخرى . وإنَّ انطباعاً نهارياً آخر عديم الاهمية ، من قبيل ما يقبل علينا زرافات وننساه ، كان سيحل بالنسبة للحلم محل «المبحث الخاص» وكان سيرتبط بمضمون المحادثة وكان سيمثل هذه المحادثة في مضمون الحلم . ولما أنه ما من مضمون آخر إلاّ مضمون «المبحث العلمي» كان له هذا المصير فإنه سيكون الأنسب لهذا الارتباط . ولسنا بحاجة إلى أن نستغرب كما يستغرب هنسشين شلاو عند ليسنغ بأن «الأغنياء في هذه الدنيا هم وحدهم يملكون معظم المال»[٦] .

إن الحلمين كليهما لا يدفعاننا الى أن ندرس تطبيق مبادىء فرويد العامة على احلام خاصة فحسب ، بل أن نقارن تفسير فرويد بالتفسير الذي اقترحته في الفصل الثاني من هذا الكتاب . وفي تفسير حلم العري يلتزم فرويد بالمبدأ العام الموصوف أعلاه . فالحلم يمثل تحقيق رغبات طفولية لا عقلانية ، لكنه يشوّه ويخفي تحقيق الرغبة تحت تأثير الرقيب . فالرغبة اللا معقولة التي تتحقق هي رغبة التعري أو الاستعراض من عهد الطفولة للكشف عن أعضائه التناسلية . فشخصيتنا البالغة الراشدة تخشى مثل هذه الرغبات وتحار عند تحقيق الرغبة التي لا تزال تحيا في الطفل الموجود فينا .

ولا شكَّ في أنَّ هذا التفسير صحيح كل الصحة . لكنه لا يصحُّ دائماً لأن مضمون الحلم لا ينبغي أن يكون قطعاً ذا طبيعة طفولية . ويغفل فرويد حقيقة الأمر أنَّ العري يمكن أن يكون أيضاً رمزاً لأشياء أخرى غير التعري أو الاستعراض الجنسي . فقد يرمز العري مثلاً إلى حب الحقيقة . ويمكن أن يعني العري أيضاً ان المرء صادق كل الصدق ومخلص كلّ الاخلاص . وقد يعني لبس الثياب أننا نفصح عن افكار ومشاعر يتوقعها آخرون منا على حين هي في الواقع ليست أفكارنا ومشاعرنا . وبالتالي فالجسم العاري يمكنه أن يرمز الى الذات الحقيقية . وفي

---

(٦) المرجع السابق : ص ١٧٥ ـ ١٧٢ .

امكان الثياب أن ترمز إلى الذات الاجتماعية التي تحس وتفكر وفقاً للنمط الحضاري السائد . فحين يحلم شخص ما بأنه عارٍ ففي إمكان هذا الحلم أن يعبر عن رغبة في أن يكون هو ذاته وأن يتخلى عن كل التصورات والأفكار الوهمية الزائفة . ويمكن لخوفه أن ينعكس في حيرته في الحلم ؛ وربما استنكر الآخرون في النهاية حين يقدم على أن يكون ذاته .

فتفسير حكاية اندرسون في سياق تحليله لحلم العري هو مثال مناسب على سوء فهم فرويد لهذه الحكاية بناء على افتراضه أنَّ الحكايات مثلها مثل الأحلام والأساطير هي في كل الأحوال والظروف تعبير عن رغبات جنسية مكبوتة . فحكاية ثياب القيصر الجديدة ليست تعبيراً مشوّهاً لرغبة استعراضية . فهي تتناول خبرة مختلفة كل الاختلاف ألا وهي استعدادنا لأن نؤمن بالخصائص الخيالية العجيبة لأشخاص ذوي نفوذ ، وتتناول عجزنا عن أن ندرك حجمهم الحقيقي . فالطفل الذي لم تتسرب الرهبة من السلطة الى نفسه بعد يستطيع هو وحده أن يرى أنَّ القيصر عار ولا يلبس ثياباً غير مرئية . أما الآخرون الذين يسيطر عليهم أثر التهديد الخفي بأنهم ما كانوا من زمر الأخيار والأوفياء لو أنهم ما رأوا الثياب فإنهم كلهم يخضعون لهذا الايحاء ويحسبون انهم يرون شيئاً يصعب على عيونهم أن تراه . فموضوع الحكاية هو الكشف عن مطالب لا عقلانية لشخصيات لها نفوذها وشأنها وليس موضوعها النزعة المرضية للكشف عن العورة .

إنَّ حلم المبحث النباتي هو مثال ممتاز عن خيوط التداعي الكثيرة التي حيكت في هذا الحلم المقتضب . فكل من يحاول أن يفسر الأحلام بأن يتقصى التداعيات التي تظهر عند كل عنصر من عناصر الحلم لا يملك إلاَّ أن يتأثر في أعماقه بغزارة التداعيات الهائلة وبالكيفية شبه العجيبة التي تتكاثف بها لتشكل نصَّ الحلم .

على أنَّ العيب في هذا المثال هو أن فرويد يعدل عن تفسير شامل ولا يذكر إلاَّ رغبة واحدة أعرب عنها الحلم ، ألا وهي الرغبة في أن يظهر محاسنه ومزاياه عمداً بأن يشير الى انجازاته . فإذا لم نتشبث نحن بأن كل حلم هو تعبير عن تحقيق رغبة ، بل نعرف أنَّ في إمكانه أن يعبر عن شتى ضروب العمل النفسي ، توصلنا هنا أيضاً الى تفسير آخر .

وفي الحلم يتمركز رموز الزهرة المجففة . إنَّ زهرة مجففة ومحفوظة بعناية

لتشمل على عنصر التناقض . فالزهرة شيء يمثل الحيوية والجمال ، على أنها تفقد هذه الخصائص في حالة التجفيف وتصبح موضوعاً لدراسة علمية موضوعية . فتداعيات فرويد عن الحلم تشير الى هذا التناقض في الرمز . ويذكر أن زهرة بخور مريم التي كان رأى دراسة عنها في واجهة المكتبة هي زهرة زوجته المفضلة . ويلوم نفسه أنه قلّما فكر بأن يهديها زهوراً . فالدراسة عن بخور مريم توقظ فيه ، إذاً ، الاحساس بأنه أخفق في ميدان الحياة الذي يتمثل بالحب والحنان ، وتسير التداعيات الأخرى كلها في اتجاه واحد . إنها تدل على طموحه . وتذكره الدراسة (المونوغرافيا) ببحث خاص بالكوكائين ويسخطه أن اكتشافه لم يلق حق قدره من القبول والاستحسان والتقريظ . ويخطر بباله وقد خاب أمله لما أبدى مدير مدرسته القليل من الثقة فيه والاطمئنان إلى مقدرته وكفاءته ليساعد في تنظيف المعشب . وتذكره اللوحات الملونة بصدمة أخرى عاناها إحساسه بعزته وكرامته لما سخر منه زميله لأنّ إحدى اللوحات الملونة كانت خرجت في صورة رديئة للغاية .

وهكذا يبدو أن الحلم عبَّر عن صراع يحسه فرويد بوضوح وهو يحلم ، لكنه لا يبدو أنه على علم به وشعور في عالم اليقظة . ويعيب على نفسه أنه أهمل بمحض ارادته الجانب الحياتي المتمثل بالزهور وبزوجته على حساب طموحه وموقفه من الوجود موقفاً علمياً محدود التفكير . والحق انه ليظهر في الحلم تناقض عميق في شخصية فرويد كلها وفي مؤلفاته . فالموضوع الأساسي الذي استقطب اهتمامه وبحثه العلمي هو الحب والجنس . على أنه بوريتاني (متزمت) . وما نعرفه منه في المقام الأول هو نفوره الفيكتوري من الجنس واللذة الذي ارتبط بتسامح استسلامي زاهد في نقاط الضعف الانساني المتعلقة بذلك . لقد جفَّف الزهرة وجعل الجنس والحب موضوعاً لبحث وتأمل عميقين بدلاً من أن يتركهما على قيد الحياة . ويعبّر الحلم عن المفارقة الكبيرة عند فرويد ، فهو ليس «ممثلاً لمحيط فيينا اللا أخلاقي الحسي الماجن» ، كما أخطأوا كثيراً في وصفه ، بل كان ، بعكس ذلك ، متزمتاً لم يستطع أن يكتب في الجنس والحب على غاية من الصراحة إلّا لأنه كان أبعدهما إلى معشب . فهو يحاول أن يخفي هذا الصراع على حين يفسر مغزى الحلم تفسيراً خاطئاً .

وحين يحلل فرويد الأساطير والحكايات يلتزم بالمبدأ نفسه ، كما هي الحال في

تفسيره للأحلام . فالتعبير بالرموز ، على نحو ما نشاهده في الأساطير ، هو ، في رأي فرويد ، ارتداد ونكوص إلى مراحل مبكرة للتطور الانساني حيث امتلأت أعمال معينة ، من مثل الحرث واشعال النار ، بالليبيدو الجنسية . ففي الأسطورة يتمّ التعبير عن هذا الاشباع الليبيدي المبكر والمكبوت الآن وفي يومنا هذا بوساطة «اشباعات بديلة» تمكن الانسان من أن يقصر اشباع رغبات غريزية على مملكة الخيال .

وفي الأسطورة ، كما في الحلم لا يتم التعبير عن الدوافع البدائية بصورة مكشوفة ، بل يُعبر عنها تعبيراً خفياً . فهي تخصّ تلك الرغبات التي ظنَّ فرويد أنه اكتشف أنها تظهر في حياة الطفل بصورة منتظمة ، ولا سيما الرغبات المتعلقة بنكاح المحارم والفضول الجنسي والخوف من الخصاء . والمثال الذي نسوقه عن هذه الطريقة في تفسير الأسطورة هو تحليل فرويد لأحجية أبي الهول . فأبو الهول أعلن أن الطاعون الذي نزل بأهل ثيبة لن يزول ما لم يجد أحدهم الجواب الصحيح عن اللغز الذي طرحه . أما نصّ اللغز فكان : «ما هو ذلك الشيء الذي يسير في البداية على أربع ثم على اثنتين وأخيراً على ثلاث ؟» ويرى فرويد في اللغز وحل اللغز (الانسان) إخفاء لسؤال آخر يشغل خيال الطفل في المقام الأول وهو اللغز : «من أين يأتي الأطفال ؟» إنَّ الأساس الذي يقوم عليه سؤال أبي الهول هو فضول الطفل الجنسي ، فضول تثبطه سلطة أبوية وينكبت وراء الأستار تحت الاعماق . وهكذا ذهب فرويد الى أن في لغز أبي الهول تعبيراً عن الفضول الجنسي الملازم للانسان في الاعماق ، على أنه فضول مستتر كما لو أن المسألة كانت مسألة ذهنية بسيطة بعيدة البعد الكبير عن المجال الجنسي المحرم .

أما يونغ وسيلبيرير ، اثنان من ألمع تلامذة فرويد ، فسرعان ما رأيا موطن الضعف هذا في تفسير فرويد للأحلام وحاولا استدراكه . فميّز سيلبيرير بين ما يسمى تفسير الأحلام «الباطني الروحي» والتفسير «التحليلي» . وقياساً على ذلك ميّز يونغ بين التفسير «التنبؤي البعيد النظر» والتفسير «التذكري المتسم باستعادة الماضي» . ويذهبان إلى أنَّ كل حلم يمثل رغبات من الماضي ، لكنه يتجه أيضا الى الحاضر ويدل على أهداف الحالم وطموحاته . وفي هذا الصدد يقول يونغ : «النفس معبر ؛ وعلى هذا فهي موجهة بالضرورة في اتجاهين ، فهي ، من جهة ، تعطي

صورة عن انعكاس الماضي كله ، وتعطي ، من جهة اخرى ، في هذا صورة المعرفة النامية للآتي إذا ما صنعت النفس بذاتها المستقبل .»[٧] وذهب يونغ وسيلبيرير إلى أنه في الامكان فهم كل حلم بحسب معناه الباطني الروحي أو بحسب معناه التحليلي على سواء ، وكان في امكان المرء أن يتوقع بشيء من الحق أنَّ فرويد سيقبل هذا التعديل . ولكن حين سعى كلاهما إلى مصالحة مع فرويد فقد أخفقت هذه المحاولة . لقد أبى فرويد في عناد أن يقبل بأي تعديل وأصرَّ على أن التحليل الوحيد الممكن لحلم من الأحلام هو تحليل نظرية تحقيق الرغبة . وبعد أن كان حدث انقسام بين مدرسة يونغ ومدرسة فرويد سعى يونغ الى أن يحلَّ نظام تفكيره من مفهومات فرويد وأن يستبدلها بمفهومات جديدة . كما أن نظرية يونغ في الأحلام تبدلت آنذاك أيضاً . فعلى حين نزع فرويد إلى أن يعتمد في المقام الأول على التداعي الحر ويفهم الحلم بأنه تعبير عن رغبات طفولية لا عقلانية تخلّى يونغ أكثر وأكثر عن التداعي الحر وحلّل الحلم بحق تحليلاً عقائدياً يقينياً بأنه تعبير عن حكمة اللا شعور .

ويناسب هذا التفسير أصلاً فهم يونغ للاشعور . فقد رأى أنَّ «اللاشعور قادر أحياناً على أن يظهر فهماً وغائية يكونان متفوقين على الفهم الشعوري الممكن في حينه» .[٨] وإلى هنا لم اعترض على هذا القول بشيء . فهو يطابق خبرتي في تفسير الأحلام وتجربتي التي شرحتها أعلاه (في طبيعة الأحلام !) .

لكن يونغ يمضي إلى أبعد من ذلك ويزعم أنَّ هذا الواقع هو «من دون شك ظاهرة دينية أساسية» والصوت الذي يتكلم في أحلامنا ليس صوتنا وانما هو آتٍ من مصدر يتسامى بنا . ويردّ على الاعتراض «أنَّ الأفكار التي يمثلها الصوت ليست إلَّا أفكار الفرد نفسه» فيقول :«هذا محتمل . لكنني لن أسمي فكرة من الأفكار فكرتي الخاصة بي إلا إذا فكرت أنا بها ، كما اني لا أسمي المال مالي إلَّا إذا كسبته أنا كسباً مشروعاً ومعقولاً . فإذا وهبني شخص ما المال فمن المؤكد أنني لن أقول

---

٧) انظر : يونغ ، كارل غوستاف : في الفهم الانساني للعمليات المرضية ، في : الأعمال الكاملة ، المجلد الثالث ، ١٩٦٨ ، ص ٢٠٥ .

٨) انظر : يونغ ، ك . غ : علم النفس والدين ، ١٩٣٧ ، ص ٤١ .

للواهب ، ولي نعمتي : اشكرك على مالي مع أنني قد أقول فيها بعد لشخص ثالث : «هذا المال مالي» . وكذا الحال بالنسبة للصوت . إذ أنني في وضع مماثل . فالصوت يقدّم لي بعض المحتويات والمضامين مثله مثل صديق قد يفضي إليَّ بأفكاره . وإنه لبعدٌ عن النزاهة والحقيقة وانتحال أن نزعم أنَّ ما يقوله هو كان في الأصل ، وقبل كل شيء ، أفكاري أنا .»[٩] .

وفي موضع آخر يدلي برأيه في الموضوع نفسه على نحو أوضح إذ يقول زاعماً أنه لا سبيل إلى مساعدة الانسان بما يفكر هو نفسه به ، بل يمكن مساعدته بالكشف والاعلان عن حكمة أكبر وأعظم من حكمته هو .

وفي الامكان تلخيص الفرق بين تحليل يونغ وتحليلي أنا على النحو التالي : فأنا متفق معه في أننا في نومنا كثيراً ما نكون أبلغ حكمةً وأكثر عفةً واستقامةً مما نحن عليه في اليقظة . ويشرح يونغ هذه الظاهرة بالقبول بمصدر كشف يتسامى بنا على حين أعتقد أنا أنَّ الشيء الذي نفكر به في النوم هو تفكيرنا نحن وإنَّ التأثيرات التي نتعرض لها في حياة اليقظة تفعل فعلها المبلّد المستغبي في طاقاتنا الفكرية والأخلاقية في نواحٍ عدة ، كما أن فهم طريقة يونغ سيسهل استرجاع تحليله للحلم . فالحلم يرجع إلى سلسلة من الأحلام مؤلفة من أكثر من أربعمائة حلم كتبها أحد مرضى يونغ . فالحالم تلقى تربية كاثوليكية ، لكنه لم يزاول شعائر الكاثوليكية ، ولا تهمّه أيضاً المسائل الدينية . وكان من بين أحلامه الحلم التالي : «للبيوت كلها شيء أشبه بالمسرح . كواليس وزخارف مسرحية . ويُلفظ اسم برنارد شو . ولا بدَّ أن تقع أحداث المسرحية في مستقبل بعيد . وكُتب فوق أحد الكواليس بالانجليزية والالمانية : «هذه هي الكنيسة الكاثوليكية العامة . إنها كنيسة الرب . فكل من يشعر بأنه أداة الرب له أن يدخل» .

وطبع تحت هذا بالحروف الصغيرة : أسس الكنيسة عيسى وبولص ، كما لو أن المرء أراد أن يطري على قِدم شركة من الشركات . وأقول لصديقي : هيّا بنا ، لا بد لنا من أن نشاهد هذا» . ويجيب : لا أفهم لماذا ينبغي على الكثيرين من الناس أن يكونوا معاً إذا كانت لديهم مشاعر دينية .» وعندئذ أرد قائلاً : «بما أنك

---

٩) المرجع السابق ، ص ٤١ وما بعد .

بروتستانتي فلن تفهم هذا أبداً .» وتوافقني احدى السيدات على رأيي . ثم أرى ضرباً من الاعلانات على جدار الكنيسة كتب فيه :

«أيها الجنود ! حين تحسّون أنكم بين يدي الرب فتجنبوا أن تخاطبوه مباشرة ، فلا سبيل إلى بلوغ الرب بالكلمات . نوصيكم بشدّة ألّا تتناقشوا في صفات الرب أو تعقدوا المناظرات حول صفات الرب . إنه لغير مُجدٍ إذ أن الشيء القيّم والمهم يجلّ عن الوصف . التوقيع : البابا . . (الاسم لا يُقرأ)» وندخل الكنيسة . فهي من الداخل تشبه مسجداً ، لا سيما آا صوفيا . لا مقاعد ، وللمكان تأثيره الجميل ، ولا صور ، حكم وأقوال مأثورة مؤطرة تقوم مقام الزخارف على الجدار (مثل الآيات القرآنية هناك .) وتقول احدى هذه الحكم : «لا تتملقوا وليَّ نعمتكم» . أما المرأة التي كانت وافقتني ، فيما مضى ، على رأيي فتنفجر بالدموع وتصيح : «لم تعد هنالك بقية باقية .» وأجيب : إنّ هذا في نظري لعين الصواب . على أنها تختفي . واقف أول ما أقف وكأنّ عموداً انتصب أمامي فلا أستطيع أن أرى شيئاً . ثمّ أغيّر مكاني وأرى ناساً كثيرين أمامي . ولست واحداً منهم وأقف وحيداً . على أنهم ظهروا أمامي وأرى وجوههم . ويقولون كلهم بنغمة واحدة وصوت واحد : «نعترف بأننا بين يدي الرب . وملكوت السماء في داخلنا .» ويتردد الكلام ثلاث مرات بصوت مهيب جليل . ثم تعزف الأرغن وتنشد الجوقة إحدى معزوفات باخ . ويحذف النص الأصلي . فيكون تارة ضرباً من تلوين الصوت ، ليس غير ، ثم تتكرر بعد ذلك عبارة : «كل ما سواه ورق» (وهذا يعني : لا يؤثر فيَّ تأثيراً منشّطاً) . وبعد أن تلاشي صوت الجوقة بدأ ما يسمى بطريقة طلابية الجانب المريح من الاجتماع . ليس هناك إلّا ناسٌ مرحون متزنون . ويروح الناس ويجيئون ويتحادثون ويتبادلون التحية ويتناولون النبيذ (من أحد المعاهد اللاهوتية الاسقفية .) والمرطبات . ويتمنى المرء للكنيسة نجاحاً وازدهاراً مفعمين بالفرح والسرور ، وللتعبير عن السرور بازدياد اعضاء الاتحاد ينقل مكبر الصوت أغنية راقصة ذات لازمة تتكرر : «كارل مشارك الآن أيضاً» . ويشرح لي أحد الرهبان : «هذه المسرات الثانوية مسموح بها رسمياً . وعلينا أن نجاري الوسائل والأساليب الامريكية قليلاً . ففي مؤسسة شعبية كبيرة ، كما هي الحال عندنا ، لا محيد عن ذلك . ونتميز من الكنائس الامريكية تميزاً جوهرياً باتجاه معادٍ للزهد

معاداة واضحة .» ثم استيقظ ولديَّ الشعور بالارتياح .»[10] .

وعندما يحاول يونغ أن يفسر هذا الحلم يشير إلى أنه يعارض فرويد حين يصف الحلم بأنه ليس إلّا واجهة يختفي وراءها شيء ما اختفاء متعمداً . ويقول يونغ :«لا مجال للشك في أنّ عصابيين يخفون أشياء مزعجة كريهة . والأرجح أنهم يفعلون ذلك على نحو ما يفعله أيضاً ناسٌ أسوياء . على أنَّ هناك سؤالا آخر وهو هل لنا أن نطبق مثل هذه المقولات على ظاهرة عادية جداً ومنتشرة في كل أنحاء العالم هي ظاهرة الحلم . وأشك في أنَّ لنا الحق أن نفترض أنَّ حلماً ما يختلف في الظاهر عما هو عليه في الحقيقة . والأحرى بي أن استشهد بمرجع ثقة يهودي وهو التلمود الذي يقول إن الحلم هو تفسيره الخاص به . وباختصار اني (لأقبل بالحلم على ما هو عليه .) فالحلم هو مادة معقدة وصعبة على نحو لا أجرؤ على أن أفترض أية افتراضات حول نزعة تضليل يحتمل أنها ملازمة له . والحلم هو حادثة طبيعية ، وليس هنالك من سبب وجيه للافتراض بأنه اختراع ذكي مخصص ومعيّن لأن يضللنا . ويحصل الحلم حين ينحل الشعور والارادة في معظمها . ويبدو أن الشيء الذي يحدث عند الناس الذين ليسوا بعصابيين|هو نتاج الطبيعة . وفضلاً عن ذلك لا نعرف إلّا القليل عن علم نفس عملية الحلم بحيث ينبغي علينا أن نكون أكثر من حذرين حين ندخل على تأويله عناصر هي غريبة عن الحلم نفسه . ولهذه الأسباب كلها اعتقد أن حلمنا يتحدث عن الدين . ولما كان الحلم مترابطاً ومحكم الصياغة فإنه يحدث انطباع منطقٍ معين وغائية معينة ، وهذا يعني أنه يقوم على جملة الدوافع القوية التي تجد تعبيرها المباشر في مضمون الحلم»[11]فكيف يحلل يونغ هذا الحلم ؟ يلاحظ أن الكنيسة الكاثوليكية تتزاوج مع نظرة وثنية غر لا يمكن التوفيق بينها وبين موقف هو في جوهره مسيحي مع أنها ، أي الكنيسة تتمتع بسمعة عامة . وفي حلم مريضه بحذافيره لا وجود لمعارضة ضد الشعور الجماعي أو ضد الدين العادي والوثنية ، بصرف النظر عن الصديق البروتستانتي الذي سرعان ما أكره على الصمت . فالمرأة المجهولة في الحلم يؤولها بأنها تمثل

---

١٠) المرجع السابق ، ص ٢٥ - ٢٧ .

١١) المرجع نفسه ، ص ٢٧ وما بعد .

الروح أو النفس التي يرى فيها تصويراً نفسياً لاقليّة الموروثات الانثوية في الجسد الذكري . فالروح أو النفس تمثل عادة ، اللا شعور وتمنحه طابعه الكريه بخاصة أو طابعه المحيّر المربك .

«إنَّ رد فعل النفس السلبي في حلم الكنيسة يدل على أنَّ الجانب الأنثوي في الحالم ، أي لا شعوره ، غير موافق على موقفه (..) .

ونعلم ، إذاً ، من الحلم أنَّ وظيفة الحالم اللا شعورية تحدث مصالحة سطحية بعض الشيء بين الكاثوليكية «والاستمتاع الوثني المرح بمباهج الحياة». فنتاج اللاشعور لا يعبر عن وجهة نظر ثابتة أو رأي نهائي ، وانما يطابق قبل كل شيء العرض المسرحي لعملية تأمل . وربما كان في الامكان صياغة هذا على النحو التالي :«ماذا عن قضيتك الدينية ؟ فأنت كاثوليكي ، أليس كذلك ؟ أليس هذا بكافٍ ؟ أما الزهد والتنسّك فشيء جميل مقبول ، لكنَّ الكنيسة يجب أن تجاري أيضا بعض الشيء ، دار العرض والاذاعة والجاز وغيرها ـ وما وجه الإنكار في شيء من النبيذ الكنسي أيضاً والصداقات ؟» ولكن لأمر ما يبدو أن هذه السيدة المزعجة الغامضة المعروفة من أحلام كثيرة سابقة قد أصيبت بخيبة أمل عميقة وتنصرف .»[١٢] ويقول يونغ عن مريضه إنه جاء إليه بسبب «خبرة مهمة جداً» .

«لقد كان على غاية من المنطقية والعقل وكان خبر أنَّ عقليته وفلسفته خذلتاه بالنظر إلى عصابه وقواه المثبطة . ولم ير في مذهبه في الحياة أيَّ شيء يمكن أن يساعده في ضبط نفس كافٍ وشافٍ . وعلى هذا كان أقرب ما يكون الى وضع رجل خذلته اقتناعاته وأفكاره التي حملها حتى ذلك الحين . فالحالة ليست أبدا حالة غير عادية بأن انساناً ما يعود في مثل هذه الظروف الى دين طفولته أملاً في أن يجد هناك شيئاً يمد له يد العون والمساعدة . ولم يكن في أثناء ذلك محاولة مقصودة أو قرار معروف لاحياء معتقدات دينية قديمة وبعثها من جديد . فهو حلم بذلك ، ليس غير . وهذا يعني أن لا شعوره أوجد اثباتاً من هذا القبيل على دينه . ويخيّل كأن الروح والجسد ، الخصمين الابديين في الشعور المسيحي ، تصالحا معاً في هيئة إضعاف غريبة لطبيعتيهما المتناقضتين . فالروحانية والعلمانية الدنيوية يلتقيان معاً

١٢) المرجع نفسه ، ص ٣٢ وما بعد .

في هدوء غير متوقع . فالتأثير هو إلى حد ما غريب ومضحك . وتبدو رزانة العقل الصارمة منسوفة بوساطة ابتهاج يكاد يعود إلى العصور القديمة، كما تبدو معطرة بالنبيذ والورود . وعلى أية حال فالحلم يصف جواً دينياً ودنيوياً يخمد حدّة الصراع الأخلاقي ويودع كل الآلام النفسية والمتاعب والهموم في طيات النسيان .»[١٣] .

ومن الحلم ووصف الحلم الذي قدمه يونغ لا يبدو لي هذا التفسير مسوّغاً . فتحليله يبقى سطحياً ولا يراعي القوى النفسية الأساسية التي انتجت هذا الحلم . وإني لأرى أن الحلم هو كل شيء آخر إلاّ أن يكون مصالحة سطحية بين الدنيا والدين ، بل هو اتهام فاضح قاسٍ ضد الدين ، وهو في الوقت نفسه رغبة جادة في استقلال فكري .

وتوصف الكنيسة بأنها مسرح وشركة وجيش . والاسلام الذي تمثله آياصوفيا يظفر بالكثير عند المقارنة بالكنيسة المسيحية لأنه ليس له صور ، بل حكم مؤطرة من مثل «لا تتملق مَنْ أحسن إليك» وطبيعي أن هذه الجملة تصوّر نقد الحالم لعادة الكنيسة بأنها تتملق الى الرب وتتزلفه . وفضلاً عن ذلك يسخر الحالم من الكنيسة على حين يحلم بأن القداس أو الصلاة قد انحطت الى اجتماع بهيج تعاطى فيه الناس الشراب وعزف فيه لحن الجاز للازمة متكررة هي : تشارلز يشارك الآن أيضاً في اللهو (والظاهر أنه غاب عن نظر يونغ أن البيت الشعري : تشارلز مشارك الآن أيضا في اللهو» له علاقته باسمه (كارل) وأن هذا الدليل الساخر على المخلل يطابق تمام المطابقةذهن التمرد ضد السلطةالتي تتخلل الحكم كله) . ويؤكد الحالم بوضوح وصراحة على هذه النقطة على حين يترك الراهب يعترف بأن الكنيسة يجب أن تطبق «طرقاً امريكية» لكي تكون جذابة في نظر سواد الشعب .

وليس في الامكان فهم دور المرأة في هذا الحلم إلاّ إذا روعيت نزعة الحا التمردية المعادية للسلطوية والاستبداد . وعلى الرغم من لا مبالاة الحالم إزاء الدين فإنه لا يزال مرتبطاً به على مستوى نفسي عميق ، أو بعبارة أدق ، لا يزال متعلقاً بالنموذج السلطوي الاستبدادي للدين الذي تهيّأ له في طفولته . فعصابه محاولة لأن يتحرر من ارتباطه بالسلطات اللاعقلانية ، على أنَّ هذا لم يتأتَّ له حتى الآن .

---

١٣) المرجع نفسه ، ص ٣٣

والنتيجة هي أنه طوّر نماذج سلوك عصابية . وفي وقت الحلم كانت عنده محاولة لأن يثور ويحتج أشد الاحتجاج وأن يتحرر من سيادة أصحاب السلطة والنفوذ . إنها امارة نفسية سائدة تظهر في دنيا أحلامه . والمرأة التي ربما رمزت الى أمه تدرك أنه حين يرفض المبدأ السلطوي بأن يتملق الى شخص الأب (ولي النعمة) يصبح راشداً وأنها ستفقده أيضاً . وعلى هذا تبكي وتقول : «ما من بقية باقية هناك !» والحق أنَّ الحالم مهتم بالدين ، على أنه لا يتوصل ، كما يظن يونغ ، إلى مصالحة سطحية ، بل يتوصل إلى رأي واضح جداً في الفرق بين دين ذي نزعة سلطوية استبدادية ودين ذي نزعة انسانية . فالدين ذو النزعة السلطوية تكون فيه الطاعة من أمهات الفضائل ويكون الانسان نفسه مستضعفاً ومغلوباً على أمره بأن ينسب كل قوة وسلطان إلى الله ، هو نوع من الدين الذي يناهضه . وهو نفس النضال الذي يتخلل أيضاً حياته الشخصية ، إنه التمرد على كل نوع من أنواع السيادة السلطوية المستبدة . فما يطمح إليه هو دين انساني النزعة يؤكد فيه على قوة الانسان وطيبته وحيث لا تكون الفضيلة مرادفة للطاعة ، وانما تكون مرادفة لتحقيق القدرات والطاقات الانسانية الخاصة بالانسان[١٤] . ويظهر هذا جلياً من ترتيب صور الحلم . فهو يسمع عامة الناس يتكلمون كلاماً على نحو «مهيب جداً» ويقولون : «ملكوت السماء في داخلنا . . وما عدا هذا فهو ورق .» ولقد سخر الحالم من الكنيسة بأنها مؤسسة كبيرة وشركة أو جيش ، واتهمها بأنها تريد أن تنال حظوة عن طريق التزلّف والتملق للرب . ويقول الآن إنَّ الرب يعيش فينا ، ويصرف النظر عن هذه الخبرة بأنَّ «كل ما سواه ورق» لأنَّ هذا لا يؤثر فيه تأثيراً حيوياً .

وإننا لنرى الرأي نفسه أيضاً في الحلم الثاني للمريض ذاته ، كما أن يونغ يتناوله أيضاً في «علم نفس الدين» :

«ادخل بيتاً رهيباً ومهيباً بخاصة ، وهو «بيت تجميع شتات الأفكار .» وفي أبعد مكان في الخلف شموعٌ كثيرة مرتبة بشكل خاص بأربعة أطراف تتدبب إلى

---

١٤) لقد ناقش إ . فروم الدين السلطوي والانساني في مؤلفاته الكاملة . المجلد السادس ، «التحليل النفسي والدين» ، ١٩٥٠ .

الأعلى . وأمام باب البيت يقف شيخ . ويدخل ناس لا ينبسون ببنت شفة ويقفون بلا حراك لكي يستجمعوا أفكارهم . ويقول الرجل عند الباب عن زوار البيت : «أول ما يخرجون ثانية يكونون اطهاراً» .

وأدخل أنا البيت وأستطيع أن أركز كل التركيز ، وفجأة يتكلم صوت : «ما تفعله خطير . فالدين ليس الضريبة التي ينبغي أن تسددها لكي تستطيع أن تستغني عن صورة المرأة ، إذ أنَّ الصورة لا غنى عنها ؛ الويل للذين يتخذون الدين بديلاً من جانب آخر من جوانب الحياة الروحية . فهم على ضلال وسيلعنون . لا بديل من الدين ، على انه ينبغي أن يضاف إلى العملية الأخرى للروح على أنه آخر انجاز وإكمال . وعليك أن توجد دينك من وفرة الحياة وغناها ، عندئذ فقط تكون مغبوطاً .» وعندما علا الصوت بآخر جملة على نحو مميّز سمعت موسيقا بعيدة ، كانت إيقاعات بسيطة خفيفة على الأرغن . شيء في هذا يذكر بفكرة سحر النار لفاغنر. وحين أخرج من البيت أرى جبلاً يحترق واحسّ أنَّ ناراً لا يمكن اطفاؤها هي نار مقدسة»[١٥] .

إن الحالم في هذا الحلم لم يعد يهاجم الكنيسة على نحو مضحك كما هي الحال في الحلم السابق . فهو يقوم بتحقيق عميق واضح عن الدين ذي النزعة الانسانية بخلاف الدين الاستبدادي السلطوي ، ويؤكد في أثناء ذلك توكيداً خاصاً على فكرة من الافكار وهي أنه ليس للدين أن يحاول أن يقمع الحب ويكبت الجنس (صورة المرأة) ولا يجوز له أن يكون بديلاً من هذا الجانب من الحياة . فالدين يجب أن يولد من «وفرة الحياة وغناها» لا من الكبت والقمع . والاثبات الأخير بأنّ «ناراً لا يمكن إخمادها هي نار مقدسة» يعود ، كما يتضح من مجمل سياق الحلم ، على ما تمّ التعبير عنه «بصورة المرأة» ، أي على نار الحب والجنس .

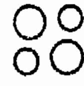
وهذا الحلم ممتع وشيّق كونه مثالاً عن نوع الأحلام التي تُعربُ منها النفس عن افكار واحكام بوضوح وجمال لا يستطيع الحالم أن يتوصل اليها في حياة اليقظة . على أنني سقته في الأساس لكي أبيّن نواقص تحليل يونغ الاعتقادي المتحيّز المحدود . «فالنار التي لا سبيل إلى إخمادها» ترمز في نظره الى الله ، «وصورة

---

١٥) انظر : يونغ ، ك . غ : علم النفس والدين ، ص ٣٧ وما بعد .

المرأة» و«الجانب الآخر من الحياة» يمثلان اللا شعور . وإنه لصحيح كل الصحة أنَّ النار كثيراً ما تكون رمزاً لله ، لكنها كثيراً ما تكون رمزاً للحب وللشهوة الجنسية . وأغلب الظن أن فرويد ما كان فسّر الحلم مثل هذا التفسير بحيث تظهر فيه فرضية فلسفية ، وإنما كان رأى فيه تحقيق رغبات الحالم الطفولية المتعلقة بنكاح المحارم . وبطريقة اعتقادية جداً يصرف يونغ النظر كلياً عن هذا الجانب ولا يفكر إلاَّ بالرموز الدينية .

ويبدو لي أن الحقيقة ليست في أي اتجاه من هذين الاتجاهين كليهما . فالحالم يشغل نفسه بقضية دينية وفلسفية ، لكنه لا يفصل بين اهتمامه الفلسفي وتحرّقه الى الحب . وعلى العكس تماماً فهو يؤكد انه لا يجوز للمرء أن يفصل بينهما وينتقد الكنيسة على فهمها للخطيئة .



الفصل الخامس

تاريخ تفسير الأحلام

قدّمنا إلى الآن ثلاث بدايات لتفسير الاحلام . أولاها تفسير فرويد بأنّ الأحلام كلها تعبيرٌ عن طبيعة الإنسان اللا عقلانية واللا اجتماعية . والثانية تفسير يونغ بأنّ الأحلام كواشفُ حكمة لا شعورية متعالية متسامية . والثالثة هي التفسير الذي يذهب إلى انّ الأحلام تعبّر عن كل ضروب الفعالية النفسية وأنّ دوافعنا ورغباتنا اللا عقلانية تتجلى فيها ، كما يتجلى فيها عقلنا وأخلاقيتنا وأسوأ وأفضل ما فينا على سواء . والنظريات الثلاث هذه ليست حديثة العهد إطلاقاً . وإنّ نظرة شاملة موجزة في تاريخ تفسير الأحلام لتبيّن أن الخلاف المعاصر حول معنى الأحلام واهميتها يشتمل على الجدل الذي دام ثلاثة آلاف سنة .

أ ـ التفسير اللا نفسي المبكر للأحلام :

يبدأ تاريخ تفسير الأحلام بالمحاولات الرامية إلى فهم معنى الأحلام لا على أنها ظاهرة نفسانية (سيكولوجية) ، بل على أنها تجارب واقعية للنفس التي تحللت من الجسد أو على أنها صوت أرواح أو أشباح . وفي رأي الاشانتيس أن رجلاً يحلم بأنه جامع امرأة رجل آخر يجب أن يعاقب بالغرامة الاعتيادية على الخيانة الزوجية لأن روحه وروحها اتصلتا معا اتصالا جنسياً[١٦] . ويعتقد كيواي بابوانز من غينيا الجديدة انه إذا نجح أحد السحرة في أن يأسر في حالة الحلم روح أحد الأشخاص

---

١٦) انظر : راتري ، ر . س . Rattray : الدين والفن في أشانتي . في : ر . وود ، عالم الاحلام ، مختارات ، نيويورك ١٩٤٧ .

فلن يفيق النائم من نومه أبداً[١٧]. وأن صورة أخرى للايمان بأنّ الحوادث في الحلم هي ذات طبيعة واقعية ، هي التصور بأنّ أرواح الموتى تظهر في الحلم لكي تنذرنا وتحذّرنا أو لتنقل إلينا رسائل من نوع آخر . وعند هنود الموهاف واليوما ، مثلاً ، يكون ظهور الأقرباء الذين ماتوا منذ عهد غير بعيد مخيفاً في الحلم بصورة خاصة .

ثم إنّ لدى شعوب بدائية أخرى تصوراً عن مدلول الأحلام الذي يقترب من التفسير الذي يطالعنا في حضارات الشرق الكبرى . فالحلم يفسّر هنا قياساً على نظام أقيسة أخلاقي وديني محدد . فلكل رمز معناه المحدّد . وينحصر التحليل في تفسير هذا المعنى المحدد للرموز . ويعطي ج . س . لينكولن في بحثه عن هنود نافاهو مثالاً على هذا الضرب من التفسيرات : «الحلم : حلمت ببيضة كبيرة جداً من مادة صلبة كالحجر . فتحتها فطار منها نسرٌ صغير ، لكنه مكتمل النمو . حدث هذا في داخل البيت وطار النسر جيئة وذهاباً وحاول أن يخرج ، لكنه لم يستطع الوصول الى ذلك لأنّ النافذة كانت مغلقة .

التفسير : ينتمي النسر إلى فصيلة طيور الأرواح العليا التي هي احدى فصائل الأرواح الثلاث المتخذة ، أرواح الرياح والبرق والطيور التي تسكن كلها في أعالي جبل سان فرنسيسكو . فإذا أهينت هذه الأرواح استطاعت أن تسبب خراباً ودماراً كبيرين ، كما أنها تستطيع أن تكون أيضاً لطيفة رقيقة الجانب . فالنسر لا يستطيع الطيران إلى الخارج لأنك لا بدّ أن تكون أهنت روح الطير ، وربما لأنك دست على عشّه أو ربما كان أبوك أهانه أيضاً .» .

ولا يقوم التفسير المشرقي القديم للحلم أيضاً على نظرية أحلام سيكولوجية ، بل يقوم على الافتراض والظن بأنّ الحلم يمثل رسالة أرسلتها القوى الالهية الى البشر . وأشهر الأمثلة على هذا النوع من تفسير الأحلام غير النفساني هي أحلام فرعون كما يرويها الكتاب المقدس . فحين رأى فرعون رؤيا أقلقته (استدعى عرّافي مصر وكهنتها وحكماءها . وقصّ فرعون عليهم رؤياه . ولكن ما من أحد استطاع أن يؤولها له» (سفر التكوين ٢١ ، ١٦) . وجاءت الرؤيا على النحو التالي :

---

١٧) انظر : لاندمان ، ج : البابوانز الكيوائيون في غينيا الجديدة : في ر . وود عالم الأحلام ، مختارات ، نيويورك ، ١٩٤٧

«وقفت في رؤياي على شاطىء النيل . وطلعت من النيل سبع بقرات سمان حسنة المنظر وارتعت في عشب الحلفاء . وطلعت وراءها سبع أُخر عجاف شنيعة المنظر . ولم أر في أرض مصر كلها بقراً في مثل هذا القبح . وأكلت البقرات العجاف القبيحة المنظر السبع السمان (. . .) ثم استيقظت . ورأيت في حلمي أيضاً أن سبع سنبلات ممتلئة وحسنة طلعت من ساق واحدة . ونبتت وراءها سبع أخر رقيقة هزيلة ملفوحة بالريح الشرقية وتبتلع السنبلات الهزيلة ، السنبلات السبع الجميلات . وقصصت رؤياي هذه على العرّافين ، ولكن ما من أحد منهم استطاع أن ينبئني بالتأويل» (سفر التكوين ٤١ ، ١٧ ـ ٢٤) .أما تأويل يوسف فهو :«أنّ البقرات السبع البهية المنظر هي سبع سنين والسنبلات السبع الجميلات هي سبع سنين ، وإنّه الحلم الواحد . أمّا البقرات السبع العجاف القبيحات التي طلعت وراءها فهي سبع سنين والسنبلات السبع الفارغات اليابسات هي سبع سنين مجاعة . وهذا ما عنيته لما قلت لفرعون إن الله جعل فرعون يرى ما نوى . وستأتي سبع سنين ويكون في مصر كلها خيرٌ فيض . أمّا بعدها فستأتي سبع سنين مجاعة : عندها سيكون الغيض كله في مصر نسيا منسيًا ، وسينهك الجوع البلاد . ثم لن يفطن أحد أبداً إلى الفيض بسبب الجوع الذي سيأتي بعد ذلك . إذ أن الجوع سيكون شديداً جداً . وبما أن فرعون حلم الحلم نفسه مرتين فهذا يعني : أن الشيء مؤكد عند الله ، وأن الله سينجزه في القريب العاجل . فليفتش فرعون ، إذاً ، عن رجل حكيم فطن ويؤمره على مصر . وفرعون قادر على التصرف : فهو يولي وكلاء على البلاد ويفرض على مصر ضريبة الخمس في سنوات الفيض السبع . وعلى المفوضين الوكلاء أن يجمعوا كل حبوب السنوات الطيبة القادمة وأن يختزنوا الحب بتوجيهات من فرعون وعليهم أن يؤمنوا الحنطة في المدن . وينبغي أن يقوم الريف مقام الاحتياطي لسنوات المجاعة السبع التي ستجتاح أرض مصر ، وفي مثل هذه الأحوال لن تقضي المجاعة على البلاد» (سفر التكوين ٤١ ، ٢٦ ، ٣٦) . وتفيدرواية الكتاب المقدس أن الحلم يعدّ رؤيا موحاة من الله الى الناس . على أنّ المرء يستطيع أن ينظر الى حلم فرعون من وجهة نظر سيكولوجية أيضاً . وفي الامكان معرفة بعض العوامل التي يمكن أن تؤثر في خصب التربة في الأربع عشرة سنة القادمة . على أن هذه المعرفة الحدسية لم تكن سهلة المنال عليه إلاّ في النوم .

ويمكن أن تتفاوت الآراء وتختلف فيما اذا كان ينبغي فهم الحلم بشكل أو بآخر . ومهما يكن فالرواية القديمة تبيّن ، كما في روايات أخرى كثيرة من المصادر المشرقية القديمة ، أن المرء لم يَرَ في الحلم شيئاً كان ذا منشأ انساني ، بل رأى في الحلم رسالة إلهية .

واعتقد المرء ، لا سيما في الهند واليونان ، أنَّ للأحلام وظيفة أخرى هي التنبؤ بأمراض . واعتقد أن رموزاً معينة تشير إلى بعض الاعراف الجسدية . على أنَّ هنا أيضاً ، كما في حلم فرعون التنبؤي ، امكانية تفسير سيكولوجي . ولنا أن نفرض أن لدينا في النوم قوة إدراك حسي لتغيرات جسدية محددة أدقّ بكثير مما هي عليه في اليقظة وأننا ننقل مثل هذه الادراكات الحسية إلى صورة الحلم بحيث يمكنها أن تفيدنا في أن نشخص امراضاً ونتنبأ بعمليات جسدية معينة . وبقدر ما يصحّ هذا لا بدّ من أن يتأكد المرء من طريق دراسة شاملة لأحلام يحملها أشخاص معيّنون قبل أن يظهر فيهم مرض من الأمراض .

ب ـ التفسير النفسي (السيكولوجي) للأحلام :

خلافاً لتفسير الأحلام اللانفسي الذي يرى الحلم تعبيراً عن حوادث واقعية أو رسالة موحاة من قوى خارج الانسان يحاول التفسير النفسي أن يفهم الحلم بأنه تعبير عن نفس الحالم . والطريقتان كلتاهما لا تنفصلان أبداً . بل على العكس تماماً ، إننا لنجد ، حتى العصر الوسيط ، كثيراً من الكتاب الذين جمعوا بين الطريقتين وميّزوا بين أحلام يمكن تفسيرها بأنها ظاهرات دينية وأحلام يجب أن يفهمها المرء فهماً نفسانياً (سيكولوجياً) . ويعطينا كاتب هندي عاش في بداية التاريخ الميلادي تقريباً مثالاً على هذه الطريقة : «يوجد ستة أصناف من البشر الذين يرون أحلاماً ـ الانسان الدموي المندفع والغضوب والمتبلّد والانسان الذي يحلم بتأثير إله ويفعل هذا بتأثير عاداته الخاصة ثم ذلك الصنف من الناس الذي يحلم ويكون حلمه نوعاً من التنبؤ . والصنف الأخير ، أيها الملك ، هو الصحيح ، وما عدا ذلك فهو باطل»[١٨] .

---

١٨) ورد هذا في «أسئلة الملك ميليندا» ، لكاتب مجهول . وقد وضع الكتاب في شمال الهند في

وخلافاً للتفسير غير النفساني الذي يؤول الحلم بحيث يفهم المرء رموزاً معينة من سياقها الديني فإنّ مصدرنا الهندي ينتهج طريقة تفسير الأحلام تفسيراً نفسانياً : فالمصدر يربط الحلم بشخصية الحالم . ومقولاته الأولى الثلاث هي في الحقيقة مقولة واحدة ، ليس غير ، ذلك لأنها كلها تتعلق بمزاج الحالم وبصفاته النفسية التي تقوم على طبيعة جسدية . ويشير المؤلف الى علاقة مهمة بين المزاج ومضمون الحلم الذي قلّما اهتممنا به في تفسيرنا الحالي للحلم مع أنّ المسألة تتعلق بوجه مهم من أوجه تفسير الحلم كما ستبيّن بلا شك ، أبحاث أخرى قادمة . فالأحلام المرسلة من إله ليست في نظره إلّا نمطاً من الأنماط الأخرى للاحلام . ثمّ يميز بين أحلام متأثرة بعادات الحالم وأحلام تنطوي على تنبؤ . وأغلب الظن أنه يعني بالعادات الرغبات والدوافع السائدة والمهيمنة في بنية طبع الحالم . ويبدو كأنه يدرج في عداد الأحلام التكهنية تلك التي هي تعبير عن رؤية أو معرفة أعلى في أثناء النوم .

وإننا لنجد عند هوميروس أحد أقدم الأمثلة على الرأي القائل إنّ الأحلام يمكن أن تكون تعبيراً عن قوانا الأكثر سخافة ولا معقولية . ويقول هوميروس : إنّ هنالك بابين مختلفين للأحلام ، باباً من قرن للحقيقة وباباً من عاج للخطأ والوهم . (وبهذا يلمع إلى شفافية القرن وعدم شفوف العاج) . ويكاد يصعب التعبير عن هاتين الامكانيتين لعمل الحلم على نحو واضح وبإيجاز أكبر .

وكما يروي افلاطون في «فيدون» فقد ذهب سقراط إلى أنّ الأحلام تمثل صوت الضمير ، وإنه لذو أهمية كبرى أنْ نقيم وزناً لهذا الصوت وأنْ نستجيب له . وقبيل وفاته يعبّر في حديث له عن وجهة النظر هذه بوضوح شديد :

«وعلى هذا شرع كيبيس يتكلم فقال : وحق زيوس ، يا سقراط ، إنه لجميل أن تذكرني بذلك . فطبقاً لقصائدك التي نظمتها بأن صُغت حكايات إيثوب الخرافية شعراً ، وطبقاً لنشيد أبولو سألني آخرون أيضاً ، كما سألني أوينوس منذ عهد غير بعيد ، كيف تنظم الأشعار منذ وجودك هنا ، ذلك لأنه لم يسبق لك أن فعلت هذا . أيهمك أن أعرف كيف أردّ على أوينوس حين يعاود سؤالي ، وأعرف حق المعرفة أنه سيسأل ؛ ولذلك قلْ لي ما ينبغي أن أقوله له ـ وردّ قائلاً : عليك ،

بداية التأريخ الميلادي (المسيحي) ، ونقلنا هذا عن ر . وود ، ١٩٤٧ (المؤلف) .

إذاً ، يا كيبيس ، أن تقول له الحقيقة أنني لا أفعل هذا لكي أقاومه وأتصدى لقصائده ، إذ أنني عرفت أنَّ هذا ليس سهلاً ، بل كي أحاول أن أتوصل إلى ما يعنيه حلمٌ معين وأحْفظ نفسي من الاضرار حين يكون هذا هو العمل الفني الذي يوصيني به . والحق أنني كثيراً ما رأيت الحلم نفسه في حياتي المنصرمة ، فتارة يظهر في هذا الشكل وتارة في ذلك الشكل ، وكان يسرّ إليَّ دائماً بالشيء نفسه فيقول : يا سقراط ، ابدع ومارس الفن ! وفكرت في بادىء الأمر أن الحلم يريد أن يشجعني ويدفعني الى الشيء الذي قمت به من قبل . وكما اعتاد المرء أن يحث المتسابقين فإنَّ الحلم شجعني أيضاً على ما قمت به سابقاً ، على أن أزاول الفن لأن الفلسفة أعظم الفنون وأفضلها ولأنني كنت أمارس هذا الفن . على أنني الان ومنذ أن صَدر الحكم وأخرَّ عيد الاله موتي فكرت بأنه ينبغي عليَّ ، إذا ما أمرني الحلم ، أن أشغل نفسي بهذا الفن الشعبي والاّ أعصي ، بل أقوم بذلك . إذ أنه لمن المؤكد أنني لن أفارق الحياة حتى أكون أرضيت ضميري ونظمت قصائد استجابة للحلم . وعلى هذا نظمت قصيدة في الاله الذي كان عيد الاضحى الحالي مخصصاً ومعيناً له ويخطر ببالي بعد الاله أن على الشاعر ، إذا ما أراد أن يكون شاعراً من هذا القبيل ، أن ينظم الحكايات الخرافية ولا يجوز له أن يسترسل في نثر جاف خالٍ من الخيال ، ولما أنني بالذات لا أحذق ولا أتقن الحكايات الخرافية فإن أفضل حكايات ايثوب التي عرفتها والمحت بها جاءت شعراً . إذاً ، هذا ما ستقوله لاوينوس يا كيبيس ، ويلغه تحية الوداع ، وإذا ما كان بصيراً عاقلاً فعليه أن يلحق بي بأسرع ما يمكن . على أنني ، كما يبدو ، سأمضي هذا اليوم ، إذ أن الاثينيين يريدون ذلك»[١٩] .

وعلى الضد من رأي سقراط ومفهومه تكاد تكون نظرية افلاطون تنبؤاً حرفيا لنظرية فرويد في الأحلام :

«[سقراط]» (. . .) إنَّ بعض الملذات الحسية التي يمكن الاستغناء عنها والدوافع ما هو إجرامي . ويخشى أن تظهر عند كل انسان . لكنّ القوانين والدوافع النبيلة ، يساندها العقل ، تردع هذه الدوافع الاجرامية وبذلك تزول عند بعض الناس كلياً

١٩) افلاطون : فايدون ، ١٩٣١ ، ص ٧٢ وما بعد .

أو أنها تبقى ضئيلة في عددها وقوتها ، وتكون عند الآخرين أكبر عدداً وقوة» .

[أداימانتوس :]

«أية دوافع تقصد ؟»

[سقراط :]

«اعني الدوافع التي تظهر في النوم . فأحد شقّي النفس ، الشق الهادىء العاقل ، سيد الشق الآخر ، يهدأ ويسكن . أما الشقّ الآخر الحيواني الجموح الذي يقوى ويشتد بالأكل والشرب ، فينشط ويتحرك (. .) وأنت تعرف أنه قادرٌ على كل شيء عندئذ . فلقد فقد كل حياء وخجل وفقد كل وعي ورشد . فهو لا يتورع عن أن يعانق أمه في الأفكار ، وكل انسان آخر وكل إله وكل حيوان أيضاً . ويرتكب كل جرم ويستمتع بكل طعام تصبو إليه نفسه . وباختصار ، ليس هنالك من حماقة أو قلّة حيا ، إلّا ويرتكبها .»

[أداימانتوس] : «هذا صحيح كل الصحة»

[سقراط :] «ويختلف الأمر حين يرقد شخص واعٍ سليم النفس بعد أن نشط عقله وقوّاه بأحاديث مفيدة وتأملات . لقد ثاب إلى نفسه ولم يترك دوافعه من غير اشباع ولم يغدق عليها الغذاء الكثير . وعليها الآن أن تهدأ وتركن وألّا تكون عبئاً على شطر النفس الانبل بلذتها ومتعتها وبعذابها . وينبغي عليها ألّا تعكر عليه تأمله لكي يتقصى تبعاً لرغبته معلومات جديدة عن أشياء ماضية وحاضرة ومقبلة . كما أنه هدّأ ارادته ولم يهيجها بإثارات الغضب . ولقد أهدأ هذين الشطرين كليهما ، أمّا الثالث الذي من شأنه أن يفكر فقد أيقظه . فإذا ما استسلم هكذا الى النوم وجد في النوم ، وكما تعرف ، الحقيقة على نحو أفضل . وآخر شيء ينثال عليه هو الاحلام الاثيمة .»

[أداימانتوس :] «وفي رأيي بالتمام والكمال» .

[سقراط :] «لقد ابتعدنا كثيراً جداً . فما نريد أن نستوضحه هو أنّ في كل انسان ، وحتى في البعض منا ممن يبدون هادئين متمالكي النفس ، جنسياً من الدوافع هو منكر وخبيث وجموح وأثيم . ويظهر هذا في النوم الى حيّز الوجود . أهو قول معقول ذلك الذي تعلن به موافقتك ؟» .

[أداي‍مانتوس :] «نعم !»[٢٠] .

وعلى حين يرى افلاطون ، كما يرى فرويد ، أن الأحلام تعبير عن طبيعتنا الغريزية يقوم بتصنيف يحدّ هذا التفسير بعض الشيء مرة أخرى . ويسلّم بأنّ النائم إذا ما نام بحالة نفسية هادئة آمنة فإنّ آخر ما ينتابه هي أحلام لا عقلانية . على أنه ليس لنا أن نخلط بين هذا التأويل والتحليل الثنائي وهو أنّ الأحلام تعبير عن طبيعتنا العقلانية واللا عقلانية . وفي نظر افلاطون إنها في صميمها تعبير عن الشيء الهمجي الوحشي والشيء المخيف الرهيب فينا . ولا يكون الأمر هكذا عند ناس وصلوا إلى أعلى مراحل النضج والحكمة .

ويؤكد ارسطو الجانب العقلاني للأحلام . ويذهب إلى أنّ لدينا في النوم موهبة ادراكٍ حسي مهذبة لعمليات جسدية دقيقة وأننا ، إلى ذلك ، نشغل أنفسنا بخطط وتوجيهات وتعليمات ندركها على نحو أوضح مما هو في النهار . على أنه لا يذهب إلى أنّ الأحلام كلها ذات معنى ومدلول ، بل إنّ كثيراً منها يحدث على نحو عرضي محض ، ولا تكون جديرة بأن ينسب إليها وظائف تنبؤية . أما الفصل التالي من «الطبائع الصغيرة» الذي يعالج التنبؤ من طريق الأحلام فسيبيّن بوضوح وجهة نظر أرسطو :

«لا يمكن أن تكون الأحلام إلاّ عللاً للحوادث أو علامات وأدلة أو أن تتصادف معها سواء أكان هذا دفعة واحدة أم كان بعضاً منها أو واحداً . وأعني بالعلة ، مثلاً ، القمر بالنسبة لكسوف الشمس والجهد بالنسبة للتحمية والتسخين . وأعني بعلامة الانكساف أنّ الكوكب ينفذ إلى داخل قرص الشمس أو أن اللسان الذي تغطيه طبقة بيضاء دليل وعلامة على الحمى وأعني بالتصادف أن الكسوف يحدث في أثناء نزهة . فالنزهة ليست علامة أو دلالة على الكسوف ولا سبباً له ، كما أن الكسوف ليس علامة أو دلالة على النزهة أيضاً . وعلى هذا لا يحدث تصادف لا بصورة دائمة ولا في بعض الأحيان .

والسؤال ، إذاً ، هل تكون بعض الأحلام عللاً وبعضها علامات لعمليات جسدية مثلاً ؟ وعلى أية حال فإنّ هنالك أطباء مهرة يزعمون أنّ المرء يجب أن يهتم

٢٠) افلاطون : الدولة ، شتوتغارت ١٩٣٩ ، ص ٢٩٨ وما بعد .

جدا بالاحلام ويلقي اليها بالاً . وينصح بهذا الرأي والتعليل لغير المختصين أيضاً الذين يبتغون المعرفة والحكمة .

فالحركات التي تجري في النهار تبقى مخبوءة الى جانب حركات أكبر لليقظة هذا إذا لم تكن شديدة الأثر وقوية القوة الكافية . أما في النوم فالأمر يختلف إذ تظهر الصغيرة كبيرةً أيضاً كما يتبيّن المرء من الحوادث في أثناء النوم . فالمرء يعتقد أن الدنيا قامت وقعدت وارعدت حتى لو لم يتناهَ إلا صدىً خفيفٌ إلى الأذن . ويظن المرء أن على لسانه عسلاً وطعماً حلو المذاق حتى لو لم تسِل إلاّ قطرةٌ صغيرة من اللعاب ، ويحسب أنه يخوض النار ويحترق حتى لو لم تمسه إلاّ حرارة ضئيلة في أحد المواضع . فاذا استيقظ تكشّف الأمر هكذا . ولما كانت بداية الاشياء كلها بسيطة لا تذكر فإنه لمفهوم أن الأمر يكون أيضا هكذا في أمراض وآلام جسدية أخرى تظهر . وعلى هذا يرى المرء أن هذه يجب أن تكون أقرب الى الظهور في حالات النوم منه في اليقظة . على أنه ليس ببعيد الاحتمال أيضا أن بعض الظواهر في النوم تكون علّة للعمليات المتميزة في جسم ما . وكما أن المرء يُلاحق في الحلم غير مرة من الشيء الذي ينويه أو يشتغل به أو قام به لتوه لأن الطريق أو المسار لمثل هذه الحركات يهيؤه الشيء الذي بُدىء به في النهار ، فإنه ينبغي كذلك أيضاً على الحركات الناشئة في الحلم من جراء ذلك أن تكون غير مرة السبب في أعمال النهار ذلك لأن طريق التفكير قد أخلي مرة أخرى لهذه الحركات بوساطة تصورات ليلية . وعلى هذا النحو يمكن أن تكون بعض الأحلام أسبابا وعلامات ، على أن معظمها يجب أن ينظر اليه على أنه مساوٍ ومماثل للتصادف ، ولا سيما تلك الأحلام الفياضة المفرطة في الحماسة ، ومثل تلك الاحلام التي لا يمتلك مضمونها حين يحلم ، مثلاً ، بمعركة بحرية أو بأشياء نائية . وبذلك سيكون الحال كما لو أن شيئاً ما يحدث حين يفكر المرء بذلك . ولماذا لا ينطبق هذا أيضاً على العمليات في أثناء النوم أجل ، إنه لطبيعي فقط أن ما يحدث من هذا القبيل لكثير . إذاً ، فبقدر ما يفهم المرء التذكر على أن علة وعلامة لوصول الصديق فإن الحلم يكون أيضاً سبباً وعلامة لما يتحقق في نفس الحالم ، فما هو إلا تصادفٌ ، ليس غير . وعلى هذا لا تتحقق أحلام كثيرة لأن التصادفات لا تحدث بصورة دائمة ولا في كثير من الأحيان

أيضاً»[21] . ويأخذ تفسير الحلم عند الرومان بالنظريات المتطورة في بلاد اليونان بشكل وثيق الى حدّ ما ، لكنه لا يرتقي إلى ما نجده لدى افلاطون وارسطو من وضوح النظر وعمقه . ويقترب لوكريتس في مؤلفه (في الطبيعة) من نظرية فرويد في تحقيق الرغبة حين لا يُبرز ولا يؤكد أيضا ، كما يفعل فرويد ، لا عقلانية هذه الرغبات على نحو شديد . فهو يرى أن أحلامنا تهتم بأشياء نهتم نحن بها في أثناء النهار ، أو تُشغل بحاجات جسدية أيضاً يكون اشباعها في الحلم :

«إنَّ أية أعمال يزاولها المرء ذهنياً بحماسة بالغة ، / أو أي شاغل شغل القلب من قبل على نحو أكثر/ وكرّس الذهن نفسه لذلك باجتهاد أكبر / فالشيء نفسه يعاودنا أيضاً في الحلم بصورة اعتيادية ./فالقانونيون يصوغون القانون ويتقاضون/والقادة العسكريون ينظمون الجيش ويخوضون معارك دامية/والملاحون يصارعون الرياح/وأنا أزاول عملي هذا وأتقصى طبيعة الأشياء/وأصور ما اتقصاه في شعر وطني/ .

وفي النوم ، إذاً تبدو أيضاً فنون أخرى وأعمال/ انها تشغل خاطر الانسان على الدوام بتضليل لاهٍ . / ومن يؤم المسرح عدة أيام بهمة ونشاط ولم تعد تتخايل له الاشياء/ تبقى الطريق ، مع هذا ، مفتوحة في البال/لكي تصل الصور ذاتها الى هذا الذهن . / وهكذا تبقى تتراءى له اياماً معدودة/ بحيث يرى الراقصين في اليقظة/ وهم يحركون الاعضاء اللدنة/ ويخال أنه يسمع الاغنية المنسابة على القيثار وانغام الاوتار الناطقة/ويخال أنه يرى المحتفلين وسحر المسرح الزاهي الألوان/ . وإنَّ للاجتهاد والميل المواظب الدؤوب وزناً كبيراً وأهمية عظيمة/ . في أي عمل اعتاد المرء أن يتدرب عليه ؛/ ليس عند البشر وحدهم ، بل حتى عند أجناس الحيوانات أيضاً»[22] .

ولقد ترك لنا ارتميدوروس الافسوسي نظرية أحلام منسقة منظمة في مؤلفه «كتاب الأحلام» . فقد عاش في القرن الثاني وأثّر بكتابه في آراء العصر الوسيط

---

21) انظر : ارسطو ، مؤلفات صغيرة في علم التدريس ، في : عن النفس ، ١٩٥٣ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٦ .

22) انظر : لوكريتس : في طبيعة الأشياء ، الأبيات ٩٦٢ ـ ٩٨٦ .

تأثيراً كبيراً . فهو يرى أنَّ هنالك خمسة أنواع مختلفة للأحلام : الحلم وطيف الخيال والنبوءة (الوحي) والخيال الصرف الخالص والرؤيا . فما يسمى «بالحلم» هو الشيء الذي «يكشف عن حالات الحاضر وأوضاعه» . ويدخل في هذا تفسير يوسف لحلم فرعون بأنَّ السبع بقرات العجاف سيأكلن البقرات السبع السمان ، أو حلم السنبلات . ويكشف طيف الخيال المستقبل : فهو يعمل عمل الخبرة في النوم على نحو ينقاد فيه انتباه النائم الى تنبؤ المستقبل . شيء كهذا حدث لفيسباسيان لما رأى الطبيب الجراح الذي خلع سن هيروس . أما النبوءة أو الوحي فهو كشف أو إعلان يؤول إلينا بوساطة ملاك أو قديس لكي نحقق إرادة الله ومشيئته طبقاً لرسالة الملاك أو القديس . وهذا ما حصل ليوسف ، زوج العذراء وللحكماء الثلاثة . والخيال الصرف أو (التخيّل الخالص) ، مثله مثل الحلم ، فهو خالٍ من الدلالة والأهمية بالنسبة لتنبؤ المستقبل ويحدث على النحو التالي :«هنالك انفعالات معينة ، من طبعها أنها تعاود الظهور في الحلم وتعاود عرض نفسها للنفس والمثول أمامها وتسبب الأحلام .» ونتصور ، إذاً ، ليلاً وفي الخيال ما كان شغلنا في النهار . «وهكذا يحلم أحد العاشقين مثلاً بلقاء حبيبه .»[٢٣] وإنَّ مَنْ صام النهار كله سيحلم ليلاً بأنه يأكل . أو ان من كان ظمآن في النهار سيحلم بأنه يشرب في الليل وهو غاية في الغبطة والانشراح لذلك . ويحلم البخيل والمرابي بأكياس المال ، بل إنه لمن شأنه أن يتحدث عن ذلك في النوم . وأخيراً فإن هنالك «الرؤيا» التي تنثال على الشيوخ والعجزة في الليل حين يتصور هؤلاء بأن بعبعاً يدنو منهم لكي يفزعهم أو ينزل الأذى .

وكما نرى فإن ارتميدوروس الافسوسي يذهب إلى إن ما يسميه «حلماً» هو رؤية ومعرفة تمَّ التعبير عنها بلغة الرمز . فحلم فرعون ليس في نظره طيف خيال مرسلاً من الله ، وانما هو تعبير رمزي عن معرفة عقلية خاصة به . ويزعم أنَّ هنالك ايضا احلاماً يكشف فيها ملاك ما مشيئة الرب ؛ لكنه يسمي هو هذه «وحياً» . فالرؤيا التي تظهر فيها رغباتنا اللا عقلانية تعدّ من نوع الأحلام ، على أنه يسمي الحلم الذي ينطبق عليه تفسير افلاطون وفرويد «الخيال الخالص» . ويعزو

---

٢٣) ارتميدوروس الافسوسي : كتاب الأحلام ، ميونيخ ١٩٧٩ ، ص ٩وما بعد .

الكوابيس التي يسميها «رؤى» إلى الحالة الخاصة لأطفال ضعاف وشيوخ . ويشير ارتميدوروس الافسوسي بصراحة إلى أنه ليس هنالك قواعد مسلم بها بعامة لتفسير الأحلام وأنّ المرء لا يستطيع أن يفسّر الأحلام أيضاً تفسيراً مُرْضياً للجميع بالمثل ، ذلك لأنه كثيراً ما يمكن تفسيرها تفسيراً متبايناً تبعاً للزمان والشخص .

ولو لم نُعْر صوت أحد الريبيّين الخلّص انتباهاً أو لو اسكتنا هذا الصوت لكانت صورتنا عن تفسير الرومان للأحلام ناقصة . ففي قصيدة «عن التنبؤ» كتب شيشرون قائلاً : «لا تستحق الاحلام أي تصديق أو انتباه . فإذا لم تصدر الاحلام ، إذاً ، عن الرب ولم تكن هنالك في الطبيعة أشياء يربطها بالأحلام تأثير متبادل وعلاقة دائمان ، وإذا استحال الوصول إلى تفسير وطيد للأحلام نفسها بوساطة التجارب والملاحظة فالنتيجة هي أنها لا تستحق أي نوع من أنواع التصديق والانتباه ، على سواء . وعلى هذا نرفض الايمان بتنبؤات الاحلام ، كما نرفض الايمان أيضاً بأيٍّ نوع آخر من التنبؤات . والحق يقال إنَّ هذه الخرافات التي ذاعت وشاعت عند كل الشعوب انتقصت القوى الذهنية للبشر كلهم وغوتهم بحماقات وسخافات لا نهاية لها .»[٢٤] .

ويُروى في التلمود عن نظرية في تفسير الأحلام تعود إلى العصر نفسه وقد صيغت صياغة فنية رائعة . ويروي التلمود أنه كان في عهد المسيح في القدس أربعة وعشرون مفسّر أحلام . وهذا يدل على الدور الذي كان لتفسير الأحلام . قال الحبر خيزدا : إنَّ كل حلم يعني شيئاً ، إلاَّ الحلم الذي ينشأ عن الصيام . وإلى ذلك قال الحبر خيزدا : إنَّ حلماً غير مفسر ليشبه رسالة غير مقروءة . ويصوغ هذا القول موقفاً شبيهاً بالموقف الذي نادى به فرويد بعبارات مماثلة بعد نحو ألفي سنة . بأن للأحلام كلها دون استثناء معنىً وأنها أخبار مهمة إلينا وأننا لا نسمح لأنفسنا أن نهمل تفسيرها وتأويلها . ويضيف الحبر تقييداً آخر مهما على حين يشير في أثناء تفسيره النفسي للأحلام بصورة خاصة إلى الأحلام التي تنشأ عن الصيام . وهذا التقييد أو التحديد يعني بعبارة أعمّ أن الاحلام التي انبعثت من منبهات جسدية قوية هي الاستثناء الوحيد من القاعدة بأنَّ للأحلام أسباباً نفسية .

---

٢٤) شيشرون : في التنبؤ ، في : ر . وود : عالم الأحلام . مختارات ، نيويورك ١٩٤٧ .

وذهب المؤلفون التلموديون إلى أن أنواعاً محددة من الأحلام تشتمل على تنبؤات . فالحبر يوخانان قال : «ثلاثة أحلام تتحقق : حلم الصباح وحلْمٌ حلم به صاحبه ثم حلْمٌ تمّ تأويله في الحلم نفسه . ويقول بعضهم : إن حلماً يتكرر سوف يصدق» (تلمود ، بيراخوت ٥٥/ب) .

ومع أنه لن تعيّن أية أسباب لهذا القول أو الرأي فليس من الصعب اكتشاف هذه الأسباب . فالنوم في الصباح هو أقل عمقاً من النوم في الساعات الأولى من الليل . وعلى هذا فإن النائم يكون أقرب من شعوره اليقظ الصاحي أو عقله المميز . والظاهر أن الحبر يوخانان يفرض أن ملكة الحكم العقلية تؤثر في حالة النوم في عملية الحلم هذه تأثيراً يجعل امكانية فهم أوضح في متناول الطاقات التي في داخلنا أو الطاقات الفعالة . ولهذا نستطيع أن نتنبأ حوادث مقبلة . فالافتراض بأن حلماً يراه عنا شخص آخر يمكن أن تكون أساسه الفكرة بأن الآخرين كثيراً ما يستطيعون أن يحكموا علينا حكماً أفضل من حكمنا نحن وأنَّ رأيهم فينا يتضح بصورة خاصة في حالة النوم . وهذا ما يمكّن من التنبؤات . وإنَّ الفكرة التي هي أساس للنظرية القائلة إنَّ الأحلام التي يفسّرها حلم آخر تصدق هي أغلب الظن أننا في حالة النوم قادرون على المعرفة الحدسية التي تسمح لنا بأن نفسر حلماً بأن نحلم «بتفسيره» . ويظهر أن أحدث التجارب على تحليل الاحلام بالتنويم المغناطيسي تثبت وتؤكد هذا الرأي . ولما طُلب من أشخاص يخضعون لتجارب بالتنويم المغناطيسي أن يفسروا أحلاماً مختلفة قدموا دون ما تردد تحليلاً معقولاً للغة الرمزية المستعملة في الحلم . ولما تخلصوا من سيطرة التنويم المغناطيسي بدت لهم الأحلام نفسها تافهة كل التفاهة وسخيفة كل السخف . وتدل هذه التجارب على أننا كلنا نملك القدرة على أن نفهم اللغة الرمزية . على أنّ هذه المعرفة لا تفعل فعلها إلاّ في تلك الحالة التي لا رقيب عليها والتي أوجدها التنويم المغناطيسي . فالمؤلف التلمودي يذهب إلى أن الشيء نفسه ينطبق أيضاً على حالة النوم بأننا نستطيع أن نفهم في النوم معنى حلم آخر ونستطيع أن نؤوله تأويلاً صحيحاً . ومما لا ريب فيه هو أن للحلم الذي يتكرر معنى خاصاً . وكثيرون من علماء النفس المعاصرين لاحظوا أن حلماً يراه المرء مرة تلو المرة ليعبر عن قضايا مهمة في حياة الشخص المذكور . فإذا ما كان المرء ميالاً إلى أن يتصرف دائماً بناء على مثل هذه الفكرة ففي

وسعنا القول إن مثل هذه الأحلام المتكررة كثيراً ما تنبيء عن حوادث مقبلة في حياة الشخص المذكور .

إنَّ التفسير التلمودي للرموز ذو أهمية خاصة . إنه ينتهج طريقة فرويد ، مثلاً ، في أثناء تفسير حلم بأن أحداً ما يسقي شجرة زيتون بزيت الزيتون (انظر : تلمود ، بيراخوت ٥٥/ب) . ويفيد التفسير بأن الحلم يرمز الى غشيان المحارم . وفي احد الأحلام الذي يرى الحالم فيه كيف تتعانق عيناه يعني هذا الرمز علاقة جنسية مع الأخت . ولكن على حين يكون للرموز اللا جنسية في ذاتها معنى جنسي تؤول رموزٌ جنسية كما لو أنها تعني شيئاً غير جنسي . وهكذا يقول مرجعنا التلمودي إنَّ حلماً يجامع فيه شخص ما أمه يعني أنَّ في وسعه أن يأمل أن ينال حكمة كبيرة . أو أن شخصاً ما يحلم بامرأة متزوجة يستطيع أن يكون على ثقة من خلاصه هو . والظاهر أن التفسير التلمودي يقوم على الفكرة بأن رمزاً ما له دائماً معنى آخر وأنَّ رمزاً له طبيعة جنسية في حد ذاته يجب أن يعني غير ما يعرب عنه معناه الصريح . على أنه هنا ، وفي هذا المقام ، يوضع شرط مهم . إنَّ رجلاً يحلم بامرأة متزوجة لا يستطيع أن يتأكد من خلاصه إلاَّ إذا لم يسبق له أن عرفها من الحلم ولم تكن عنده شهوة جنسية في أثناء الرقاد (انظر : تلمود ، بيراخوات ٥٥ب) . وهنا نلاحظ أية أهميّة يعلّقها التلمود على الحالة النفسية للحالم قبيل النوم . فإذا كانت عنده رغبات جنسية أو حتى لو كان يعرف المرأة التي يحلم بها معرفة سطحية فمن المسلم به ألاّ تصحّ القاعدة العامة التي بموجبها يمثل الرمز شيئاً آخر وأنَّ هنا في لغة الرموز الجنسية تعبيراً في الواقع عن رغبة جنسية .

أما تفسير العصور الوسطى للأحلام فيكاد يسير في الاتجاه الذي وجدناه عند القدامى ، فسينيسيوس السيريني ، أحد كتاب القرن الرابع ، ترك لنا أحد أجمل العروض النظرية وأدق وصف لها أن الأحلام يمكن ارجاعها إلى قدرة عالية على الرؤية والمعرفة في أثناء النوم :

«حين تنبيء الأحلام عن المستقبل وحين تعطي الظواهر التي تتراءى للنفس في أثناء النوم بعض الأدلة التي نستطيع بموجبها أن نتنبأ عن شيء ما في المستقبل عندها تصبح الأحلام حقيقية وغامضة في آن واحد ، حتى إنَّ غموضها بالذات

سيبقى عامراً بالحقيقة . «فالالهة ستروا الحياة الانسانية بستار سميك» ، على حد تعبير هسيود .

ولا أعجب أن يدين بعضهم بالعثور على كنز إلى النوم وأن بعضهم أوى الى النوم وهو جاهل كل الجهل ومن ثم ، وبعد أن تحدّث في الحلم مع ربات الفن ، استيقظ شاعراً موهوباً . وهذا ما حدث لبعضهم على أيامي ولم يكن في هذا شيء يدعو إلى العجب . ولا أتحدث عن ناس انبئوا في النوم عن خطر محدق أو عن وسيلة قد تجلب لهم الشفاء . ولكن حين يخلي النوم للنفس التي لم تطمح إلى هذا من قبل ولم تفكر بالصعود الى الجو الفكري السبيل الى معرفة بالغة الكمال وفهم للحقيقة ويدفعها إلى أن تسمو فوق الطبيعة وتتحد من جديد بالمجال الفكري المدرك بالعقل فقط الذي ابتعدت عنه بعداً شاسعاً بحيث لم تعد تعرف من أين جاءتْ ، عندها يكون هذا ، في رأيي ، غاية في العجب والغموض .

وحين ينظر المرء إلى النفس على أنها شيء غير عادي وهي تصعد الى مناطق عليا وحين لا يريد أن يؤمن أن السبيل إلى هذا الاتحاد المغبوط يمرّ بالمخيلة فلينصتْ عندئذ الى الوحي المقدس حين يتكلم في طرق مختلفة تؤدي إلى مجال أعلى وأسمى . وبعد تعداد مختلف المساعدات التي تعين النفس على الصعود بأن توقظ قواها وتهذبها يقال : «من طريق التعليم يستنير بعضهم ، ومن طريق النوم يتنوّر الآخرون» (من نبوءات العرافة سيبيلا) .

وأنت ترى أن النبوءة (الوجي) تتميز على النحو التالي : فمن ناحية لدينا الايحاء ومن جهة أخرى عندنا الدراسة . وهذه ، كما تقول النبوءة ، هي تعليم في اليقظة والايحاء تعليم في النوم . ففي اليقظة يكون المعلم دائماً انساناً ، أما حين نام فإنّ المعرفة تأتينا من لدن إله (. . . .) ومن طبيعة الاستنارة في الحلم أن كل انسان يستطيع بلوغها . فهي سهلة الفهم ولا تتطلب مهارة متميزة . وهي مقدسة لأنها لا تصطنع أية وسائل وحشية ويمكن استعمالها في كل مكان . وهي في غنى عن ينابيع وصخور وشقوق . ولذلك هي الشيء ذو الطابع الالهي الحق . ومن أجل استعمالها لا حاجة بنا إلى أن نهمل اشغالنا ونضر لحظة واحدة أعمالنا وشؤوننا (. . .) وما من أحد سيُستحثُّ على أن يترك ما بيده من عمل ويذهب إلى النوم ، ولا سيما كي يحلم . ولكن لما كان جسدنا لا يستطيع أن يتحمل السهر الطويل فإن

الزمن الذي احتفظت به الطبيعة لنا من أجل الراحة يقدم لنامع النوم علاوة أخرى أنفس من النوم نفسه : فحاجة طبيعتنا تصبح مصدراً للفرح وننام لا لكي نحيا فحسب ، بل لكي نتعلم كيف نعيش عيشة راضية (. .) على أن كلاً منا هو في رؤية المستقبل بوساطة الأحلام أداةٌ خاصة بشخصه . فمهما فعلنا لا نستطيع أن ننفصل عن وحينا . فهو يعيش فينا ويتبعنا الى كل مكان ويرافقنا في رحلاتنا وفي الحرب والحياة العامة وفي اشغالنا الزراعية وأعمالنا التجارية . ولا تحظر قوانين جمهورية شكاكة ظنانة هذا التنبؤ بحوادث في المستقبل . وحتى لو أقدمت على ذلك فلن تفوز بطائل : إذ أنى للمرء أن يثبت الخروج على هذه القوانين ؟ وما الشيء السيء المنكر في النوم ؟ وما من طاغية بقادر على أن يصدر مرسوماً ضد الأحلام أو أن يحظر النوم في نطاق حكمه . وإنه لمن الحماقة أن تمنع المستحيل . وفضلاً عن ذلك إنه لكفر أن يعارض المرء إرادة الطبيعة والاله .

ولذلك نريد أن نكرس أنفسنا جميعاً لتفسير الاحلام ، رجالاً ونساء ، شباباً وشيوخاً ، أغنياء وفقراء ، مواطنين عاديين وموظفين ، مدنيين وريفيين ، عمالاً وخطباء . وما من أحد يتمتع في أثناء ذلك بامتيازات خاصة ، لا على أساس جنسه ولا على أساس سنه أو ثروته أو مهنته .

أما النوم فرهن أمر الجميع . إنه النبوءة أوالوحي الذي هو دائماً مستعد لأن يكون ناصحنا الهادي المعصوم من الخطأ . وإنَّ كل إنسان هو في هذه الاسرار الطريفة الجديدة كاهن ومطلع على الاسرار في آن واحد . فمثله مثل الكهانة ينبئنا بمسرّات المستقبل وافراحه . ولما أنه يتيح لنا ، إذا جاز التعبير ، أن نتمتع بالسعادة سلفاً فإنه يمنح مسراتنا استمراراً أطول . كما أنه ينبهنا إلى خطب محدق فنأخذ حذرنا . فوعود الأمل الحلوة المحببة إلى النفس الانسانية والحسابات البعيدة المدى لأخطار محدقة ، كل هذا يأتينا من طريق احلامنا . فلا شيء أقدر على أن يغذي أملنا . فهذا المَلَك هو غاية في الضخامة والنفاسة بحيث إننا لا نطيق صبراً على الحياة من دونه ، كما قال أحد مشاهير السفسطائيين»[٢٥] .

---

٢٥)انظر : سينيسيوس السيريني : في الأحلام ، نقلاً عن : ر . وود : عالم الأحلام ، ١٩٤٧ .

وتشبه نظريات تفسير الحالم الخاصة باتباع ارسطو اليهود في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وجهة النظر التي نادى بها سينيسيوس . وأعظمهم شأنا هو ابن ميمون الذي يرى أن الاحلام ، مثلها مثل التنبؤات ، يمكن أن تعزى الى عمل ملكة التخيل وفعاليتها في أثناء النوم : «وسواء أكان في وسع الموحى اليه ان يتلقى الوحي بصفاء أو كدر وسواء أكانت مداركه متطورة تطوراً أقوى أم أضعف فهو نفسه قادر على أن يحرر المضمون العقلي من الاحتجاب الحسي . أو أنه في حاجة إلى مساعدة مفسر مستنير بالفعل من أجل ذلك» .[٢٦]

ويميز توما الاكويني بين أربعة أنواع من الأحلام : «وكما تبيّن واتضح فإنّ الكهانة التي تستند الى رأي خاطىء هي خرافية ومحرّمة . وعلى هذا يجب اعتبار ما هو حقيقي صادق من حيث تنبؤ أشياء مستقبلة . وفي بعض الأحيان تكون الأحلام سبباً في حوادث مستقبلة . فحين تنفعل روح انسان ما مثلاً وتثور لما يراه في الأحلام يرى نفسه مدفوعاً إلى أن يقوم بشيء أو يتجنب شيئاً ما .

وفي بعض الأحيان تكون الاحلام علامات لحوادث مستقبلة بقدر ما تعود هذه العلامات الى سبب مشترك سواءٌ بالنسبة للأحلام أو بالنسبة للحوادث المقبلة . وعلى هذا النحو تتحقق في أكثر الأحايين تنبؤات لحوادث في المستقبل من الأحلام . وعلى هذا يجب التفكير في سبب الأحلام وهل يمكن أن يكون هذا السبب أيضاً سبباً لحوادث مستقبلة وهل في وسع المرء أن يعرف هذا السبب .

وعلى هذا يجب أن يعرف المرء أن سبب الأحلام تارة داخلي وطوراً خارجي . والسبب الداخلي للأحلام ثنائي مزدوج . فهو ذو طبيعة نفسية بقدر ما ترد على الخيال الانساني في النوم مثل هذه الاشياء التي كان التفكير والميل توقفا عندها في حالة اليقظة . إنّ مثل هذا السبب للأحلام ليس سبباً لحوادث مستقبلة . وعلى هذ لم يكن لمثل هذه الأحلام إلاّ نوع عابر من الصلات بحوادث مستقبلة . فإذا طابق الحلم الحادثة في بعض الأحيان كان هذا مصادفة .

على أنّ السبب الداخلي للأحلام يكون أحياناً ذا طبيعة جسدية . فمن استعداد داخلي للجسد تتكون ، إذاً ، حركة في المخيلة تناسب هذا الاستعداد :

---

٢٦) انظر : جوتمان ، ج : فلسفة اليهودية ، ميونيخ ١٩٣٣ ، ص ١٠١ .

كما تحصل عند انسان تغلب عليه العصارات الباردة أحلام بأنه موجود في الماء أو الثلج . وعلى هذا يعلم الأطباء بأنه ينبغي الاهتمام بالاحلام إذا ما أراد المرء أن يتعرف على الحالات النفسية والاستعدادات الداخلية .

كما أنَّ السبب الخارجي للأحلام ثنائي أيضاً : أي أنه جسدي وروحي . فهو جسدي بقدر ما تتغير مخيلة نائم من جو محبوس أو بتأثير جرم سماوي بحيث تتراءى للنائم صور وهمية وأخيلة شبيهة بهيئة الجرم السماوي . أما السبب الروحي فإنه ينشأ أحياناً من الله الذي يوحي للانسان بوساطة الملائكة بأشياء في الأحلام وفقاً للعبارة التي تقول : «إذا كان عندكم نبي فإني أستسلم له في الرؤى لأعرف ، وأتكلم معه في الحلم .» .

على أنَّ اطيافاً وأخيلة تتراءى أحياناً للنائمين بفعل جن . وبهذه الأطياف والأخيلة يكشف الجن لهم أحيانا اشياء مستقبلة تعاقدوا عليها بعقود غير مشروعة ومحرمة .

وعلى هذا يمكن القول : إنه حين يستخدم شخص ما الأحلام ليعلم أشياء مستقبلة فليس هذا بكهانة محرمة حين يكون مصدر هذه الأحلام وحيٌ إلهي . وكذا الأمر في حالة علة طبيعية ، سواء أكانت داخلية أم خارجية وإلى أي حدّ أو درجة يمكن أن تمتد قوة علة مثل هذه العلة . أما حين يؤدي إلى مثل هذا التنبؤ وحيٌ أو كشف بوساطة جن أُبرمت معهم عقود ـ سواء أتمَّ الاتفاق عليها بوضوح لأن الجن يستدعون لمثل هذا الغرض أم كانت عقودا ضمنية لأن مثل هذا التنبؤ يوسع ويبسط على أشياء لا يستطيع أن يتسع لها ويشملها ـ عندئذ تكون مثل هذه الكهانة محرمة وخرافية . وهذا يكفي ليكون رداً على الاعتراضات» .

وأعتقد توما الاكويني كما اعتقد ارتيميدوروس وآخرون ، أن بعض الأحلام مرسلةٌ من الله . أما الاحلام التي يحللها بأنها ناشئة عن روح الحالم فلا يفهمها بأنها نتاج خيال الحالم الذي شغل نفسه بالرغبات والاهتمامات نفسها كما في أثناء النهار . والممتع المهم أن توما الاكويني يذهب كما ذهب المفكرون الهنود واليونانيون إلى أن عمليات جسدية معينة يستدل عليها برموز الحلم وأنه في الامكان معرفة استعدادات داخلية وحالات نفسية من طريق تفسير الأحلام .

وتفسير الأحلام الحديث (منذ القرن السابع عشر) هو في جوهره تغيير لنظريات القدامى والعصور الوسطى مع أنه ظهرت اتجاهات فكرية معينة جديدة .
وعلى حين ينادي غير مؤلف من المؤلفين القدامى بالنظرية التي مفادها أنّ الأحلام يمكن أن تكون تعبيراً عن استعدادات جسدية يذهب هوبز الى أن الأحلام بكاملها تسببها تهيجات جسدية . وإنه لرأيٌ واسع الانتشار حتى إلى يومنا الحاضر وكثيراً ما يستشهد به لتفنيد فرويد : «ولما كان نشوء الأحلام يعزى إلى شكوى بعض أعضاء الجسم الداخلية فستنشأ بالضرورة أحلام مختلفة . وينتج من ذلك أنّ أولئك الذين يحسون البرودة في السرير يحلمون ، عادة ، بأحلام مخيفة ، ويعتقدون أنهم يرون صوراً مرعبة (إذ أن حركة الدماغ الى الاعضاء الداخلية الأخرى تبدأ من هنا وتعود إلى هنا مرة أخرى .) وكما أنّ الغضب يهيج في اليقظة بعض الاعضاء الداخلية فإنّ تهييج هذه الأعضاء في النوم يؤدي الى الغضب ويخلق في الدماغ صورة عدو . وكما أن مشاهدة المحبين في اليقظة تولد الحب وتهيج بعض الأعضاء الداخلية فإنّ تهييج هذه الأعضاء في النوم يوجد صورة الحب . وباختصار إن احلام يقظان وتصوراته مرتبطة على العكس مع بعضها ؛ فعند الاستيقاظ تنشأ الحركة في الدماغ ، أما في النوم فتكون في الأجزاء الداخلية»[٢٧] .

وليس هنالك ما يدعو الى المزيد من الدهشة والعجب أن فلاسفة عصر التنوير وقفوا موقف المتشكك من كل الأقوال والفرضيات بأن الأحلام مرسلة من الله أو أنه في الأمكان استخدامها في التنبؤ .

ويصف فولتير الفكرة بأنّ الاحلام تتنبأ شيئاً مستقبلاً بانها سخافة خرافية وهراء وهمي . ولكن رغم هذا الرأي يذهب إلى أنّ الأحلام كثيرا ما تكون تعبيراً عن تهيجات جسدية ونتائج افراط «من حيث أهواء النفس وشهواتها ، إلاّ أننا كثيراً ما نستخدم أيضا في النوم أعلى قدراتنا العقلية : «علينا أن نوافق بيترونيوس حين يقول : «quidquid luce, tenebris agit»[*] لقد عرفت محامين رافعوا في الاحلام ورياضيين حاولوا أن يحلوا مسائل وشعراء كتبوا قصائد في الأحلام . كما انني أنا

٢٧) انظر : هوبز ، توماس : اللوياثان ، شتوتغارت ١٩٧٨ ، ص ١٧ وما بعد .
(*) معنى العبارة اللاتينية : «مهما يكن النور فالظلمة تحركه وتثيره» .

كتبت قصائد لابأس بها . وعلى هذا فإنه يحدث بصورة لا تقبل الجدل مرور أفكار منطقي في النوم كما في اليقظة . ومن المؤكد ان هذه الافكار تتراءى لنا من دون أن يكون لنا دخل في ذلك . ونفكر في النوم كما نتحرك في السرير من دون أن يكون لازادتنا أية علاقة بالحركة أو بالتفكير . وأبونا مالبرانش على صواب حين يقول إننا عاجزون عن أن نهب أنفسنا خواطر وومضات فكرية . فلمّ كان علينا إذاً أن نستحوذ في اليقظة على ذلك أكثر مما نستحوذ عليه في أثناء النوم» ؟[٢٨] .

وتشبه نظرية كانط في الأحلام نظرية فولتير . فهو أيضاً اعتقد أنه ليس لنا في أحلامنا أية رؤى أو وحي مقدس . فأحلامنا تسببها ببساطة معدةٌ مرتبكة مضطربة .» على أنه يقول أيضاً بما يلي :

«إني لأظن أن هذه التصورات نفسها يمكن أن تكون أكثر وضوحاً وأوسع انتشاراً من التصورات الأوضح في اليقظة ، ذلك لأن هذه يمكن توقّعها عند الراحة التامة لحواس خارجية خاصة بكائن فعال نشيط نشاط النفس ، مع أن التصور المزافق عند الاستيقاظ ، ولأن جسد الانسان غير محسوس به حينئذ ، يفتقر إلى الشيء نفسه ، هذا التصور الذي كان في امكانه أن يوصل بالحالة السابقة للأفكار التابعة للشخص نفسه الى الوعي والشعور . فأعمال بعض السائرين في النوم الذين يظهرون أحياناً في مثل تلك الحالات مزيداً من العقل والفطنة أكثر من أي وقت آخر مع أنهم لا يتذكرون شيئاً من هذا عند الاستيقاظ ، هذه الأعمال تؤكد امكانية ما أتوقعه من النوم العميق . أما الأحلام التي هي تصورات النائم التي يتذكرها عند الاستيقاظ فلا تدخل في هذا الباب . إذ أن الانسان لا ينام نوماً تاماً . فهو يحس إلى حد ما احساساً صافياً وينسج أعماله الذهنية بانطباعات الحواس الخارجية . ولما كان يتذكر بعضها فيما بعد ، إلاّ أنه يجد فيها أوهاماً متوحشة تافهة مبتذلة كما ينبغي أن تكون بالضرورة إذ أنه تتداخل فيها أفكار المخيلة وتصوراتها وتصورات الاحساس الخارجي مع بعضها .»[٢٩] .

---

٢٨) انظر : فولتير : معجم الفلسفة ، ١٩٧٣ .

٢٩) انظر : كانط ، عمانوئيل : أحلام راء ، برلين ١٩٢٢ ، ص ٣٥٣ .

كما أن غوته يؤكد طاقاتنا العقلية المتزايدة في النوم . وحين روى له ايكرمان ذات مرة حلماً لطيفاً جداً كان رآه قال غوته : «يرى المرء أن ربات الفن تزورك أيضا في المنام ، وبانعام مميز . إذ أنك ستقر وتعترف أنه قد يصعب عليك في اليقظة أن تبدع شيئاً متميزاً وجميلا كهذا .» إنَّ مخيلتنا في النوم ليست بأكبر مما هي عليه في اليقظة ، بل إنَّ طموحنا الفطري إلى الصحة والسعادة كثيراً ما يظهر في نومنا أشدّ وأقوى مما هو عليه في اليقظة : ويجيب غوته : «إن في الطبيعة الانسانية قوى عجيبة» . وحتى لو تضاءل أملنا الى حدّ كبير فإنها تهيء لنا شيئاً جميلاً . وكانت لي في حياتي أوقات نمت فيها باكياً ؛ على أنه في أحلامي زارتني ألطف الأشكال لتواسيني وتبهجني . وكنت أنهض في صباح اليوم التالي على قدمي نشيطاً مبتهجاً .»[٣٠] .

على أن اجمل وأدقّ ما قيل عن العقل المتعالي لعملياتنا النفسية في المنام فينسب الى رالف والدو ايمرسون إذ يقول : «للأحلام كمال شعري وحقيقة . كما أنَّ عقلاً معيناً يسود هذا المخزن الخاص بعفاشة الفكر ويسود حفرة مهملاته . ويتم مخالفتها للطبيعة وانحرافها عنها على مستوى أعلى . وتبدو لنا الأحلام أنها إشارة إلى غزارة الفكر وحركته التي لا نعرفها في اليقظة . فهي تحيرنا باستقلاليتها هنا ؛ ومع هذا نعرف أنفسنا ثانية في هذه الفوضى الجنونية ونَدين لأحلامنا بنوع من النظر الثابت والحكمة . فأحلامي ليست أنا ، وليست الطبيعة أو اللا أنا . فهي كلاهما . ولها شعور مزدوج ، فهي ذاتية وموضوعية في آن واحد . ونصف الأشباح الخيالية أو الأطياف بأنها نتاج مخيلتنا ، على أنها تتصرف تصرّف المتمردين وتطلق النار على رؤوسائها وقادتها وتبيّن لنا أنَّ كل عمل وكل فكرة وكل سبب ذو قطبين وأن كل عمل يشتمل على عمل مناقض . فإذا صفعت فسوف أُصفع وإذا طاردت فسوف أطارد .

وتتخلل أحلام الانسان إشارات حكيمة وأحياناً رهيبة يكون مصدرها ذكاء مجهول . ولا بدَّ أن تكون هزته مرتين أو ثلاث مرات في حياته عدالة هذه الأخيلة وأهميتها . ولا بد أن يتكون لديه الانطباع مرة أو مرتين بأن قيود وغيه تنحل بحيث

---

٣٠) انظر : ايكرمان ، ج . ب : أحاديث مع غوته ١٨٢٨/٣/٢١ .

يستطيع أن يتكلم بكثير من الحرية والصراحة . ففي كل الأزمان نشط فيها (في الأحلام) عقل نبوي . وكثيراً ما تنضج فيها آراء لم نستطع أن نصوغها بعد في شعورنا ، على أنَّ عناصرها هي ملك أيدينا . وهكذا أعرف في اليقظة طبع روبرت ، على أنني لا أعرف ما الشيء الذي يمكن أن يفعله . وأراه في الحلم يقوم بأفعال معيَّنة تبدو لي سخيفة وغير لائقة . فهو يتصرف تصرفاً عدائياً وحشياً مخيفاً . إنه جبان . وما مضت سنة حتى ثبت هذا بأنه تنبؤ . على أنه سبق لي أن حفظته في ذاكرتي في هيئة طبع كهذا . واكتفت الأحلام السيبِلِّية بأن جعلت أفكاري عنه تتخذ شكلاً ، ليس غير . ولماذا لا يعني أن تكون وليدة عقلنا ، كما يقال ، أعراضٌ وعلامات وأحاسيس داخلية ؟

وبهذه الخبرة أو التجربة ننتقل الى المجال العالي للسبب ونتعرف الى مطابقة مؤثرات تبدو متباينة كل التباين ، ونتعلم بأنَّ اعمالاً يحكم المرء على طبيعتها المعيبة المشينة أحكاماً متفاوتة جداً تنشأ عن الميول والنزعات نفسها . فالنوم يجردنا من زي الظروف الخارجية ويسلِّحنا بحريةٍ رهيبة فتصبح كل إرادة موضع التنفيذ على الفور . وإنَّ انساناً متمرِّساً بذلك ليقرأ أحلامه كي يتعرف على نفسه ، لكن لا بتفاصيلها ، بل على الكيفية والنوع . فأيُّ دور له فيها ، أهو دور رجولي مبهج أم دور صبياني تعيس ؟ ومهما كانت ظاهرات الحلم فظيعة مهولة وغريبة على نحو بشع مضحك فإنَّ فيها ذرةً من الحقيقة . وفي وسع المرء أيضاً أن يوسع القول نفسه ليشمل فؤولاً ومصادفات لعلّنا عجبنا منها . وينطبق عليها كلها أنَّ العلة لها كامنة دائماً في الشخص المقصود . ولقد تحدث غوته ذات مرة عن أنَّ هذه الصور العجيبة التي تنشأ من داخلنا قد تشكل مماثلة لحياتنا كلها ولمصيرنا .»[٣١] .

إنَّ شرح ايمرسون المستفيض غاية في الأهمية لأنه أدرك العلاقة بين الطبع والحلم بوضوح أكثر من أي شخص آخر . فطبعنا ينعكس في أحلامنا ، ولا سيما تلك الأوجه والنواحي التي لا تظهر في تصرفنا الصريح . وينطبق الشيء نفسه أيضاً على طباع الآخرين . فحين نكون ايقاظاً فإننا ، في أغلب الأحيان ، لا نرى

---

٣١) انظر ، ايمرسون ، ر . و ، محاضرات «دراسة الجن والايمان بها» ١٩٠٤ ، ص ٧ وما بعد .

إلاّ تصرفهم وأعمالهم . وفي أحلامنا نرى القوى الخفية التي هي أساس تصرفهم وأحلامهم ، وهذا ما يجعلنا في كثير من الأحيان قادرين على أن نتنبأ أعمالاً مقبلة .

وإني لأود أنْ اختتم هذه النظرة العامة المقتضبة في تاريخ تفسير الأحلام بإحدى أكثر النظريات أهمية وأصالة ، ألا وهي نظرية هنري برغسون . فبرغسون يعتقد ، كما يعتقد نيتشه ، أن تهيجات جسدية مختلفة تسبب عملية الحلم . على أنه يخالف نيتشه في أنه لا يعتقد أن هذه التهيجات يمكن تفسيرها بأنها ميول وأهواء سائدة فينا ، بل إننا نختار من كنز ذكرياتنا الثري غير المحدود تقريباً تلك التي تطابق هذه التهيجات الجسدية . وهذه الذكريات المنسية تكوّن مضامين الحلم . وتقترب نظرية برغسون في الذكريات من نظرية فرويد كثيراً . فهو أيضاً يذهب إلى أننا لا ننسى شيئاً وأن ما نتذكره ليس إلاّ جزءاً صغيراً من مجموع ذاكراتنا . فهو يقول : «تشكل ذكرياتنا في لحظة معينة كلاً متكاملاً وهرما ، إذا أردنا التعبير هكذا ، تتلاقى قمته المتحركة حركة مستمرة بحاضرنا ويغوصان معاً في المستقبل . على أن وراء هذه الذكريات التي تتخذ مقاماً لها هكذا في عملنا الحالي وتظهر بفعل ذلك يوجد ذكريات أخرى ، بل آلاف مؤلفة من الذكريات الأخرى التي تبقى تحت المنطقة التي أنارها الشعور . لا بل إني لأعتقد أن حياتنا الماضية موجودة حاضرة دائماً ومحفوظة مصونة في أدق تفاصيلها . ولا ننسى شيئاً ، وإن كل ما أحسسناه منذ التنبه الأول للشعور وما فكرنا به وأردناه يبقى قائماً مستمراً إلى ما لا نهاية . على أنّ الذكريات التي إحتفظت بها الذاكرة في أغوارها تحيا هناك في حالة أطياف أو أشباح غير مرئية . وقد تمضي إلى النور . ومع هذا فهي لا تحاول أن تصعد إليه . إذ أنها تعرف أن هذا محال ، وأنني أنا الكائن الحي العامل يجب أن أقوم بشيء آخر غير انشغالي بها . ولكن هَبْ أنني فقدت في لحظة من اللحظات الاهتمام بالوضع الحاضر وبأعمالي الاضطرارية ، وباختصار ، بالشيء الذي ركز الى الآن كل نشاط ذاكرتي وفعاليتها على نقطة واحدة وموضوع واحد ، وبتعبير آخر : هَبْ أنني نمت ، فسترى هذه الذكريات الهامدة الساكنة عندئذ أنّ العائق قد أزيح وأبعد وانفتح الباب الخفي الذي بقي مغلقاً حتى ذلك الحين في قبو الشعور ، فتنتقل اليها الحركة وستتحرك وتنهض وتقدّم في ليل اللا شعور رقصة موت مريعة وستنطلق كلها معاً نحو الباب الموارب . وتريد كلها المرور . على أنها لا تستطيع ،

فهي كثيرة وأكثر مما يتسع لها الباب بكثير . وبهذه الكثرة التي استدعيت واحتشدت ، فأيّها سيكون المنتقى المختار ؟ ستحذر هذا من دونُ عناء . وفي هذه اللحظة ولما أفقت سمح لتلك الذكريات التي كان في وسعها أن تعتمد على علاقات تقارب مع وضعي الحالي وملاحظاتي الراهنة . فهي الآن أشكال أكثر ضبابية وابهاماً ترتسم أمام نظري . فالأصوات التي تصل إلى أذني هي أكثر ابهاماً والاحساس المنتشر على صفحة جسدي هو أكثر غموضاً . ومقابل ذلك فإن الاحساسيس التي تتناهى الي من أعماق جسدي لكثيرة ولا تحصر في عدد . أما من بين كل أطياف الذكرى هذه التي تطمح إلى أن تتجمل باللون والنغم ، أو بالمادة ، فلن تنجح إلاَّ تلك التي يمكنها أن تماثل ذرة الضوء الملونة التي شاهدتها والأصوات الداخلية والخارجية التابعة لي ، وتنسجم ، فضلاً عن ذلك ، مع الحالة النفسيةَ العامة التي تؤثر في انطباعاتي العضوية . وحين تحصل العلاقة بين الذكرى والاحساس أرى عندئذٍ حلماً .»[٣٢] .

ويؤكد برغسون الفرق بين حالة اليقظة وحالة النوم فيقول : «أتسألني عما أفعل حين أحلم ؟ أريد أن أقول لك بادىء ذي بدء ماذا تفعل حين تستيقظ . أنت تأخذني أنا ، ذات الحلم ، وتأخذني أنا ، كلية ماضيك ، وبالجمع والحشد المتواصل تودي بي إلى أن أحبس نفسي في دائرة صغيرة كل الصغر ، ترسمها أنت حول تصرفك الحالي . وهذا يعني استيقاظاً . وهذا يعني أن تعيش الحياة النفسية السوية . وهذا صراع . وهذا رغبة وارادة . فهل من حاجة الى أن أشرح لك الحلم أيضاً ؟ إنه الحالة التي تجد نفسك فيها بطبيعة الحال عندما تترك نفسك تسير وحالما تعدل عن التركيز على موضوع واحد وحالما تكف عن أن تطلب وتشاء . وحين تريد أن تعرف المزيد وحين تطلب شرحاً وايضاحاً فاسأل نفسك كيف تقدم ارادتك على الشيء لكي تتوصل إليه في لحظة الاستيقاظ بحيث يتركز كل ما عندك في نفسك على نحو لا شعوري على النقطة التي تهمك . ولكن عليك ، فضلاً عن ذلك ، أن

٣٢) انظر : برغسون ، هنري : الحلم ، في الطاقة النفسية ، مقالات ومحاضرات ، فيينا ١٩٢٨ ، ص ٨٤ وما بعد .

تتوجه الى علم نفس (سيكولوجية) الاستيقاظ . فمن شأنه أن يجيبك إذ أن الاستيقاظ والارادة شيء واحد .»[٣٣] .

إنَّ برغسون يُبرز بصورة خاصة الفرقَ بين حالة اليقظة وحالة النوم ، مما يطابق الرأي الذي هو أساس لنظريتي في الأحلام . فنحن نتمايز في أثناء ذلك بأنَّ برغسون يذهب إلى أننا نكون غير مهتمين في الحلم ولا نكترث إلاَّ للتهيجات الجسدية . على حين أرى أنا أننا نكون مهتمين اهتماماً شديداً برغباتنا الخاصة ومخاوفنا ومعارفنا وآرائنا حتى لو لم نهتم بمهمة التغلب على الواقع .

ويتضح لنا من هذه النظرة الاجمالية الموجزة في تاريخ تفسير الأحلام اننا في هذا المجال كما في مجالات أخرى كثيرة من مجالات علم الانسان لا حجة كبيرة لدينا للافتراض والظن بأننا نعرف عن ذلك أكثر مما عرفته حضارات الماضي العظيمة . على أنَّ هنالك بعض الاكتشافات التي لا يمكن ايجادها في أية نظرية من النظريات القديمة ، من مثل مبدأ فرويد في التداعي الحر بصفته مفتاحاً لفهم الاحلام ورأيه في طبيعة الحلم وعمله ، لا سيما نظره الثاقب في آلية التكثيف والنقل . وحتى لو شغل المرء نفسه بالأحلام أعواماً كثيرة فإنَّ المرء سيعاوده العجب دائماً حين يرى كيف تتواءم تداعيات تنشأ من ذكريات مختلفة كثيرة آتية في كثير من الأحيان من مكان بعيد وكيف تمكّن هذه التداعيات من الكشف عن صورة الأفكار الحقيقية للنائم تحت الحلم الصريح الذي كثيراً ما يكون غامضاً أو محيّراً . وفي ما يتعلق بمضمون نظريات الحلم القديمة فإني أود أن أكتفي بالقول ملخصاً إن من بين مَعظم الذين اهتموا بالأحلام من ذهب مذهباً أو آخر الى أن «الأحلام إمّا أنْ تكون كشفاً وإظهاراً لطبيعتنا الحيوانية التي هي باب الخداع والوهم أو أنْ تكون كشفاً واعلاناً لأسمى قوى العقل التي هي باب الحقيقة . ويعتقد بعضهم ، كما يعتقد فرويد ، أنَّ الأحلام هي كلُّها بحسب طبيعتها لا عقلانية . ويرى فيها آخرون ، كما يرى يونغ ، كشفاً لحكمة أسمى . على أن كثيرين من العلماء يشاطرون أيضاً الرأي المطروح في هذا الكتاب أنَّ الأحلام ليس لها نصيبها في طبيعتنا اللاعقلانية فحسب ، بل في طبيعتنا العقلانية أيضاً ، وأن هدف فن تفسير الأحلام أن يرى متى تتيح لنا ذاتنا الفضلى وطبيعتنا الحيوانية أن نعيها في الحلم .

---

٣٣) المرجع نفسه ، ص ٩٢ وما بعد .

الفصل السادس :

فن تفسير الأحلام

إنَّ فهم لغة الحلم فنٌّ يتطلب ، كما يتطلب أيُّ فن آخر ، معرفةً وموهبةً وخبرةً وجلداً . وليس في وسع المرء أن يكتسب الموهبة والاستخدام العملي للشيء المكتسب بالتعلّم ثم الصبر من الكتب . أما المعرفة المطلوبة لفهم لغة الحلم فيمكن توصيلها ، وهذا هو غرض هذا الفصل . ولما أنَّ هذا الكتاب كُتِب لغير مختصين ولطلبة في الفصول الدراسية الأولى فانني سأحاول الاّ أسوق هنا إلاّ أمثلة بسيطة نسبياً لأوضح أهم مبادىء تفسير الأحلام .

ومن تأملاتنا النظرية في معنى الحلم ووظيفته ينتج أن احدى أهم وأعقد مسائل تفسير الحلم تنحصر في أننا نرى هل يعبر حلم من الأحلام عن رغبة لا عقلانية وعن تحقيقها، عن خوف بسيط أم رعب ، أم يعبر عن رؤية في القوى الداخلية أو الخارجية والأحداث . فهل يمكن فهمُ الحلم بأنه صوت ذاتنا الدنيا أم العليا وكيف يمكننا أن نكتشف بأي مفتاح ينفتح لنا الحلم ؟

وهنالك أسئلة أخرى تتعلق بتقنية تفسير الأحلام : هل نحتاج إلى تداعيات الحالم ، كما يسلّم فرويد بذلك ، أم أننا نستطيع أن نفهم الحلم من دونها ؟ وفضلاً عن ذلك لا بدَّ من السؤال عن علاقة الحلم بآخر الحوادث وأجدّها . ولا سيما بما لاقاه الحالم في يوم سابق للحلم ، ثم علاقة الحلم بشخصية الحالم كلها وبمخاوفه ورغباته التي تتأصل في طبعه .

وأود أن أبدأ بحلم بسيط يبين أنه ليس هنالك من أحلام تتناول مادة لا مدلول لها ولا أهمية :

«امرأة شابة تهتم بمسائل تفسير الأحلام . تروي لزوجها في أثناء تناول الفطور : «في هذه الليلة رأيت حلماً يبيّن أن هنالك أيضاً أحلاماً لا معنى لها . حلمت فقط بأنني قدمت لك فراولة للفطور» . ويضحك الزوج ويقول : «الظاهر أنك نسيت أن الفراولة هي الفاكهة الوحيدة التي لا آكلها .» ويظهر أن الحلم ليس تافهاً البتة . فهي تقدم لزوجها شيئاً تعرف عنه أنه لا يستطيع أن يقبله وأن هذا الشيء لا ينفعه ولا يبهجه . فهل يتبيّن من الحلم أنها إنسان تودّ أن تخيب أمل الآخر الذي يلذ له ويطيب أن تقدم له الشيء الذي لا يستطيع الانتفاع منه ؟ فهل الحلم رمز إلى صراع عميق في زواج كلا الشخصين سببه طبعهما ، ولكنه بقي صراعاً لا علم للزوجة به البتة ؟ أم أنَّ الحلم رد فعل على خيبة أمل سببها لها زوجها في يوم سابق لذلك وتعبير عن سخط عابر تتخلص منه بأن تحلم ليلاً بأنها ثأرت لذلك ؟ وليس في وسعنا أن نجيب عن هذه الأسئلة من دون أن نعرف المزيد عن الحالة وعن زواجها . على أننا نعرف تمام المعرفة أن الحلم ليس تافهاً البتة ؟ .

والحلم التالي أكثر تعقيداً ولو لم يكن صعباً فهمه ، وهو أنَّ «محامياً في الثامنة والعشرين من عمره يتذكر عند الاستيقاظ الحلم التالي الذي يرويه فيما بعد للمحلل النفساني : «رأيت نفسي راكباً ظهر جواد حربي أبيض وأقوم باستعراض حربي لجنود كثر هتفوا لي كلهم هتافاً حاداً .» .

والسؤال الأول الذي طرحه المحلل النفساني على الحالم هو سؤال عام تقريباً : «ما الشيء الذي خطر ببالك في أثناء ذلك ؟» ويجيب الرجل : «لا شيء ؛ فالحلم سخيف . ولتعلم حق العلم أن الحرب والجيش بغيضان في نظري وأنه لمن المؤكد أنه لا رغبة لي في أن أكون جنرالاً .» ويضيف قائلاً : «لا أريد أن أكون موضع الاهتمام ومحط الأنظار وأن يحدِّق بي آلاف الجنود سواء أهتفوا لي أم لم يهتفوا . ومما قلته لك تعرف عن مشاكلي الوظيفية كم يصعب علي أن أرافع في قضية أمام المحكمة إذا نظر إليَّ الجميع .» ويجيب المحلل النفساني : «ومع هذا يصح أن الموضوع يتعلق بحلمك وأنك رسمت خطة العمل وخصصت لنفسك دورك . ورغم كل السخافات الظاهرة يجب أن يكون للحلم معنى ما ومضمون . ولنبدأ ، إذاً ، بتداعياتك الخاصة بمضامين الحلم . ركّز على طيف الخيال وأنت تمتطي ظهر الجواد الأبيض والفرق تهتف لك وقل لي ما يخطر ببالك في أثناء

ذلك !» «عجيب أنني الآن أرى الصورة التي كثيراً ما تأملتها وأنا في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة . كانت صورة نابليون . والحق أنه امتطى صهوة جواد أبيض وتقدم الجيوش . لكن الجنود في الصورة لم يهتفوا له .» .

«هذه الذكرى هي ، لا شك ، مهمة . حدثني المزيد عن ميلك إلى هذه الصورة واهتمامك بنابليون .»

«أستطيع ان أحكي لك الكثير عن ذلك . على أن هذا يزعجني بعض الشيء . إذ أنني كنت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة خجولاً إلى حد ما . ولم أكن أجيد الرياضة وكنت أخاف من الشباب . أجل ، الآن تخطر ببالي واقعة من ذلك العهد كنت نسيتها تماماً . كنت أميل الى أحد أولئك الشباب الأقوياء وكان في ودي اتخاذه صديقاً . وما كنا تبادلنا حتى ذلك الحين الحديث . لكنني أملت ألاّ يعرض عني لو أننا تعارفنا على نحو أفضل . واستجمعت شجاعتي ذات يوم ومضيت إليه وسألته هل يريد أن يذهب معي الى البيت . فعندي مجهر وفي استطاعتي أن أريه مجموعة من الأشياء المهمة الممتعة . ونظر إلي لحظة ثم أخذ يضحك واستغرق في الضحك :«أنت ، أيها الأخرق ، اذهب إلى البيت وادعُ بعض صديقات أختك الصغيرات .» واستدرت لكي أخفي انتحابي . آنذاك أخذت التهم الكتب عن نابليون . وجمعت صوراً عنه وسبحت في أحلام اليقظة لأصير مثله : جبرالاً مشهوراً تعجب به الدنيا كلها . ألم يكن هو أيضاً صغيراً . ألم يكن أيضاً خجولا في صباه ؟ مثلي أنا ؟ ولماذا لا ينبغي علي أن أتوصل الى ما توصل هو اليه ؟ وحلمت ساعات طويلة في النهار على أنني لم أشغل نفسي في أثناء ذلك بالوسائل والطرق المؤدية إلى ذلك ، بل إنَّ ما شغلني بصورة دائمة لم يكن إلاّ الأمر الواقع . كنت نابليون ، محط الاعجاب والحسد ، ومع هذا كنت سمحاً كريماً وعلى استعداد لأن أسامح وشاتي . ولما التحقت بالكلية كنت تغلبت على تبجيلي للبطل وعلى أحلام اليقظة المتعلقة بنابليون . والحق أنني لم أعد أفكر منذ سنوات كثيرة بتلك الفترة . وإنه لأكيد أنني لم أتحدث بعد مع أي شخص آخر عن ذلك . ولا يزال هذا ، في نظري أنا ، مؤلماً بشكلٍ أو بآخر أن أتحدث معك عن ذلك» . «لقد نسيت هذا ، أما الأنا الأخرى عندك التي تحدّد الكثير من أعمالك ومشاعرك وتحسن الاختفاء عما تحسه وتراه في النهار وتتوق بصورة دائمة إلى أن

تكون ذائعة الصيت ومحط الاعجاب وذات سلطة ونفوذ . وهذه الأنا الأخرى تكلمت إليك الليلة الأخيرة . ولكن لنرَ لماذا كان هذا بالذات هو الحادثة في الليلة الأخيرة . حدّثني عما حدث أمس وما كان مهماً في نظرك» .

«لا شيء البتة . كان يوماً مثل بقية الأيام الأخرى . ذهبت إلى المكتب وجمعت المادة كلها من أجل مذكرة ثم عدت إلى البيت وأكلت ثم ذهبت إلى دار العرض وبعد ذلك نمت . كان هذا كل شيء» .

«على أنَّ هذا ، كما يبدو لي بوضوح ، ليس بعد سبباً لركوبك على جواد حربي أبيض . حدثني المزيد عما حدث في مكتبك .»

«الحق انه ليخطر الآن ببالي شيء ما . على أنه لا يمكن أن تكون له علاقة بالحلم . . والآن ، ومع هذا ، سأرويه لك . لما دخلت غرفة رئيسي ، الرئيس الأعلى للشركة الذي كنت جمعت المواد كلها له اكتشفت خطأ كنت أخطأته . ونظر إلي نظرة ناقدة فاحصة وعلق قائلاً : «الحق أنه يجب علي أن أعجب ـ كنت ظننت أنك ستتقن عملك خير اتقان .» وفي اللحظة الاولى خفت من ذلك ايما خوف . ثم خطر ببالي فجأة أنه لن يضمني فيما بعد إلى الشركة شريكاً له كما كنت أملت . لكنني قلت في نفسي أنَّ هذا كان سخفاً أن كل انسان يمكن أن يخطىء مرة واحدة وأنه لم يكن إلاَّ سيء المزاج وأن هذه الحادثة العرضية لن تؤثر في مستقبلي أي تأثير . وفي أثناء العصر نسيت الحادثة .»

«وكيف كان مزاجك بعدئذ ؟ هل كنت عصبياً أم مكتئباً ؟»

«ليس على الإطلاق . بل على العكس ، كنت تعباً بعض الشيء وكنت نعسان . لقد صعب علي أن أتابع العمل وكنت مسروراً جداً لما حان الوقت لأستطيع أن أغادر المكتب .»

«والشيء الأخير الذي كان مهماً لك في ذلك اليوم كان زيارتك لدار العرض . هل لك أن تحدثني عن موضوع الفيلم ؟»

«أجل . وكان اسم الفيلم «جواريس» ولقد أعجبني جداً ، حتى إني بكيت فيه قليلاً .»

«وعند أي موضع ؟»

«في باديء الأمر عند وصف فقر جواريس وآلامه ، ثم عندما انتصر . ويصعب علي أن أتذكر فيلماً آخر أثّر فيَّ وحرّك مشاعري كما أثّر فيَّ هو .»

«ثم أويت إلى النوم ونمت ورأيت نفسك على ظهر الجواد الأبيض على حين غمرك الجنود بالهتاف والتهليل . ها أنت الآن تفهم على نحو أفضل بقليل وتعرف لماذا حلمت بهذا ، أليس كذلك ؟ لقد أحسست وأنت فتى بالخجل وأنك على الهامش . ونعرف من عملنا حتى الآن أن لهذا علاقته القوية بوالدك الذي كان جدّ فخور بنجاحه وكان عاجزاً كل العجز عن أن يقترب منك ويحسّ بميل وعاطفة إليك أو أن يظهر لك ذلك على الأقل ؛ ولم يفطن إلى أن يشجعك ويقويك . فالحادثة التي تذكرها اليوم ، أي الرفض الصادر عن الصبي الفظ ، كانت آخر حلقة من سلسلة طويلة ، إن صحّ التعبير . فاحساسك بالذات كان تأذى أذى كبيراً فيما مضى . وهذا الحدث الثانوي العابر لم يأتِ إلاّ مؤكداً لك في أنك لن تفلح قط في أن تجاري أباك في أعماله وأفعاله وأنك لن تنجز شيئاً وأن الناس الذين أعجبت بهم سيرفضونك دائماً . فماذا كان في وسعك أن تفعل ؟ لقد لجأتَ إلى أخيلتك التي وصلت فيها الى ما ظننت أنك لن تتمكن من تحقيقه في الحياة الواقعية . وفي عالم الخيال حيث لم يستطع أحد أن يدخل ويرفضك كنت أنت هنا نابليون ، البطل العظيم ، الذي عجب به الآلاف . وربما كان الأهم من ذلك أنك أنت نفسك أعجبت به . وما دمت قادراً على الحفاظ على هذه الأخيلة فقد حمتك هذه من الألم الحاد الذي سببته لك مشاعر النقص في الاتصال بالواقع الخارجي . ثم جئت الى الكلية . ولم تعد الآن وقفاً على أبيك . ووجدت بعض الاشباع في دراساتك . وأحسست أنك قادر على أن تبدأ بداية جديدة وأحسن . وفضلاً عن ذلك خجلت من أحلام اليقظة الصبيانية التي كنت تحلمها ، وعلى هذا نحيتها جانباً . وأحسست أنك في طريقك لأن تصير الرجل الحقّ . . على أن هذه الطمأنينة كانت ، كما رأينا ، شيئاً خادعاً مضللاً . وخفت من كل امتحان خوفاً رهيباً . وأحسست بأنه ما من فتاة شابة يمكن أن تهتم بك إذا ما برز شاب آخر غيرك على المسرح . وخشيت دائماً نقد رئيسك . وهذا يفضي بنا إلى الحوادث في يوم الحلم . والشيء الذي كنت نويت أن تتجنبه حتماً حدث ـ لقد كان على رئيسك أن يؤنبك ويلومك . فالاحساس القديم بالقصور والتقصير برز في نفسك مرة أخرى ، على أنك أقصيته جانباً . وأحسست بالتعب

عوضا من أن تحسّ بالخوف والحزن . ثم شاهدت الفيلم السينمائي الذي مسّ فيك أحلام اليقظة القديمة وحرّكها وحرّك البطل الذي بات منقذ شعبه المحبوب بعد أن كان محتقراً في صباه وقاصراً مثلما تخيلت نفسك في صباك أيضاً بأنك البطل المحبوب الذي هلل له الجميع وهتفوا . ألا ترى أنك لم تكفّ بعد عن أن تهرب الى التخيلات عن المجد والشرف وأنك لم تحطم بعد الجسور التي تقودك الى بلد الخيال ، بل إنك لتهمّ أن تعود دائماً إلى هناك حالما يخيب الواقع أملك أو يبدو لك مصدر تهديد ووعيد ؟ ألا ترى أن هذا هو بالذات هو ما يسهم دائماً في أن يستثير الخطر الذي تخافه مثل هذا الخوف بأنك ما زلت طفلاً لا بالغاً وأنك ، لهذا ، يستخف بك البالغون وأنت نفسك تستخف بنفسك ؟»

ويصلح هذا الحلم جيداً لكي نبحث مختلف العناصر المهمة لفن تفسير الأحلام . فهل هو حلم تحقيق رغبة أم يتضمن رؤية ومعرفة ؟ ولا يمكن أن يكون هنالك أدنى شك في أنّ المسألة هنا هي مسألة تحقيق رغبة لا معقولة في المجد والنجاح والتقدير نماها الحالم لتكون رد فعل على الضربات القاسية التي نزلت بكبريائه وغروره . وعلى هذه الطبيعة اللا عقلانية لهذه الرغبة يدل الواقع أنه لا يختار لنفسه رمزاً هو في الحقيقة ذو معنىً وممكن بلوغه . فهو ، في الحقيقة ، لا يهتم بأشياء عسكرية ولم يبذل أدنى جهد في أن يصبح جنرالاً . ومن المؤكد أنه لن يقدم على ذلك في المستقبل . وترجع هذه المادة الى أحلام يقظة فجة لمراهق متردد .

فأي دور لتداعياته عند المحاولة لفهم الحلم ؟ أكان في وسعنا أن نفهمه أيضاً لو لم تكن تداعيات الحالم في حوزتنا ؟ فالرموز المستعملة في الحلم رموز كلية . فالرجل على صهوة الجواد الحربي الذي يهتف له الجنود رمز مفهوم لدى الجميع ، فهو يرمز للعظمة وللنفوذ والاعجاب . (وطبيعي أنه رمز كلي بالمعنى المحدد أنه مشترك بين بعض الحضارات لا كلّها بطبيعة الحال .) ومن تداعياته المتعلقة بتبجيل نابليون نستمد الرؤية الأخرى في السبب لاختياره هذا الرمز بالذات وفي نوعية الوظيفة النفسية التي يتمتع بها هذا الرمز . ولو لم يكن لدينا هذا التداعي لاستطعنا الاكتفاء بالقول إنّ لدى الحالم تصورات وأخيلة عن المجد والسلطة . ومن حيث تبجيل نابليون من سن المراهقة نفهم أنّ رموز الحلم هذه تعني احياء خيال

قديم قام مقام تعويض عن احساسه بالهزيمة والعجز .

ونرى أيضاً معنى العلاقة بين الحلم وحوادث مهمة في اليوم السابق . فالحالم أزاح عن وعي إحساس الخيبة والخوف من نقد رئيسه من أفكاره . ويبيّن لنا الحلم أن النقد كان أصاب منه مرة أخرى موضعاً حساساً ، أي الخوف من القصور والعجز والخيبة وأنه ، أي النقد ، مهّد من جديد طريق الهرب القديمة ، أي الحلم بالمجد في اليقظة . وحلم اليقظة هذا كان له دائماً حضوره المستتر ، على أنه لم يصبح صريحاً ، ولم يظهر في الحلم ، إلاّ لأنه كان لقي في الحقيقة شيئاً مماثلاً . وقلّ أن يكون هنالك حلم ليس هو رد فعل ، وكثيراً ما يكون أيضاً ردّ فعل متأخراً ، على تجربة أو حادثة سابقة ذات أهمية ومضمون . والحق انه ليحدث أنّ الحلم كثيراً ما يبين أن حادثة عاشها المرء بشكل واعٍ على أنها غير مهمة ، لكنها كانت مهمة وأنّ الحلم يدلنا على الشيء الذي تقوم به أهميته لنا . ومن أجل الفهم الكامل يجب على المرء أن يفهم حلماً من الاحلام على أنه رد فعل على حادثة مهمة وقعت قبل أن يحصل الحلم .

ونصادف هنا أيضاً علاقة أخرى ، وإن كانت من نوع آخر ، بحادثة من يوم سابق هي حادثة الفيلم الذي اشتمل على مادة مماثلة مثل احلام الحالم في اليقظة . وإنه لمن المدهش دائماً وأبداً أن نرى كيف استطاع الحلم أن يحرك شتى الخيوط مع بعضها . أما كان الحالم رأى هذا الحلم لو لم يَرَ هذا الفيلم ؟ وإنه لمحال أن نجيب عن هذا السؤال . لا شك في أنّ حادثته مع رئيسه وتخيله عن المجد والشرف المنقوش في أعماق النفس كانا كافيين لكي ينتجا هذا الحلم . على أنه ربما كان على الفيلم أن يُضاف إلى ذلك كي يجعل الخيال الرائع العظيم يبرز في مثل هذا الوضوح . ولكن حتى لو استطاع المرء أن يجيب عن السؤال فإن الجواب لن يـ ذا معنى وأهمية . فالمهم أن نفهم نص الحلم الذي انحبك فيه الماضي والحاضر الطبع والحادثة الواقعية في صورة واحدة تخبرنا بالكثير عن دوافع الحالم ، عن المخاطر التي يجب عليه أن يحمي نفسه منها وعن الأهداف التي يجب أن يضعها نصب عينيه لكي يسعد . والحلم التالي هو مثال آخر عن الأحلام التي يمكن فهمها بمفهوم فرويد لتحقيق الرغبة . والحالم رجل في الثلاثين من عمره وعازب ، عانى منذ سنوات كثيرة من نوبات خوف شديدة ومن احساس بالذنب غاية في الشدّة

ومن تصورات وأوهام انتحار شبه دائمة . فقد أحسّ بالذنب بسبب خبثه المزعوم وميوله الخبيثة . واتهم نفسه بأنّ لديه الحاجة لأن يدمر كل شيء وكل إنسان . وأنّ لديه الرغبة في أن يقتل الأطفال . وفي أخيلته وأوهامه بدا له الانتحار المخرج الوحيد لأن يحمي العالم من وجوده الشرير ويكفر عن خبثه وشرّه. على أنه كان لهذه التخيلات وجه آخر : فبعد تضحيته بنفسه أمل بأن يولد ثانية إنساناً قديراً محبوباً من كل الناس يفوق الآخرين كلهم قوة وحكمة وخيراً . وفي بداية معالجته بالتحليل النفسي رأى الحلم التالي :

«اصعد جبلاً . وعلى يمين الطريق وشماله أجساد رجال موتى . وما من أحد حيّ وحين أصل الى القمة أرى أمي جالسة هناك . وفجأة أعود طفلاً صغيراً وأجلس في حجرها .»

واستيقظ الحالم من حلمه وهو يحس بالخوف . وكان الخوف عذبه في وقت الحلم بحيث كان عاجزاً عن أي تداعٍ عن أية دقيقة من دقائق الحلم وتفاصيله . ولم يستطع أن يتذكر حادثة مميزة من اليوم السابق . على أنّ معنى الحلم يصبح واضحاً حين نعرض لأفكار الحالم وتصوراته من الفترة السابقة للحلم . فهو أكبر الأبناء وله أخ أصغر منه بسنة واحدة . والأب قسّ قاسٍ مستبد لم يكنّ للابن الأكبر وللناس الآخرين أيضاً إلاّ القليل من الحب . وتنحصر علاقته الوحيدة بالابن الأصغر في أنه كان يعلمه ويوبخه وينصحه ويسخر منه ويعاقبه . كان الطفل يخافه خوفاً جعله يمنح أمه ثقته لما قالت له إنه لو لم تتدخل بينهما لكان الأب قتله . فالأم كانت تختلف عن الأب كل الاختلاف . كان امرأة جشعة بطبيعتها المَرَضية خاب أملها في زواجها ولم تهتم بأحد ولا بشيء ، اللهم إلاّ بالسيطرة على أطفالها . على أنها أنشأت رابطة قوية بمولودها الأول بصورة خاصة . فقد بثّت في روعة الخوف على حين كانت تحكي له حكايات عن أشباح مخيفة خطيرة ثم طرحت نفسها حامية له تصلي له وترشده وتقوّيه بحيث يصبح ذات يوم أقوى من أبيه المهيب . ولما ولد الابن الأصغر تبيّن أن الأكبر انزعج في أعماقه وبات غيورا . فهو نفسه لم يستطع أن يتذكر تلك الفترة . على أن أقرباء له حكوا عن علامات واضحة بينة لغيرة عميقة بُعيد مولد الأخ الصغير . فهذه الغيرة ما كانت اتخذت أبعاداً في الخطورة كما كانت الحال بعد سنتين أو ثلاث لولم يصطف الأب المولود الجديد ابناً «له» . ولا نعرف

السبب لذلك . ولعله فعل ذلك لأنه كان بينهما شبه جسدي ملفت للنظر ، أو ربما أيضاً لأن زوجته كانت منحازة الى ابنها المحبوب بطريقة ما . ولما صار الحالم في الرابعة أو الخامسة من عمره كانت المنافسة بين كلا الأخوين تعمل عملها واشتدت عاماً بعد عام . وانعكس في عداء الاخوين عداء الأبوين الذي حسمه الطفلان بالمشادات والقتال . وفي هذه السن وُضعت الأسس لعصاب خطير فيما بعد عند الحالم ، وهو العداء الشديد للأخ والرغبة الحادة في أن يبرهن بأنه متفوق عليه ، ثم الخوف الرهيب من الأب تغذّيه وتقوّيه مشاعر الذنب لأنه كان يكره الأخ ويحمل الرغبة في أن يصبح فيما بعد أقوى من الأب . فالاحساس بالخوف والذنب والعجز بقي يقوى ويزداد ويتوسع على يد الأم . وفضلاً عن ذلك ، وكما ذكرنا ، فقد بثت الروع في نفسه ؛ على أنها قدمت له حلاً مغرياً أيضاً وهو أنه إذا بقي طفلها الصغير الذي يخصها وحدها ولا يهمه أحد آخر غيرها فإنها ستجعله قوياً ومتفوقاً على الخصم المكروه . وكان هذا هو الأساس لأحلام اليقظة عنده المتعلقة بالسلطة والعظمة ، وكان الأساس أيضاً لرابطته القوية بالأم ، وهذا يعني حالة التبعية الطفولية التي حملته على أن يتردد في أن يقبل دوره فتىً يافعاً .

ومن السهل فهم الحلم أمام هذه الخلفية . «إنه يصعد الجبل» ـ فطموحه إلى أن يتفوق على الجميع ويبزهم هو هدف سعيه واجتهاده . «وعلى جانبي الطريق ، الايمن والايسر ، أجساد رجال موتى ؛ وما من أحد حيّ» ـ تحقيق رغبته في القضاء على كل المنافسين . ولما أنه يحسّ بالعجز الشديد فلا يستطيع أن يأمن جانبهم إلاّ إذا كانوا أمواتاً . «وحين يصل إلى القمة» ـ وحين يحقق هدف رغباته «يجد أمه هناك ويجلس في حجرها» ـ فهو يتحد مع أمه من جديد وهو طفلها الذي يتلقى منها القوة والحماية . ويتم القضاء على المنافسين كلهم ـ فهو ينفرد بها وهو وحيد معها وحرّ . ولا داعي لأي خوف بعد الآن . ومع هذا يستفيق وهو يحس بالخوف . فتحقيق رغباته اللا معقولة بالذات هو تهديد لشخصيته العقلانية البالغة التي تطمح الى الصحة والسعادة . والثمن لتحقيق رغباته الطفولية أن يبقى الطفل الرضيع الذي لا يحق له أن يفكر التفكير المستقل ، وليس له أن يحبّ أحداً غير أمه . فتحقيق رغباته بالذات يثير الخوف .

ومن ناحية ما هنالك فرق كبير بين هذا الحلم والحلم السابق الذكر . فالحالم

الأول إنسان معوق خجول يعاني في الحياة من صعوبات تنتقص حظه وتضعفه هو . وإنَّ حادثة تافهة ، مثل نقد رئيسه ، تجرحه في الصميم وترده الى احلام اليقظة من عهد طفولته . على أنه ، من الناحية الاجمالية ، يؤدي وظيفته تأدية عادية سوية : وإنَّ حادثة كهذه ضرورية لكي تجعل تصوراته عن المجد والشرف تعاود الظهور في النوم . أما الحالم الآخر فهو على حال من المرض الشديد . فحياته كلها ، سواء في النوم أم اليقظة ، نهبٌ للمخاوف ومشاعر الذنب والرغبة الشديدة في العودة الى الأم . وليس من حاجة إلى حادثة متميزة لكي توجد الحلم . إن كل حادثة يمكن أن تحدث هذا لأنه لا يعيش حياته على أنها حقيقة وانما يعيشها في ضوء تجاربه السابقة .

ومن ناحية أخرى يتشابه الحلمان كلاهما . فهما يدلان على تحقيق رغبات لا معقولة ترجع إلى عهد الطفولة . فالحلم الأول يثير اشباعاً لأنه يمكن الجمع بين الرغبة والأهداف التقليدية لفتى يافع (السلطة والجاه) . ويثير الحلم الثاني الخوف لأنه لا يمكن الجمع بحال من الأحوال بينه وبين حياة فتى يافع . وكلا الحلمين يتكلم لغة رموز كلية ؛ وفي الامكان فهمها أيضاً من دون تداعيات حتى لو اضطررنا أيضاً ، من أجل الإحاطة بمعناها ومدلولها ، إلى أن نعرف شيئاً ما عن ماضي الحالم الشخصي . ولكن حتى لو لم نعرف أي شيء عن هذا الماضي سنحصل من هذين الحلمين على تصور معين عن طبيعة هذه اللغة .

وأضيف هنا حلمين قصيرين لهما مضمون مماثل، لكنهما يختلفان عن الحلمين الآخرين من حيث الدلالة . وصاحب الحلمين كليهما شاب لوطي .

«الحلم الأول : أرى نفسي احمل مسدساً في اليد . وتستطيل الماسورة على نحو غريب» .

الحلم الثاني : امسك بعصا ضخمة ثقيلة . واحس بأنني أضرب شخصاً ما ، مع أنه ليس من أحد في الحلم» .

واستناداً الى نظرية فرويد يجب علينا أن نذهب إلى أن كلا الحلمين يعبّر عن رغبة لواطية ، على حين يمثل المسدس في الحلم الأول والعصا في الحلم الثاني العضو الذكري . وحين سئل المريض عما خطر بباله من حوادث الأيام السابقة في أثناء ذلك ذكر حادثتين متباينتين كل التباين :

في المساء وأمام صالة المسدسات كان التقى شاباً آخر وأحسّ بشهوة جنسية شديدة . وقبل أن ينام كان استسلم إلى أخيلة وتصورات جنسية كان محطها ذلك الشاب .

واستدرجته مناقشة الحلم الثاني التي جاءت بعد نحو من شهرين إلى أن يذكر تداعياً آخر . كان قد اغتاظ من أستاذه في المعهد غيظاً شديداً لأنه أحس بأن هذا الاستاذ يعامله معاملة جائرة . وكان على حال من الخجل الشديد بحيث يكلم الاستاذ في ذلك . على أنه فكر قبل النوم بخطة للانتقام ، الشيء الذي كان من عادته أن يستسلم مساء في السرير لأحلام اليقظة . ثم إن تداعياً آخر له علاقته بالعصا كان التذكر بأن أحد أساتذته الذي استثقل ظله وهو في العاشرة كان ضرب صبياً آخر بعصا . وكان يخشى هذا المعلم دائماً ، وحال هذا الخوف بالذات بينه وبين الافصاح عن غيظه .

وماذا تعني العصا في الحلم الثاني ؟، هل هي أيضاً رمز جنسي ؟ هل تتجلى في هذه الحلم رغبة لوطية خفية مموهة محطها أستاذ المعهد أو ربما المعلم المكرَوه من عهد الطفولة ؟ فحين نسلّم بأن احداث اليوم السابق ، ولا سيما الحالة النفسية للحالم قبيل النوم ، مفاتيح مهمة لرمزية الحلم نفسر عندئذ الرموز تفسيراً متبايناً رغم تشابهها الظاهر .

فالحلم الأول ولي اليوم الذي كان للحالم فيه أخيلة وتصورات لواطية . وعلى هذا يجب أن نفرض بأن المسدس ذا الماسورة المطوّلة يرمز الى القضيب الذكري . ولكن ليس من قبيل المصادفة أن يرمز إلى العضو التناسلي بسلاح . فهذه المساواة الرمزية دليل مهم على الطاقات النفسية التي هي أساس لميول الحالم ونزعاته اللواطية . فالحياة الجنسية ليست في نظره تعبيراً عن الحب ، بل تتجلى فيها الرغبة في السيادة والتدمير . ولأسباب ودوافع لا ضرورة إلى ذكرها هنا كان الحالم خشي منذ زمن مضى ألاّ يكوَن كفؤاً في رجولته . فمشاعر الذنب المبكرة بسبب الاستمناء باليد والخوف من أن يؤذي بذلك أعضاءه التناسلية ، ثم الخوف فيما بعد بأن قضيبه أصغر من قضيب أي فتى آخر ، وغيرة شديدة من الرجال كلهم ، هذا كلّه كان أيقظ في نفسه الشوق إلى علاقات حميمة مع رجال يستطيع أن يظهر عندهم تفوقه ويستعمل عضوه التناسلي سلاحاً قوياً .

أما الحلم الثاني فكان له خلفية عاطفية مختلفة كل الاختلاف . فهو في هذا الحلم كان نام ساخطاً مغتاظاً . وكان عنده من العوائق ما منعه من أن يفصح عن غيظه . حتى إنه كان لديه من الروادع والعوائق في النوم ما منعه من أن يفصح عن غيظه مباشرة بأن يحلم بأنه يضرب أستاذه بالعصا . فهو حلم بأن العصا كانت في يده وأحس بأنه يضرب «أحد ما» . ولما أنه اختار هو بالذات العصا رمزاً لغيظه فإنّ هذا يعود إلى حادثته في الصّغر مع المعلم البغيض الذي كان ضرب الصبي الآخر . فغيظه الحالي من أستاذه امتزج بغيظه القديم من معلمه . فكلا الحلمين مهم لأنهما يبينان المبدأ العام بأنّ رموزاً متشابهة يمكن أن يكون لها معانٍ مختلفة وأنّ التحليل الصحيح والسليم وقف على الحالة النفسية للحالم قبل النوم التي يبقى لها أثرها في أثناء النوم .

وأضيف هنا أيضاً حلماً آخر قصيراً يتضمن أيضاً تحقيق رغبة لا عقلانية ويناقض مناقضة شديدة المشاعر والاحاسيس التي كان الحالم على علم بها . كان الحالم شاباً ذكياً وكان لجأ إلى المعالجة بالتحليل النفسي بسبب مشاعر اكتئاب غير محددة ، مع أنه كان «سوياً» ، إذا ما فهمنا الكلمة «سوّي» بالمعنى التقليدي السطحي . وكان أنهى دراسته قبل أن يبدأ التحليل بسنتين . وعمل منذ ذلك الحين في وظيفة ناسبت اهتماماته وكانت ملائمة من حيث شروط العمل والمرتب وغير ذلك . وعدّه الناس عاملاً جيداً ، بل لامعاً . على أنّ هذه الصورة الخارجية كانت مضللة . كان الضجر وعدم الارتياح الدائمان يملآن صدره . وكان لديه الاحساس بأنه لن ينجز الكثير مثلما كان في طوقه (الأمر الذي صح) ، وأحسّ باليأس رغم نجاحه البادي للعيان . وأحس أيضا أن علاقته برئيسه كانت مزعجة بخاصة ، فرئيسه كان ميالاً إلى أن يتصرف تصرفاً فيه شيء من الاستبداد وإن كان لهذا التصرف حدوده المعقولة . وحار المريض في تصرفه بين الرفض والرضوخ . وكثيراً ما شعر أن المرء طالبه بمطالب غير عادلة ولو لم يكن الأمر كذلك . واعتاد بعدئذ أن يكون سيء المزاج أو أن يدخل في شجار . وأحياناً وقع أيضاً في أخطاء في أثناء مثل هذه «الأعمال القسرية» . ومن جهة أخرى كان جمّ الأدب ، بل كان أقرب إلى الخضوع والخنوع أمام رئيسه والأخرين من ذوي النفوذ والسلطة . وخلافاً لموقفه الثائر المتمرد فقد أعجب برئيسه اعجاباً مبالغاً فيه وكان على فرط كبير من السعادة إذا

ما أثنى عليه رئيسه . فالحيرة الدائمة بين هذين الموقفين كليهما كانت مرهقة جداً وزادت حالة الاكتئاب عنده سوءاً ، يضاف إلى ذلك أنه هاجز من ألمانيا باعتباره خصماً متحمسا للنازية وذلك بعد أن استلم هتلر السلطة . وفي هذه الحال كان خصماً ذكياً متحمساً للنازية ولم يكن «يخالفها في الرأي» فحسب ، وربما كان هذا الاقتناع السياسي خلواً من الشكوك أكثر من أي شيء آخر فكر به أو أحس . وفي وسع المرء أن يتصور دهشته وذهوله لما تذكر ذات صباح الحلم التالي بوضوح وحيوية :

«كنت أجالس هتلر وكنا نتحدث حديثاً لذيذاً ممتعاً ووجدته لطيفاً وكنت فخوراً جداً بأنه أصغى بانتباه كبير إلى ما كان عليَّ أن أقوله . . .» ورداً على السؤال عما قال هتلر أجاب أنه لا يتذكر شيئاً البتة من فحوى الحديث . ولا شك أن الحلم هذا هو تحقيق رغبة ما . والجدير بالملاحظة . أن هذه الرغبة كانت غريبة على تفكيره الواعي غرابة تامة وأنها ظهرت في الحلم بشكل بارز جداً . وإذا كان الحلم مفاجئاً للحالم في لحظة من اللحظات فإنه ، مع ذلك ، ليس في نظرنا غامضاً كل الغموض ومبهماً كل الابهام إذا ما أخذنا بعين الاعتبار بنية طبع الحالم حتى لو لم نعتمد في أثناء ذلك إلاّ على البيانات القليلة المطلع عليها هنا . إنَّ مشكلته الأساسية هي موقفه من السلطة . ففي الحياة اليومية يحار بين الرفض والاعجاب الخاضع الخنوع . ويمثل هتلر الشكل المتطرف للسلطة اللامعقولة ويبيّن الحلم لنا بوضوح أن الجانب الصاغر المستسلم في الحالم قد نما وتطور تطوراً شديداً رغم كرهه له . . ويمكننا الحلم من أن نقدّر قوة هذه الميول الصاغرة بأحسن مما سمحت به الاستفادة من المادة المعلومة . أيعني الحلم أنَّ الحالم هو «حقيقة» إلى جانب النازية وأن كُرْه هتلر ليس «إلاّ» تمويهاً متعمداً لمشاعره الكامنة في الأعماق التي هي مشاعره الحقيقية ؟ وأطرح هذا السؤال لأن الحلم يمكننا من أن نناقش مسألة مهمة لتفسير الاحلام كلها .

وجواب فرويد عن هذا السؤال قد يكون موضحاً نوعاً ما ، وله دلالة كبيرة . وكان سيقول إنَّ المريض لم يحلم في الحقيقة بهتلر . فهتلر رمز لشيء آخر . إنه يمثل الأب الذي يكرهه الشاب ويعجب به . ويصطنع المريض في الحلم ، إذا صحَّ التعبير ، رمز هتلر المناسب جداً ليعبر عن مشاعر لا علاقة لها بالحاضر ، بل

بالماضي ، ولا علاقة لها بوجوده يافعاً ، بل لها علاقة بالطفل الحبيس فيه . وكان فرويد سيضيف أيضاً بأن الشيء واحد بالنسبة لمشاعر المريض تجاه رئيسه . فهي أيضاً لا علاقة لها بالرئيس ، بل نقلت من أبي المريض إلى هذا .

وقد يصح هذا كله بعض الشيء . فامتزاج التمرد بالخضوع نشأ ونما في علاقة المريض بأبيه . على أن الموقف القديم لا يزال موجوداً ويبيّن حضوره أيضاً بخصوص الناس الآخرين الذين يحتك بهم المريض . ويميل هو أيضاً إلى أن يثور ويخضع لهم . فهو وليس الطفل فيه أو «اللا شعور» أو كما يحلو للمرء دائماً أن يصف شخصاً موجوداً فيه في الظاهر ، لكنه ليس هو . فالماضي ، من حيث الاهتمام التاريخي فقط ، ليس بذات أهمية ومعنى إلاّ بقدر ما هو حاضر . وكذلك هو الأمر في عقدة السلطة النفسية للحالم .

ولكن ألا يستحيل الحلم إلى شاهد قوي ضد الحلم إذا لم نستطع القول بسهولة إنه ليس هو وانما هذا الطفل فيه الذي يود أن يقف من هتلر موقف الصديق من الصديق ؟ ألا ينم لنا رغم كل احتجاجات الحالم عن أنه نازيّ «في أعماقه» ولا يعدّ نفسه خصماً لهتلر إلاّ «في الظاهر» ؟

إن تفسيراً كهذا ليغفل عن عامل مهم في تفسير الحلم ، وهو العنصر الكمي . فالأحلام ، إن صح التعبير ، هي مجهر نراقب به العمليات الخفية في أنفسنا . إنَّ ميلاً ضئيلاً نسبياً في بنية الرغبات والمخاوف المعقدة يمكن أن يظهر في الحلم ذا أهمية ومدلول مثل أي ميل آخر له وزنٌ أكبر بكثير في نفس الحالم . وإن غيظاً تافهاً من آخر يمكن مثلاً أن يحدث حلماً يمرض فيه هذا الآخر . ومن ثم لا يقدر على أن يغيظنا مرة أخرى ومع ذلك قد لا يعني هذا أننا مغتاظون منه غيظاً مثل هذا وأننا «في الحقيقة» نتمنى لو يمرض . وتدلنا الأحلام على نوعيّة الرغبات والمخاوف الكامنة ؛ لكنها لا تدلنا على كمها . إنها تمكننا من تحليل كيفي لا كميّ . ولكي نتبين كمَّ ميلٍ من الميول لا بدَّ لنا من أن نحسب حساباً لنواحٍ أخرى ، من مثل تكرار الموضوع المذكور أو موضوعات مماثلة في أحلام أخرى وتداعيات الحالم وتصرفه في حياته اليومية وأشياء أخرى كثيرة ، منها معارضته لتحليل ميل أو نزعة كهذه . كل هذا يمكن أن يصل بنا إلى معرفة أفضل لشدة الرغبات والمخاوف . وبعد فإنه لا يكفي أن نراعي شدة رغبته . ولكي نتمكن من أن نحكم عما تقوم به

الرغبة من دور ووظيفة في الحياة النفسية كلها لا بدَّ لنا من أن نعرف أيضاً القوى التي تشكلت ضد هذا الميل أو الاتجاه الذي تناهضه على أنه دافع سلوك وعمل وتتغلب عليه . على أنَّ هذا بالذات غير كافٍ . فعلينا أن نعرف هل هذه القوى الدفاعية التي تستخدم ضد الرغبات اللا عقلانية لها جذورها بصورة أساسية في الخوف من العقوبة أم من انعدام الحب وأن نعرف إلى أية درجة تقوم على وجود قوى بناءة تقاوم القوى اللا عقلانية المكبوتة ، أو بمعنى أدق ، هل يكبح جماح ميول غريزية بواسطة الخوف أم بواسطة قوى الحب والحنو الأقوى ؛ كل هذه التأملات ضرورية حتماً إذا ما أردنا أن نتخطى التفسير الكيفي للأحلام لكي نحدد كماً أي وزن يكون لرغبات لا عقلانية محددة .

ولنعد ادراجنا الى الرجل الذي حلم عن هتلر . فالحلم لا يبرهن أن موقفه من النازية لم يكن حقيقياً خالصاً أو أنه لم يكن قوياً على نحو خاص . لكنه يبيّن أن الحالم ما زال يفكر في الرغبة في أن يخضع لسلطة لا عقلانية هي ذاتها السلطة التي كرهها كرهاً شديداً ، وذلك بدافع الرغبة في أنه قد لا يجدها بشعة ممقوتة ، كما كان اعتقد .

وإنني ، إلى الآن ، لم أقدّم إلاَّ أحلاماً كان في الامكان أن تطبق عليها نظرية فرويد في تحقيق الرغبات . وموضوعها كلها يدور حول تحقيق وهمي لرغبات لا معقولة في أثناء النوم . ولم نسق في أثناء ذلك إلا تداعيات أقل بكثير مما اعتاد فرويد أن يفعله . والسبب هو أننا وجدنا في حلمين سبق ذكرهما ، وهما «حلم الدراسة النباتية» «وحلم العم» ، أمثلة على أحلام يكون للتداعيات فيها دور لا غنى عنه . وأود الآن أن أعرض أيضاً لبعض الأحلام التي هي أيضاً تحقيق رغبات ؛ على أن الرغبات فيها ليست لا عقلانية كما هي الحال في الأحلام التي عولجت إلى الآن .

إن مثالاً مهماً من نوع تحقيق الرغبة هو الحلم التالي :

«إنني شاهد تجربة . فقد تحوّل رجل إلى حجر . ثم نحتت فنانة من هذا الحجر شكلاً . وتدب الحياة فجأة في هذا الشكل الذي يتجه صوب النحاتة غاضباً . ووقفت أنظر اليه وهو يقتلها وأنا خائف كل الخوف . وينقلب عليَّ بعدئذ . واخال بأنني سأنجو إذا ما أفلحت في أن أقوده الى غرفة النوم حيث

والداي . وأغالبه وأفلح في دفعه الى غرفة النوم حيث يجلس أبواي مع بعض الأصدقاء . على أنهما لا يرفعان النظر حين يريانني أقاتل من أجل حياتي . وأعتقد انه كان عليَّ أن أعرف منذ زمن بعيد أنني لا أهمهما في شيء . وابتسم ابتسامة الظفر .»

هنا ينتهي الحلم . ولكي نفهمه يجب علينا أن نعرف بعض الشيء عن شخص الحالم . فالمسألة تتعلق بطبيب شاب في الرابعة والعشرين يعيش حياة رتيبة ويخضع خضوعاً كلياً لسيطرة أمه التي تحدد وتعيّن ما يحدث في الأسرة . فهو لا يفكر ولا يحس على نحو تلقائي عفوي ويذهب الى المستشفى أداءً للواجب ، ويرحب به الناس لسلوكه المتواضع ، على أنه يشعر بالتعب والاكتئاب ولا يعرف لماذا هو في هذه الدنيا . فهو الابن المطيع الذي يبقى في البيت ويفعل ما تنتظر أمه منه ويكاد لا يحيا حياته الخاصة . فالأم تلح عليه أن يخرج مع فتيات شابات . على أنها تجد دائماً ما تنتقده في كل واحدة حالما يُظهر الابن شيئاً من الاهتمام . وأحياناً يثور ويتمرد حين تطالبه الأم بمطالب أكبر من المعتاد . ثم تجعله يحس الجرح العميق الذي أحدثه في نفسها وتجعله يحس جحوده للجميل . وبهذا يحدث أن مثل فورات الغضب هذه تؤدي إلى فرط لذة في تأنيب الضمير وأنه يبقى خاضعاً مستسلماً لهذه اللذة . وفي اليوم السابق لهذا الحلم كان انتظر حافلة المترو وراقب ثلاثة رجال من عمر واحد تقريباً وهم يتحادثون على رصيف المحطة . ويظهر أنهم كانوا كتبة خرجوا من بيت تجاري إلى البيت . كانوا يتحدثون عن رئيسهم . وتكلم أحدهم عن وجهة نظره في رفع المرتبات في المستقبل . وذكر أحدهم أن رئيسه تحدث اليوم معه عن السياسة . كان حديثاً بين شباب استنزفوا حياتهم الرتيبة واستنفذوها في تفاهة البيت التجاري والاهتمام برئيسهم . ويفزع الحالم فجأة حين يشاهد هؤلاء الناس . ويخطر بباله : «هذا هو أنا ، وهذه هي حياتي ! الحق أنني لست أيضاً بأفضل من هؤلاء الكتبة . فأنا ميّت مثلهم تماماً !» وفي الليلة التالية رأى الحلم المذكور .

ولما أننا نعرف موقف الحالم النفسي العام والسبب الذي أدى إلى الحلم مباشرة فليس من الصعب ، إذاً ، أن نفهمه . فالحالم يرى أنه تحول إلى حجر ولم تعد له مشاعر خاصة ولا أفكار . فهو يحسّ بأنه ميت . ثم يلاحظ أنَّ امرأة تنحت شكلاً من الحجر . ولا شك في أنَّ لهذا الرمز علاقته بأمه وبمعاملتها له . ويدرك إلى أي

حدٍّ جعلت منه شكلاً ميتاً استطاعت أن تسيطر عليه السيطرة التامة . وإذا كان شكا أيضا في حياة اليقظة بين الحين والحين من مطالبها منه فإنه لم يدرك إلى أي حد كانت شكلته . وإلى هنا يشتمل الحلم على رؤية أوضح وأصح بكثير مما كانت لديه في اليقظة . إنها رؤية في موقفه الخاص والدور الذي كان لأمه في حياته . ثم يتغيّر الموقف . ويظهر الحالم بدورين اثنين (كما يحدث كثيراً في الأحلام) . فهو المراقب الذي يشاهد ما يحدث هناك ، على أنه في الوقت نفسه التمثال أيضاً الذي صار حيّاً ويقتل النحاتة محتداً . وهنا يحسّ بغضب على أمه وغيظ كان كبته كبتاً مطلقاً . فلا هو نفسه ولا أي شخص آخر كان سيجده قادراً على مثل هذا الغيظ والحنق . ولا يحسّ هو في الحلم بهذا الحنق على أنه حنقه بل حنق التمثال الذي بعثت فيه الحياة . فهو ، المشاهد المتفرج ، مرتاع من الرجل الغاضب الذي ينقلب بعد ذلك عليه .

هذا الانشطار لشخص ما شطرين يبدأ في الحلم على نحو واضح جداً وهو تجربة أو خبرة نوضحها كلنا ، أحياناً ، كثيراً أو قليلاً . فالحالم يخاف من غيظه هو . والحق أن هذا الغيظ غريب عن تفكيره الشعوري الواعي بحيث إنه يرى الرجل الغاضب بأنه شخص آخر . لكنه ، مع هذا ، «هو» هذا الرجل الغاضب وهو ذاته الغاضبة المنسية التي انبعثت فيها الحياة . فالحالم ، أو المشاهد ، أو الانسان الذي يكونه في الحياة اليومية يحسّ بأن هذا الحنق يهدده ويخاف . والخوف يكون من نفسه هو . ويصارع نفسه ويأمل أنه سينحو حين يأتي بالصراع أو« بالخصم» إلى أبويه . وتتجلى في هذه الفكرة الرغبات التي كانت تسيطر على حياته .

إذا كان عليك أن تتخذ قراراً وإذا لم تتغلب على الصعوبات فأسرع ، إذاً ، إلى أبويك أو إلى أية شخصية سلطوية مسؤولة . سيقولون لك ما ينبغي عليك تفعله وسينقذونك ـ حتى لو كان الثمن بعدئذ تبعية دائمة وعدم رضا . وحين يعقد العزم على أن يدفع بالمهاجم إلى غرفة النوم يتبع طريقته القديمة المطبقة دائماً . على أنه حين يرى أبويه ، ولا سيا أمه التي كان توقع منها العون والحماية والنصح والتي بدا كل شيء في نظره وقفاً على حكمتها وحبها ، فلا يرفع هذان الأبوان النظر إليه ولا يهتمان به ولا يستطيعان مساعدته . فهو وحيد ، وعليه أن يتولى حياته بنفسه . فكل ما أمله في الماضي كان وهماً تهدَّم الآن على حين غرّة . ولكن حتى هذه الرؤية

التي هي مُرّة إلى حد ما ومخيبة للأمل تمنحه هي بالذات شعوراً كأنه فاز . ويبتسم ابتسامة الظفر لأنه نظر نظرة الى الحقيقة وخطا خطوة إلى الحرية .

ويتضمن الحلم مزيجاً من مختلف الدوافع والبواعث ونجد رؤى عميقة فيه بالذات وفي والديه اللذين يتجاوزان كل شيء عرفه هو حتى الآن . ويرى كيف تحجر ومات ، وكيف كانت أمه شكلته وصاغته وفق رغباتها الخاصة ، ويدرك أخيراً ضآلة اهتمام الأبوين ، وضآلة قدرتها على مساعدته . وإلى هنا فإنّ المسألة تتعلق في هذا الحلم بحلم من تلك الاحلام التي مضمونها ليس تحقيق رغبة ، بل رؤية ومعرفة . لكنه يتضمن في الوقت نفسه عنصراً من عناصر تحقيق الرغبة أيضاً . فغضبه المكظوم في حياة اليقظة يظهر . ويرى نفسه وهو يهزم أمه ويقتلها . فرغبته في الانتقام تتحـقق في الحلم .

ويبدو أن تحليل الرغبة هذا لا يختلف عن الأمثلة الأخرى عن تحقيق رغبات لا عقلانية في الحلم . ولكن رغم هذا التشابه البيّن يوجد فرقٌ مهم . فإذا تذكرنا ، مثلاً ، حلم الجواد الحربي الأبيض كانت الرغبة المتحققة فيه رغبة الحالم الطفولية في الشهرة والمجد . فالرغبة لم تنصبّ على النمو وتحقيق الذات ، بل على ارضاء ذاته اللا عقلانية التي فزعت من اختبارات الواقع الحقيقي . وكذلك الرجل الذي حلم بحديثه الودي مع هتلر لم يشبع إلاّ رغبته الشديدة في لا عقلانيتها في أن يخضع ويستسلم لسلطة بغيضة مكروهة .

فالغيظ من النحاتة كما تمّ الاحساس به في الحلم المحلل هنا هو من نوع آخر ؛ كما أنّ غيظ الحالم من أمه أيضاً هو الى حدّ ما لا عقلاني ؛ إنه نتيجة عجزه عن أن يستقلّ ونتيجة استسلامه أمامها والمصيبة التي أسفرت عن ذلك . على أنّ هنالك أيضاً وجهاً آخر . وهو أن أمه امرأة مستبدة بدأ تأثيرها فيه في وقت كان لا يزال صبياً صغيراً ولم يستطع أن يقاوم مقاومة صحيحة . وهنا ، وكما هي العلاقة دائماً بين الأطفال والآباء ، يكون الآباء هم الأقوى ما دام الطفل صغيراً . وحين يبلغ من العمر ما يكفي لأن يعبّر عن إرادته يكون قد لحق بهذه الارادة والقدرة على توكيد الذات ضرر كهذا فلا يعود الطفل يستطيع أن «يريد» . فإذا توقفت حالة الخضوع والسيطرة مرة واحدة كانت النتيجة التي لا محيد عنها هي الغيظ أو الغضب . ولكن إذا حق للطفل أن يحسّ بغضبه احساساً واعياً فقد يكون هذا

أساساً لتمرد سليم وقد يؤدي إلى اتجاه جديد ، بمعنى أن الطفل يتعلم أن يؤكد ذاته وأن يصل بذلك في النهاية الى الحرية والنضج . فحين يتم بلوغ هذا الهدف يختفي الغضب أيضاً ويفسح المجال لفهم الأم ، لا بل لموقف ودي من الأم . وعلى حين يكون هذا الغضب في حدّ ذاته علامة لتوكيد ذاتي ناقص فهو أيضاً خطوة ضرورة الى تطور سليم عقلاني . على أن الحنق أو الغيظ في حال هذا الحالم قد كبت . فالخوف من الأم وتوقفه على قيادتها ونفوذها جعلاه بعيداً عن وعي الحالم . وهكذا عاش الحنق تحت السطح حياة سرية هناك حيث لم يستطع الحالم أن يبلغه قطّ . وبوساطة مشاهدة موته المخيفة والموضحة في آن واحد عادت إليه والى غيظه في الحلم . وهذا الغيظ هو مرحلة انتقالية ضرورية في عملية نضجه وتتمايز كذلك في جوهرها من تلك الرغبات التي وقفنا عليها في الأحلام التي عولجت سابقاً ويؤدي تحقيقها لا إلى الأمام ، بل إلى الوراء . أما الحالم ، صاحب الحلم التالي ، فرجل يعاني من شعور بالذنب شديد . وإلى الآن ، وفي سن الأربعين ، يلوم نفسه على أنه مسؤول عن موت أبيه الذي كان منذ عشرين سنة . وكان قام برحلة ، وفي أثناء سفره مات الأب بسكتة قلبية . وأحسّ آنذاك كما يحسّ الآن أنه كان مسؤولا عن ذلك لأن أباه ربما كان قلق واغتاظ ومات بذلك على حين كان في الامكان تفادي كل نوع من الاضطراب والانفعال لو كان الابن حاضراً .

ويلازم الحالم خوف دائم أن يتسبب في مرض شخص ما ، أو قد ينشأ ضرر ما ، فطوّر عدداً كبيراً من الطقوس الخاصة التي من شأنها أن تكفر عن «ذنوبه» وتصرف النتائج السيئة لأفعاله . وقلّما روّح عن نفسه بشيء من اللهو . فاللذة أو المتعة ليست ممكنة بالنسبة له إلّا إذا أفلح في أن يصنّفها بأنها «واجب» . ولشد ما عمل وكدّ ، ولم يكن يباشر النساء إلا بين الحين والحين وعلى نحو سطحي . وتنتهي هذه العلاقات الجنسية عادة بالخوف الموهن للعزيمة أنه جرح الفتاة وأنها تكرهه الآن . وبعد عمل تحليلي كبير رأى الحلم التالي :

«لقد وقعت جريمة . ولا أتذكر ما موضوع الجريمة . واعتقد أنني لم أعرفه أيضاً في الحلم . وأسير في الطريق . ومع أنني واثق بأنني لم أرتكب أي جرم أعرف بأنني ما كنت لأستطيع أن أدافع عن نفسي لو ظهر فجأة تحريٌّ واتهمني بالقتل . وأغذ الخطى صوب النهر . وحين اقترب من النهر أرى فجأة عن بعد جبلا

تقوم عليه مدينة رائعة . ويتلألأ الجبل بالضياء . وأرى ناساً يرقصون في الطرقات وأحسّ أنّ كل شيء على ما يرام لو استطعت أن أعبر النهر .»

المحلل : «يا للمفاجأة ! هذه هي المرة الأولى التي تقتنع فيها بأنك لم ترتكب جرماً وأنك تخشى فقط ألاّ تستطيع أن تدفع عنك الاتهام . هل وقع لك أمس شيء جميل ؟»

الحالم : «لا شيء مهم . إلاّ أنني تحققت بقليل من الرضى والارتياح أن خطأ حصل في المكتب وكان سببه شخص آخر لا أنا ، ولعلّ الآخرين استطاعوا أن يصدّقوا هذا قياساً على تخوفي وتبعاً له .»

المحلل : «إني لأرى هذا أيضاً مقنعاً ومرضياً . ولكن هلاّ حدثتني عن موضع الخطأ» .

الحالم : «كانت سيدة اتصلت هاتفياً وأرادت أن تكلّم السيّد فلان ، أحد شركائنا في الشركة . وحدثتها في الهاتف ووقع صوتها الجميل من نفسي موقعاً حسناً . ونصحتها بأن تأتي في اليوم التالي في الساعة الرابعة . ووضعت المذكرة المناسبة على مكتب السيد (فلان) . على أنّ أمينة السر أخذت المذكرة ؛ وعوض من أن تعلمه بذلك نحتّها جانباً ونسيتها كلياً . وفي اليوم التالي جاءت السيدة الشابة وتضايقت وخاب أملها لما سمعت أن السيد (فلان) لم يكن في البيت وأنّ الموضوع صار نسياً منسيّاً . وتحدّثت معها واعتذرت . وفي دقائق معدودات حملتها على أن تبسط لي المشكلة التي أرادت أن تعالجها مع السيد فلان . حدث هذا كله أمس .»

المحلل : «أظن أن أمينة السر تذكرت تقصيرها وافصحت بذلك لك وللسيدة الشابة ؟»

الحالم : «بكل تأكيد ! ومن المضحك أنني نسيت أن أذكر هذا . أمس بدا لي هذا غاية في الأهمية ـ على أنّ هذا في الحقيقة سخف .»

المحلل : «لنستمع إلى السخف . أنت تعرف من الخبرة أن سخفنا يكون ، عادة ، أحكم الأصوات وارشدها في داخلنا .»

الحالم : «على أني أود القول إنني كنت سعيداً سعادة غريبة عجيبة لما تحدثت مع السيدة . فالموضوع كان موضوع طلاقها ، واستخلصت من حديثها أنّ أمها

الطماعة كانت أقنعتها بالتخويف والتفزيع بهذا الزواج المستحيل . وكانت تحملت ذلك أربع سنوات وقررت الآن أن تضع حداً للموضوع .»

المحلل : «لا شك أنّ لك رؤى وأخيلة عن الحرية ، أليس كذلك ؟ يهمني هنا تفصيل بسيط . إنك ترى ناساً يرقصون في الطرقات ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تتميزه في المدينة . هل سبق لك أن رأيت مشهداً كهذا ؟»

الحالم : «انتظر لحظة . . الحق أنّ هذا غريب وعجيب . الآن يخطر ببالي . . . أجل ، لما كنت في الرابعة عشرة قمت مع والدي برحلة إلى فرنسا . وفي الرابع عشر من تموز كنا في مدينة صغيرة ورأينا احتفالاً . وفي المساء وقفت أراقب الناس وهم يرقصون في الطرقات . وأنت تعرف أن هذه كانت أول مرة كنت ، على ما أذكر ، سعيداً فيها حق السعادة .»

المحلل : «والآن ، لقد أفلحت في الليلة الأخيرة أن تمسك الخيط مرة ثانية . كان في وسعك أن تتصور لنفسك الحرية والنور والسعادة والرقص بأنها احدى الامكانيات أو شيء كنت خبرته أو احسسته ذات مرة وتستطيع أن تعاود الاحساس أو خبرته مرة أخرى .» .

الحالم : «هب أنني أعرف كيف أتمكن من عبور النهر .»

المحلل : «أجل ! إنك لتدرك لأول مرة أنك لم ترتكب الجريمة في الحقيقة وأنّ هناك المدينة التي تجد نفسك فيها حرّاً طليقاً وأنه لا يفصلك عن الحياة الفضلى إلاّ نهر يستطيع المرء أن يعبره . ألم تكن هنالك تماسيح في النهر ؟»

الحالم : «لا ، كان نهراً عادياً ، مثله مثل النهر في مدينتنا الذي كنت أخافه دائماً بعض الشيء وأنا طفل .»

المحلل : «لا بدّ أن يكون هناك جسرٌ فوقه . لعمري أنك انتظرت طويلاً لكي تجتازه . وعلينا الآن أن نكتشف الشيء الذي أعاقك دائماً من أن تفعل ذلك .»

إنّ هذا لواحد من تلك الأحلام المهمة التي يقدم المرء فيها على أول خطوة من مرض نفسي . ومن المؤكد أن المريض ليس سليماً بعد ؛ على أنه شهد أهم الشروط لصحته : لقد كانت له رؤية واضحة حية في حياة هو فيها انسان حرّ لا المجرم الملاحق . ويتضح له بأنّ عليه ، لكي يصل إلى هناك ، أن يقطع نهراً . وهذا رمز

قديم شائع الاستعمال لقرار مهم ولبداية صيغة وجودية جديدة وللولادة والموت ولنمط حياة يتخلى المرء عنه من أجل نمط آخر . فمشاهدة المدنية تحقيق رغبة ، على أن الأمر يتعلق برغبة عقلانية . فهي تمثل الحياة . وتنشأ عن ذلك الجزء الخفي من الحالم الذي صار غريباً عنه نفسه . وهذه المشاهدة واقعية ، مثلها في واقعيتها مثل كل شيء رآته عيناه في أثناء النهار . على أنه لا يزال يحتاج إلى العزلة وحرية النوم لكي يتأكد منها .

وأود أن أسوق حلماً آخر عن «اجتياز الأنهار» . والحالم طفل وحيد مدلل ؛ إنه صبي . لقد دلله أبواه وأعجبا به على أنه عبقري المستقبل ، وسهّلا له كل شيء ولم ينتظر منه أي جهد ، بدءاً من الفطور الذي كانت أمه تحضره له صباحاً إلى السرير وانتهاء بأحاديث الأب مع معلميه التي كانت تنتهي دائماً بأن هذا الأب كان عبّر عن اقتناعه بأنّ ابنه يمتلك موهبة رائعة وعبقرية فذة . وكان كلا الأبوين يخاف خوفاً مَرَضياً من أنه قد يتعرض إلى خطر . فلم يكن يسمح له بالسباحة ولا بالتجول أو اللعب في الطريق . وهفت نفسه أحياناً الى أن يتمرد على هذه العوائق المزعجة . ولكن لِمَ كان عليه أن يتذمر ويشكو ما دام يمتلك كل هذه الأشياء الجميلة : الاعجاب والحب الناعم الرقيق والألعاب الكثيرة بحيث كان في وسعه أن يرمي بها بعيداً ، وما دام في حمىً من كل الاخطار الخارجية تقريباً . والحق أنه كان صبياً موهوباً ؛ على أنه لم يوفق قط التوفيق كله في أن يستقل . ولم يحاول أن يعالج الحياة ؛ بل أراد أن يلقى نجاحاً وأن يكون محط الاعجاب ؛ ولذلك كان وقفاً على آخرين ، وداخله خوف .

على أنّ هذه الحاجةإلى المجدوالصيت بعينهاوالخوف من أنه قد يحرم من ذلك أغضباه ، لا بل جعلاه قاسياً . وكان جاء إلى المعالجة بالتحليل النفسي لأنّ قلقاً روحياً دائماً كان يملأ عليه نفسه . ولقد انبثق هذا القلق من ادعاءاته الصبيانية وتبعيته وخوفه وفورات غضبه . وبعد ستة أسابيع من المعالجة رأى الحلم التالي :

«ينبغي علي أن أعبر نهراً . وأبحث عن جسر . لكن ما من جسر هناك . وأنا بعد صغير السن . ربما في الخامسة أو السادسة من عمري . ولا أستطيع السباحة [الحق أنه لم يتعلم السباحة إلاّ في الثامنة عشرة من عمره] . ثم أرى رجلاً أسود ضخم الجثة أشار الي أنه يستطيع أن يحملني على ذراعيه الى الجانب الآخر من

النهر . ولا يزيد عمق النهر على المتر ونصف المتر تقريباً . وأفرح باديء ذي بدء ولا أمانع . على أنه لما حملني على ذراعيه وانطلق داهمني فجأة فزع شديد . وأعرب انه لا بدّ من أن أموت اذا لم أهرب خلسة . وها نحن في عرض النهر . على أنني استجمع كل شجاعتي وأقفز من على ذراعي الرجل في الماء . وأحسب في باديء الأمر أنني سأغرق . على أنني بدأت بعدئذ أسبح ، وسرعان ما أصل إلى الضفة الأخرى . ويختفي الرجل .»

كان الحالم في اليوم السابق موجوداً في حفلة . وفجأة اتضح له هناك أن تفكيره كله تركز على أن يكون موضع الاعجاب وأن يكون على الرحب والسعة . وشعر للمرة الأولى كم كان في الحقيقة سخيفاً وأنّ عليه أن يتخذ قراراً . كان في امكانه أن يبقى الطفل المسؤول عن أي شيء أو كان في وسعه أن يتخيّر الانتقال المؤلم الى النضج ، وأحسّ بأنه لا يجوز أن يخادع نفسه مدة أطول بأن كل شيء هو كما ينبغي أن يكون أو أن معزّة الناس له ومكانته عندهم قد لا تعتبر انجازاً خالصاً . وكانت تلك هذه الأفكار زعزعته زعزعة أيما زعزعة وكان نام على ذلك .

ليس من الصعب فهم الحلم . فعبور النهر يمثل القرار الذي يجب عليه أن يتخذه لينتقل من شاطىء الطفولة إلى شاطىء النضج . ولكن كيف يتأتى له ذلك إذا ما عدّ نفسه ابن خمس أو ست سنين لا يحسن السباحة ؟ فالرجل الذي يقدم نفسه ليحمله إلى الضفة الأخرى يرمز الى أشخاص كثر : الى الأب والمعلمين وإلى كل مَنْ كان مستعداً لأن يحمله ـ وقد استماله سحره ومواهبه الواعدة المبشرة بالخير . وإلى هنا يرمز الحلم الى مشكلته النفسية وإلى الطريقة التي كان حلّ بها المشكلة دائماً . أما الآن فيضاف عامل آخر . فهو يحدث نفسه بأنّ هلاكه واقع لا محالة إذا ما سمح بأن يحمل مرة أخرى . وإنّ هذا لرؤية واضحة ثاقبة . ويحسّ بأن عليه يتخذ قراراً فيقفز في الماء . ويرى أنه يستطيع أن يسبح حقاً ،(ويظهر أنه لم يعد الحلم ابن خمس أو ست سنين) ويصل إلى الضفة الأخرى من دون مساعدة غريبة وإنّ هذا بدوره تحقيق رغبة ؛ على أنها ؛ وكما هي الحال في الحلم السابق ، رؤية أو كشف هدفه وهو يافع . ويكتشف أن طريقته المعهودة بأن يحمل لا بدّ أن تؤدي إلى هلاكه . وفضلاً عن ذلك يعرف أنه يستطيع في الحقيقة أن يسبح إذا كانت لديه الشجاعة ، وليس إلاّ الشجاعة ، ليقفز في الماء . وطبيعي أن هذه الرؤية تفقد مع

الأيام وضوحها الأصلي . وينبهه «صخب» النهار إلى أنه ما من شيء ينبغي «المبالغة» فيه ، وأنّ كل شيء على أحسن ما يرام ، وما من سبب ليتخلى المرء عن كل الصداقات وأننا كلنا نحتاج إلى العون والمساعدة وانه استحق هذا بكل تأكيد ، وغير ذلك ـ وهنالك المزيد من الاسباب التي نعدّ عدتنا لها لكي نموّه رؤية واضحة ؛ لكنها مزعجة . على أنه كان بعد وهلة حكيماً وشجاعاً في النهار أيضاً كما كان في الليل ، وصدق الحلم .

وتبيّن الأحلام الأخيرة فرقاً مهماً بين الرغبات العقلانية والرغبات اللا عقلانية . وكثيراً ما نتمنى لأنفسنا أشياء تكون لها جذورها في ضعفنا وتعوّض هذا الضعف . ونحلم بأننا مشهورون وقادرون على كل شيء ومحبوبون وهلّم جرا . على أننا نحلم أحياناً برغبات تستبق أغلى أهدافنا ومرامينا وتنجزها قبل الموعد المحدد . ويحدث بأن نرى أنفسنا نرقص أو نطير . ونرى مدينة الأضواء ونشهد حضور الأصدقاء السار المبهج . وحتى لو لم نكن قادرين في وجودنا الصاحي بعد على أن نحس بفرح الحلم ومسرته فإنّ حادثة الحلم تبيّن لنا أننا قادرون على الأقل على أن نتمنى لأنفسنا ونرى ما نتمناه محققاً في رؤيا . فالأخيلة والاحلام هي بداية اعمال كثيرة . وما من شيء يكون أفدح خطأ من الاستهانة بها واستلاب الشخص المذكور الجرأة على ذلك . والمهم هو نوع الاخيلة التي نمتلكها ؛ فهل تسير بنا قدماً أم أنها تستوقفنا في الشيء غير المنتج .

ويعبر الحلم التالي عن رؤية عميقة في مشكلة الحالم ؛ وهو مثال مناسب على وظيفة مادة التداعي . والحالم رجل في الخامسة والثلاثين عانى منذ مراهقته من اكتئاب بسيط ، لكنه مزمن . وكان الأب رجلاً مستهتراً ؛ على أنه كان قاسي القلب لا يعرف الرحمة . وكانت الأم عانت من حالات اكتئاب شديد منذ أن صار الابن في الثامنة أو التاسعة . فلم يسمح له بأن يلعب مع آخرين . وحين كان يغادر المنزل كانت ترميه أمه بأنه يؤلمها بذلك . ولم يكن في مأمن من لومها إلاّ في أحضان كتبه وصحبة أخيلته وتصوراته في احدى زوايا الغرفة . كانت الأم ترفض كل تعبير عن حماسة بهزة الكتفين وبتعليقات أنه ليس ثمة ما يدعو الى مثل هذا الشعور بالسعادة والتصنع كله . وأدرك الحالم بعقله أن لوم الأم لم يكن مسوّغاً ؛ على أنه أحس مع هذا أنها على صواب وأنه مسؤول عن شقائها ونكدها . كما أنه أحسّ أيضاً

أنَّ سلاحه للحياة رديء لأنه كان افتقر في طفولته إلى شروط جوهرية معينة لنظام حياة ناجح ؛ وخشي بصورة دائمة أنه ربما لاحظ الآخرون فقر المشاعر (لا الفقر المادي) في أسرته . وحسمت مخالطته للآخرين مشكلة أخرى بالنسبة له ، ولا سيما حين كان هؤلاء يهاجمونه أو يعاكسونه ويمازحونه . وأمام تصرف كهذا التصرف كان يقف عاجزاً مرتبكاً ، ولم تكن نفسه لتطيب إلاّ في صحبة بعض الأصدقاء الطيبين . ورأى الحلم التالي :

«أرى رجلاً جالساً في كرسي متحرك خاص بالمرضى ويفتتح لعبة شطرنج ، ولكن بشيء من الفتور وانحراف المزاج . وفجأة يوقف اللعب ويقول : «لقد أخذ المرء منذ زمن طويل قطعتين من الشطرنج الخاص بي ، على أنني سأستعيض عنهما بمضراب درس الحنطة Thessail * . ثم يضيف قائلاً : «إن صوتاً (هو صوت أمي) همس في أذني : «الحياة لا تستحق العيش .» إنَّ هذا الحلم سهل فهمه إلى حدّ ما إذا ما عرفنا شيئاً عن الحالم ومشكلته . فالرجل في الكرسي المتحرك هو نفسه . ولعبة الشطرنج هي لعبة الحياة ، ولا سيما ذلك الجانب من الحياة نفسها حيث يُهاجم ويضطر الى أن يتحول إلى الهجوم المعاكس أو أن يطبق أية خطة استراتيجية أخرى . ولم تكن لديه أية رغبة مرضية ليلعب هذه اللعبة لأنه يرى نفسه أنه ليس مستعداً الاستعداد الجيد المناسب لذلك «فالمرء أخذ من زمن بعيد قطعتين من لعبة الشطرنج» . وهذا يوافق الاحساس الذي يحسه في اليقظة أيضاً أنه كان عليه أن يستغني في طفولته عن أشياء معينة وأنَّ هذا هو السبب لضعفه وحيرته في معركة الحياة . ولكن ما القطعتان اللتان أخذتا من قطع مجموعة الشطرنج ؟ الملك والملكة . أبوه وأمه اللذان لم يكونا في الحقيقة حاضرين ، إلاّ في الوظيفة السلبية أنهما خيّبا أمله وعيباه وعذباه وأنّباه . على أنه يستطيع أن يلعب مع هذا مستعيناً بدراسة أو بمضراب درْس الحنطة . وهنا لن نتقدم نحن ، ولن يتقدم الحالم أيضاً .

الحالم : أرى الكلمة واضحة أمامي ؛ على أنني لا أعرف أبداً ماذا تعني .

---

*) الحق أن كلمة (Thessail) مركبة ، كما سنرى ، من كلمتين : احداهما (Thessalien) أي شيساليا وهي ريف في شمال اليونان ، والثانية (flail) التي تعني بالانجليزية مضراب يدوي لدرس الحنطة . (المترجم)

المحلل : «الظاهر أنك عرفت معناها في الحلم . وفي نهاية المطاف فإنَّ الحلم حلمك ؛ وأنت صنعت هذه الكلمة . فحاول أن تربط ربطاً حراً . ماذا يخطر ببالك حين تفكر بالكلمة ؟

الحالم : «أول ما يخطر ببالي هي ثيساليا ، جزء من اليونان . أجل ، الآن أتذكر أن ثيساليا وقعت في نفسي موقعاً كبيراً وأنا طفل . ولست أدري ، هل هي في الواقع هكذا . على أن أتصور ثيساليا جزءاً من اليونان ذا مناخ دافيء معتدل بحيث يعيش الرعاة في سلام وسعادة . ولقد أعجبتني دائماً أكثر من سبارطة وأثينا . وإني لأكره سبارطة لروحها العسكرية . ولم تعجبني أثينا لأن الاثينيين بدوا لي مثل نفاجين كثيري التمدن ، وأحسست بالانجذاب والميل إلى رعاة ثيساليا .»

المحلل : «على أنَّ الكلمة التي حلمت هي ثيسيل وليست ثيساليا . فلِمَ حرفتها ؟

الحالم : «شيء مضحك وعجيب أنني الآن أتذكر درّاسة يدوية ، أداة ليستعملها الفلاحون لدرس الحنطة . على أنهم يستطيعون أن يستعملوها أيضاً سلاحاً إذا لم يكن لديهم شيء آخر .»

المحلل : «هذا شيء ممتع ومهم . فكلمة ثيسيل Thessail تتركب بناء على ذلك من ثيساليا وfl- ail (أي درّاسة يدوية أو مضراب درس الحنطة) . وعلى نحو غريب فإنَّ ثيساليا ، أو بالأحرى إن الشيء الذي تعنيه لك علاقة وثيقة بدراسة لدرس الحنطة أو مضراب وبما فيها من رعاة وفلاحين وبالحياة الرعوية البسيطة . ولنعدْ مرة أخرى إلى حلمك . ففي الحلم تلعب الشطرنج وتعرف أنَّ قطعتين من الشطرنج أخذتا ؛ لكنك تستطيع الاستعاضة عنهما بمضراب درس الحنطة .»

الحالم : «الآن تتضح لي الأمور بعض الشيء . ففي لعبة الحياة احس بأنني مغبون ومعوّق بوساطة افتقار طفولتي الى الضروريات ، فليس معي الأسلحة كلها (قطع الشطرنج التي يُحارب بها) ، التي يستحوذ عليها الآخرون . على أنه كان في وسعي أن ارتد الى حياة رعوية بسيطة ؛ بل كان في وسعي أن أقاتل بمدْرس عوض من السلاح الذي ينقصني وهو (قطعتا الشطرنج) .»

المحلل : «على أنَّ الحلم لم ينتهِ بذلك . فبعد أن توقفت عن اللعب بالشطرنج تقول : «إن صوتاً همس لك : «الحياة لا تستحق العيش .»

الحالم : «أفهم هذا جيداً . ففي النهاية لا ألعب لعبة الحياة إلاّ لأنني مضطر إلى ذلك . على أنَّ هذه الحياة لا تهمني في الحقيقة . فالاحساس الذي أحسست به منذ طفولتي على نحو أشد أو أضعف هو بالضبط الاحساس الذي ساورني في الحلم بأن الحياة لا تستحق العيش .»

المحلل : «الحق أنك أحسست هذا الاحساس دائماً . لكن الا يوجد هنا خبر مهم أو رسالة أرسلت اليك في الحلم ؟ .»

الحالم : «أتعني أن الشيء المحزن الباعث على الكآبة أوحي إليَّ من أمي ؟»

المحلل : «أجل ، هذا ما أعنيه . وحين أدركت أول ما أدركت أن حكمك المقبض على الحياة ليس مستمداً منك بالذات ، بل إنَّ صوت أمك لا يزال يؤثر فيك أثر ما بعد التنويم المغناطيسي ، إذا صح التعبير ، خطوت عندئذ خطوة نحو تحرير نفسك من هذا الصوت . ولما كانت نظرتك الكئيبة في الحياة ليست في الحقيقة نظرتك ، فإنه لاكتشاف مهم قمت به وما كان في وسعك أن تقوم به إلاّ في الحلم .»

والكابوس هو نمط من أنماط الأحلام التي لم نمثل لها حتى الآن . وفي رأي فرويد لا يشكل الكابوس أي استثناء من القاعدة العامة أنَّ مضمون الحلم الكامن تحقيق رغبة لا عقلانية . وطبيعي أن هنالك اعتراضاً منطقياً على هذا الرأي سيتقدم به كل انسان رأى ذات مرة كابوساً : فحين يعاني المرء في الحلم من أهوال الجحيم ثم يستيقظ خائفاً خوفاً لا يطاق ، فهل من الحكمة القول إن هذا تحقيق رغبة ؟

على أنَّ هذا الاعتراض ليس صائباً كل الصواب كما يبدو للوهلة الأولى ، ذلك لأننا نعرف أولاً حالة مرضية يشعر الناس فيها أنهم مدفوعون لأن يفعلوا الشيء الذي يدمرهم . فالماسوشي عنده الرغبة ، وإن كانت رغبة لا شعورية ، في أن يصاب بحادث أو يمرض ويهان . وفي الانحراف الماسوشي الذي تتلون فيه الرغبة بلون جنسي وتكون أقلَّ خطرا على الشخص المعني تكون الرغبة الماسوشية شعورية . وفضلاً عن ذلك نعرف أن انتحاراً ما يمكن أن يكون نتيجة دافع شديد للانتقام والتدمير الذي يستهدف الشخص ذاته لا الآخرين . على أنَّ انساناً مدفوعاً الى التدمير الذاتي أو إلى عمل آخر يسبب ألماً وعذاباً يستطيع أن يحس خوفاً شديداً

بالقسم الأخر من شخصيته . وهذا لا يغيّر الأمر الواقع في شيء بأن الخوف نتيجة لرغبات انتحارية لها طابع التدمير الذاتي .

على أن رغبة ما لا تستطيع ، في رأي فرويد ، أن تبعث على الخوف إلاّ إذا كانت المسألة هنا تتعلق بدافع ماسوشي أو انتحاري . وحين نتمنى لأنفسنا شيئاً يدفع الآخرين الى أن يكرهونا أو نتمنى شيئاً يعاقبنا عليه المجتمع فطبيعي عندئذ أن يبعث تحقيق هذه الرغبة في أنفسنا خوفاً أيضاً .

إنَّ مثالاً على كابوس من هذا القبيل هو الكابوس التالي :

«أمرُّ ببستان وأقطف تفاحة من إحدى الشجرات . ويأتي كلب كبير ويهاجمني وأفزع فزعاً شديداً وأستيقظ وأنا أصرخ طالباً النجدة .»

ولكي نفهم هذا الحلم لا نحتاج إلاّ لنعرف أن الحالم كان قابل في المساء الفائت امرأة متزوأة أحسَّ بأنه مشدود اليها . ويظهر أنها جعلته يعتقد أنها توده . وكان نام وهو يتخيل أن له علاقة معها . ولا نحتاج هنا إلى أن نبحث هل مصدر الخوف الذي شعر به في الحلم هو ضميره السيء أم الخوف من الرأي العام . ويبقى الشيء الجوهري المهم بأن الخوف نتيجة تحقيقه الرغبة في أن يأكل التفاحة المسروقة .

ومع أننا نستطيع أن نفهم على هذا النحو كثيراً من الكوابيس بأنها تحقيق رغبات خفي فإنني أود أن أضع موضع الشك أن هذا هو الحال لدى الجميع أو عند الأكثرية فقط . فإذا ذهبنا الى أنَّ الاحلام تعبر عن كل نوع من أنواع الفعالية النفسية في النوم فلِمَ لا نخشى الاخطار في النوم خشيتنا لها في اليقظة ؟

على أن شخصاً ما قد يحاجج بالسؤال التالي :«ألا ينشأ كل خوف عن شهواتنا وأطماعنا ؟ أكنا سنخاف لو لم نكن نعطش» ، كما يقول البوذيون ، ـ أي لو لم نكن نشتهي أشياء ؟ ثمَّ الا نستطيع إذاً أن نقول ، بالمعنى الشائع ، إنَّ كل خوف هو في اليقظة كما هو في الحلم نتيجة رغبات ؟»

إنَّ هذه لحجة سديدة . ولو قلنا إنه لا وجود لأي كابوس (أو لأي خوف في اليقظة) إلاّ بوجود رغبة ، بما في ذلك الرغبة الاساسية ، لما كان هناك اعتراض على هذا القول . على أن تحليل فرويد ليس المقصود بالمعنى الشائع المألوف . وقد يساهم

في إيضاح المشكلة إذا تصدينا مرة أخرى للفرق بين ثلاثة أنواع من الكوابيس التي عالجناها لتونا .

في الكابوس الماسوشي الانتحاري تكون الرغبة نفسها مؤلمة وانتحارية ولها طابع التدمير الذاتي . وفي النمط الثاني من الكوابيس ، كما هي الحال في حلم التفاحة ، فإنّ الرغبة نفسها ليست انتحارية ، لكنها من نوع يبعث تحقيقه الخوف في جانب آخر من نفسنا . فالحلم تسببه رغبة تولد بصفتها نتيجة ثانوية خوفاً . وفي النمط الثالث الذي يخاف المرء فيه من تهديد واقعي أو وهمي لحياته ولحريته وغير ذلك فإنّ هذا التهديد يسبب الحلم على حين تكون الرغبة في العيش والحرية الدافع الموجود في كل مكان الذي لم يوجد هذا الحلم النوعي . فالخوف يتولد إذاً في الصنف الأول والثاني من وجود رغبة ؛ أما في الصنف الثالث فيتولد من وجود خطر حقيقي أو وهمي ، حتى لو كانت هذه الرغبة في العيش أو رغبات كلية أخرى موجودة . وما من ريب في أن الكابوس في هذا النمط الثالث ليس تحقيق الرغبة ، بل الخوف من امتناعها .

والحلم التالي هو كابوس شبيه بالكوابيس الأخرى الكثيرة :

«أجد نفسي في دفيئة (غرفة زجاجية) . وإذا بي أرى أفعى تتجه صوبي . أمي تقف الى جانبي وتبتسم لي ابتسامة خبيثة . ثم تمضي من دون أن تساعدني . وأركض نحو الباب ؛ على أن الأفعى كانت هناك . وتسدّ على الطريق . واستيقظ ونفسي ملؤها الخوف والهلع» .

الحالمة امرأة في الخامسة والأربعين . تعاني من حالات رعب شديدة . والسمة المميزة في ماضيها هي الكره المتبادل بينها وبين أمها . فالاحساس بأن ام تكرهها لم يكن وهماً . إذ أنّ الأم كانت تزوجت رجلاً لم تحبه قط فنقمت على مولو الأول الذي هو الحالمة التي أجبرتها بوجودها الصرف على أن تستمر ، في رأيه في زواجها . ولما كانت الحالمة في الثالثة من عمرها حكت لأبيها شيئاً أثار ظنونه بأن كان لزوجته علاقة مع رجل آخر .

ولم تعرف الطفلة الصغيرة بالضبط ما كانت شاهدته وقالته . لكنها عرفت ذلك بالحدس . وكان لغيظ الأم من الابنة أسبابه أكثر مما بدا في الظاهر . فكلما كبرت الفتاة كثرت محاولاتها لتستفز الأم ، وكثرت محاولات الأم لتقتص منها على

ذلك وتحطمها في آخر المطاف . فحياتها كانت مقاومة دائمة لأية هجمات . فلو أنَّ الأب ساعدها وشدَّ ازرها لكان الأمر انتهى على نحو آخر . على أنه نفسه كان يخاف زوجته ؛ ولم يقف قط الى جانب ابنته بشكل علني صريح . وكانت نتيجة هذا كله والظروف الأخرى كلها أنَّ الابنة التي كانت انساناً أبياً موهوباً جداً هجرت الناس كلهم أكثر وأكثر وأحست أنها «مهزومة» أمام أمها وعاشت في الأمل انها ستفلح هي نفسها «ذات يوم» في أن تتغلب على هذه الأم . فهذا الحقد كله وعدم الثقة هذه كلها وضعاها في حالة من الخوف عذبتها في اليقظة وفي النوم .

والحلم تعبير من التعابير الكثيرة عن هذا الخوف . وتتداعى خواطرها وتربط ذهنياً بين «الدفيئة» (غرفة الاستنبات الزجاجية) وبين مكانها في املاك والديها . وكثيراً ما ذهبت وحدها إلى هناك . ولم تذهب أمها معها قط . فالخطر في الحلم ليس الأم ، بل الحية . فما معنى هذا ؟ والظاهر أنَّ الرغبة في أن يكون لها أم تحميها من الخطر موجودة . (والحق أنها كانت تحلم بين الحين والحين أحلام يقظة بأنَّ أمها ستتغير وستساعدها .) وهنا يحدق بها الخطر مرة أخرى . على أن أمها تكتفي بأن تبتسم ابتسامة الخبث وتمضي في حال سبيلها . وبهذا تكشف الأم عن وجهها الحقيقي . وبادىء ذي بدء يبذل ما يسمى بالمحاولة أو الجهد لفصل الأم الخبيثة (الحية) عن الأم الطيبة التي يمكن أن تمدَّ يد العون والمساعدة . ولكن حين تنظر الأم اليها نظرة الخبث والشر ولا تساعدها يتحطم هذا الوهم ، ولا فرق بين الأم والحيّة ، فهما قوتان تهددانها بالدمار والهلاك . حينئذ تجري الحالمة إلى الباب وتأمل أن تهرب على هذا النحو ، على أنَّ الاوان قد فات : ـ فالطريق مسدودة ، وهي الآن محبوسة مع الحية السامة والأم الهدامة .

وتحسّ المريضة في الحلم بنفس الخوف الذي يلازمها في النهار . ولا يتعلق الأمر هنا بخوف حقيقي ، بل بخوف مرضي . فلم تعد الأم في نظرها تهديداً . والحق أنه ما من احد يهددها في الأصل أو يزجها في خطر . ومع هذا تخاف ويبرز هذا الخوف في الحلم . فهل الحلم تحقيق رغبة ؟ إنَّ هذا ليصح إلى درجة معينة . فهي ترغب في أن تكون الأم حامية لها . وما إن تنظر هذه الأم اليها نظرة الخبث ، بدلاً من أن تأتي لنجدتها ، حتى يبدأ الخوف فالشوق إلى أم تحبها وتحميها يخيفها من هذه المرأة . فلو لم تعد تحتاج إلى الأم لما عادت تخاف منها أيضاً . لكنَّ الأهم من

هذه الرغبات في حب أم وحمايتها هي رغبات أخرى لولا هذه الرغبات لما استطاع الخوف من الأم أن يستمر ويدوم : وهي رغبتها في الانتقام ورغبتها في أن تفهم الأب بأن زوجته خبيثة وأن تنتزعه منها . وليس هذا لأنها تحب أباها حباً جماً ، وليس بسبب إذلالها العميق عن طريق هزيمتها وهي طفلة وبوساطة الاحساس أنها لن تستطيع استعادة كبريائها وثقتها بنفسها إلاّ إذا دمرت أمها . فلماذا ما كان ولن يكون في الامكان محو هذا الاذلال المبكر ، ولم لا يمكن التغلّب على هذه الرغبة في الانتقام والنصر هو سؤال آخر معقد جداً واعقد مما نستطيع أن نناقشه في هذا الصدد . والحالة لا تزال ترى كوابيس أخرى تفتقد كلياً إلى أحد العناصر التي تضمنها هذا الحلم ، أي الرغبة في أن تساعدها الأم . ومثل هذه الأحلام هي :

«أنا في قفص مع نمر . لا أحد موجود ليساعدني» . أو :

«أسير على شريط من الأرض ضيق فوق مستنقع . الوقت ظلام ، ولا أستطيع أن أرى الطريق . لقد فقدت الاتجاه كلياً وأحسّ أنني سأنزلق وأغرق اذا ما سرت خطوة واحدة» .

أو : «إنني المتهمة في قضية . متهمة بالقتل ، وأعرف انني بريئة . على أنني أستطيع أن أرى في وجه القاضي ووجوه المحلفين أنهم مجمعون على أنني مذنبة . والتحقيق شيء شكلي صرف . وأعرف أنه بتٌ في القضية ، وهذا ما سأقوله أنا أو سيقوله الشهود دائماً (وبالمناسبة لا أرى أية شهود) ، وأنه لا جدوى من أن أدافع عن نفسي .» والشيء الجوهري في هذه الأحلام كلها هو الاحساس بالعجز الكامل والحيرة التامة التي تفضي إلى شلّ كل الوظائف وإلى الرعب والهلع . فالأشياء الجامدة والحيوانات والبشر ، هذه كلها لا تعرف الرحمة . لا صديق على مرمى النظر . وما من مساعدة ترجى . فالشعور بالضعف والوهن له أساسه في عجز الحالة عن أن تتخلى عن رغبتها في الانتقام وأن تضع حداً للصراع مع أمها . على أنّ هذا ليس تحقيقا لأية رغبة . وعلينا هنا أن نعيش هذه الرغبة ، وهذا هو سرّ الخوف أن تكون عرضة للهجمات التي لا تستطيع أن تصدّها .

والمهم بخاصة والممتع هو أحلام تعود بصورة دائمة ويحدّث عنها بعض الناس أنهم كانوا حلموا بها سنوات طويلة ما دام في مقدورهم أن يعودوا بذاكرتهم إليها في بعض الأحيان . وتعرب هذه الأحلام عادة عن الموضوع الأساسي وعن الفكرة

الأساسية في حياة هؤلاء الناس . وكثيراً ما تقدم المفتاح لعصابهم أو لأهم جوانب شخصيتهم . وأحياناً يبقى الحلم ثابتاً لا يتغير . وتارة تحدث تغيرات دقيقة قليلاً أو كثيراً وتكون دليلاً على أن الحالم قد شهد تطورا داخلياً أو شهد ، تبعاً للظروف ، تراجعاً .

فتاة في الخامسة عشرة نشأت في أشد الظروف قسوة وتهديماً (كان أبوها سكيراً ظالماً متجبراً . كان يضربها . وكانت الأم تفرّ عنه باستمرار مع رجل آخر . لا طعام ولا لباس ، قذارة) وأقدمت على الانتحار في العاشرة من عمرها وأعادت الكرة بعدئذ خمس مرات . ولما كان في مقدورها أن تعود بذاكرتها إلى الوراء فقد تكررت رؤيتها للحلم التالي :

«أجد نفسي تحت في حفرة عميقة . وأحاول أن أتسلق الى فوق وأصل إلى الحافة العليا التي أتشبث بها بكلتا يدي . واذا بشخص يأتي ويدوس على يدي . يجب أن أسحب يدي وأهوي من جديد إلى قاع الحفرة .»

يكاد الحلم لا يحتاج الى اي ايضاح أو تفسير . فهو يعبر كل التعبير عن مأساة حياة فتاة ويعبر عما فعل المرء بها وعما تحسّ به . فلو أنها رأت الحلم مرة واحدة لكان من حقنا أن نذهب الى أن خوفاً معيناً يتجلى في ذلك وتحسه الحالمة بين الحين والحين وينشأ عن ظروف نوعية مرهقة . وعلى هذا ينبغي علينا أن نذهب بحكم التكرار المنتظم إلى أن موقف الحلم هو الموضوع الرئيسي في حياة الفتاة الشابة وأن الحلم يعبّر عن اقتناع ثابت عميق غاية في العمق واننا نستطيع أن نفهم لماذا حاولت الانتحار غير مرة .

إنّ حلماً يتكرر ويبقى الموضوع فيه هو نفسه وتحصل فيه ، رغم ذلك ، تغيرات كبيرة جداً ، ليدخلُ في المجموعة التي تبدأ بالحلم التالي :

«أنا في السجن ولا أستطيع الخروج .»

ورؤي في المنام فيما بعد :

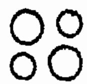
«أريد أن أجتاز الحدود . على أنه ليس في حوزتي جواز سفر ، ويستوقفونني على الحدود .»

وفيما بعد يحلم أيضاً :

«أنا في أوربا ، وفي المرفأ وأريد أن أصعد سفينة . لكن لا سفينة هناك ولا أدري أنّى لي أن أغادر .»

وآخر رؤية لهذا الحلم هي :

«أنا في مدينة كبيرة ، في منزل ما ، وأريد الخروج . وحين أريد فتح الباب يستعصي عليَّ . وأدفعه دفعة عنيفة ، فينفتح وأخرج» . إنَّ الموضوع الذي تقوم عليه كل هذه الأحلام هو الخوف من الحبس والأسر واستحالة الخروج .» فما يعنيه هذا الخوف في حياة الحالم ليس مهماً في هذا الصدد . إنَّ سلسلة الاحلام تبين أن الخوف كان موجوداً منذ زمن طويل ، على أنه كان يضعف ويتضاءل ، بدءاً من الاقامة في السجن وانتهاء بالباب الذي استعصى فتحه . وعلى حين أحسَّ الحالم في بادىء الأمر بالعجز عن الهروب يتمكن في الحلم الأخير من أن يفتح الباب بدفعة اضافية بسيطة ويخرج . وفي أثناء هذه السنوات شهد الحلم تطوراً كبيراً .



الفصل السابع :

اللغة الرمزية في الأسطورة والحكاية والطقس والرواية

تقدم الأسطورة مثلما يقدم الحلم تماماً قصة تجري حوادثها في المكان والزمان وتعبّر بلغة رمزية عن افكار فلسفية ودينية وعن تجارب روحية ينطوي فيها المعنى الحقيقي للأسطورة . فإذا لم نفهم هذا المعنى الحقيقي للأسطورة كنا أمام أمرين لا ثالث لهما : ـ فإما أن تكون الأسطورة صورة بسيطة للعالم والتاريخ وسابقة للعلوم الحديثة وهي على أكثر تقدير نتاج تصورات وهمية ذات جمال شعري أو أنّ تاريخ الأسطورة حقيقة ، وهذه هي النظرة الأرثوذكسية وأنّ علينا أن نرى فيها رواية مطابقة للحقيقة تحكي عن حوادث جرت في «الواقع الحقيقي» . وبدا هذا الخيار بين أمرين لا مناص منه في الحضارات الغربية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ؛ على أنّ تقارباً حدث شيئاً فشيئاً . واليوم يلفت المرء النظر إلى مدلول الأسطورة الديني والفلسفي ويرى في القصة الصريحة التعبير الرمزي عن هذا المدلول . أما في ما يتعلق بالمضمون الصريح أيضاً فقد تعلم المرء أن يفهم أن المسألة هنا ليست مسألة نتاج تصورات وهمية لشعوب «بدائية» فحسب ، بل إنها لتشتمل على ذكريات الماضي التي عدّها المرء شيئاً ذا قيمة . (وفي العقود الأخيرة أثبتت الاكتشافات الأثرية الكثيرة الصحة التاريخية لبعض هذه الذكريات .) ومن بين الذين مهدّوا الطريق لفهم جديد للأسطورة يأتي يوهان ياكوب باخ أوفين وسيغموند فرويد في مقدمة الجميع . فالأول تناول الأسطورة بفطنة فائقة وذكاء كبير في مدلولها الديني والنفساني ، كما تناولها في مفهومها التاريخي أيضاً . وساهم الآخر في فهم الأسطورة أنه كان بوساطة تفسيره للأحلام طليعياً ورائداً في فهم اللغة الرمزية . ولقد كان هذا إسهاماً غير مباشر أكثر منه مباشراً في علم الأساطير

لأن فرويد كان يميل إلى أن يرى في الأسطورة ، كما في الأحلام ، التعبير عن دوافع لا عقلانية معادية للمجتمع ، ليس غير ، وليس التعبير عن حكمة ازمان ماضية تمَّ التعبير عنها في لغة خاصة هي لغة الرموز .

أ ـ أسطورة أوديب :

إنَّ أسطورة أوديب هي النموذج البارز لطريقة فرويد في تفسير الأساطير ، وتتيح لنا ، في الوقت نفسه ؛ أن ندلي بتفسير مخالف ورأي متباين لا يرى الموضوع الأساسي للأسطورة في الرغبات الجنسية ، بل في الموقف من السلطة الذي هو أحد أهم جوانب العلاقات الانسانية . وفضلاً عن ذلك فإنَّ هذه الأسطورة نموذج للتشويهات والتغييرات التي تلحق بذكريات أشكال اجتماعية موغلة في القدم وافكار عند تأليف نصها الصريح .[٣٤] ويكتب سيغموند فرويد : «إذا استطاع الملك أوديب أن يهزّ الانسان الحديث ويؤثر فيه تأثيراً لا يقلّ عن تأثيره في الانسان اليوناني المعاصر فالحل يمكن أن يكون فقط في أن تأثير المأساة اليونانية لا يقوم على التضاد بين القدر والارادة الانسانية ، بل يجب البحث عنه في طبيعة المادة التي يستبين فيها هذا التضاد ويتشخص بها . يجب أن يكون هناك صوت في داخلنا يكون مستعداً لأن يعترف بقوة القدر القاهرة ، على حين نكون قادرين على أن نرفض مواقف وتصرفات كما في «الأم الأولى» وفي مسرحيات القدر المأساوية الأخرى بأنها تعسفية جائرة . والحق انَّ فكرة كهذه لتشتمل عليها قصة الملك أوديب . فمصيره لا يؤثر فينا ولا يحزننا إلاَّ لأنه كان من الممكن أن يكون هذا مصيرنا نحن أيضاً لأن النبوءة صبت علينا قبل ولادتنا اللعنة نفسها كما أحقتها عليه . وربما قيّض لنا جميعاً أن نتوجه بأول عاطفة جنسية أو ميل جنسي الى الأم ونتحول بأول حقد ورغبة عنيفة جبارة الى الأب . واحلامنا تقنعنا بذلك . فالملك أوديب الذي صرع أباه لايوس وتزوج أمه جوكاسته ليس إلاَّ تحقيق رغبة طفولتنا . على أننا أكثر منه حظاً ، هذا إذا لم نصبح عصابيين ، إنه تأتى لنا منذئذ أن نحلّ

---

٣٤) أنظر في هذا الخصوص إ . فروم ، عقدة أوديب وأسطورة أوديب ، ١٩٤٩ ، (ص ٣٣٤ ـ ٣٥٨) .

ميولنا ونوازعنا النفسية من أمهاتنا وننسى غيرتنا من آبائنا . ومن الشخص الذي تحققت فيه تلك الرغبة ، رغبة الطفل البدائية ، نفزع ونخاف بكل ما لدينا من كبت لحق بهذه الرغبات في دخيلة أنفسنا منذ ذلك الحين . وعلى حين يكشف الشاعر في تلك المعالجة عن ذنب أوديب يضطرنا إلى فهم دخيلتنا التي لاتزال فيها تلك الدوافع موجودة ، وإن كانت في حالة من الكبت . فالجوقة تواجهنا :

انظروا ، هذا هو أوديب ، / الذي يحلّ اللغز العظيم والذي كان أول من. تسنم السلطة / واثنى على حظّه المواطنون كلهم وحسدوه عليه/ ؛ انظروا أيّ بؤس وسوء حظ غاص في أمواجه الفظيعة للروعة !/ .

هذا التذكير يمسنا ويمسّ كبرياءنا ، نحن الذين أصبحنا في تقديرنا منذ عهد الطفولة غاية في الحكمة والقوة . ونعيش مثل أوديب في جهلنا للرغبات المهينة للأخلاق التي الزمتنا الطبيعة على قبولها ونود أن نصرف كلنا النظر بعد تحقيقها عن مشاهد طفولتنا .»[٣٥] .

إن فهم عقدة أوديب التي صوّرها فرويد تصويراً جديراً بالاعجاب استحال الى حجر زاوية لمذهبه في علم النفس . وعدّ هذا التفسير مفتاحا لفهم تاريخ الدين والاخلاق وتطورهما . وكان مقتنعا من أن هذه العقدة بالذات هي الميكانيكية الحاسمة في تطور الطفل وذهب إلى أن عقدة أوديب سبب لتطور علم النفس المرضي (ولب مرض العصاب) .

ويعتمد فرويد أسطورة أوديب في تلك الرواية التي زوده بها سوفوكليس في مأساة «أوديب ملكاً» . وفي هذه المأساة نعلم أن وحياً ينذر لايوس ، ملك ثيبة ، وزوجته جوكاسته انه اذا ولد لهما ولد سيقتل أباه ويتزوج أمه . وعندما ولد الابن أوديب تقرر جوكاسته أن تفر من المصير الذي تنبأ به الوحي بأن تقتل ابنها . وتسلم أوديب إلى أحد الرعاة الذي كان عليه أن يترك الطفل في الغابة بقدمين مربوطتين بحيث يموت . على أن الراعي يشفق على الطفل ويسلمه الى رجل يعمل في خدمة ملك كورينتوس ، وهذا الرجل بدوره يأخذ الطفل الى سيده . ويتبنى الملك الصبي ، ويترعرع الأمير الصغير في كورينتوس من دون أن يعلم أنه ليس الابن

---

٣٥) انظر : فرويد ، سيغموند : تفسير الأحلام ، ص ٢٦٩ وما بعد .

الحقيقي لملك كورينتوس . وينبئه كاهن دلفي أنّ قدره أن يقتل أباه ويتزوج أمه . ويعزم على أن يهرب من هذا القدر بألاّ يعود أبداً إلى أبويه اللذين وهم أنهما أبواه . وبينما هو عائد من دلفي يشتبك في شجار مع رجل شيخ يتغطرس في عربة . ويفلت منه زمام نفسه ويقتل هذا الرجل وخادمه من دون أن يعرف أنه قتل أباه ، ملك ثيبة .

ويصل في تجواله الى ثيبة . وهناك يلتهم أبو الهول شباب المدينة وشاباتها . ولن يتوقف عن ذلك إلاّ إذا وجد شخصاً يعرف الاجابة الصحيحة عن اللغز .

أما اللغز فهو : «ما الذي يمشي أولاً على أربع ثم على اثنتين وأخيراً على ثلاث ؟» ووعد شعب ثيبة بأنهم سينصبون من يستطيع حلّ اللغز وإنقاذ المدينة من أبي الهول ملكاً ويزوجونه بأرملة الملك . ويخاطر أوديب ويجد الجواب عن اللغز : إنه «الإنسان» الذي يحبو طفلاً على أربع ويسير شاباً على اثنتين ويمشي شيخاً على ثلاث (بعصا) . ويرمي أبو الهول بنفسه في البحر وتتخلص المدينة من بلائها ؛ ويصبح أوديب ملكاً ويتزوج أمه جوكاسته .

وبعد أن حكم أوديب زمناً طويلاً بسلام تصاب المدينة بوباء يذهب ضحيته كثيرون من سكان ثيبة . ويكشف العراف تايريسايس أن الطاعون عقاب للاثم المزدوج الذي اقترفه أوديب ، وهو قتل الأب وغشيان المحارم . وفي باديء الأمر يحاول أوديب يائساً من أن يتعامى عن الحقيقة ؛ على أنه يرى نفسه مكرهاً على الاعتراف بها ؛ فيسمل عينيه وتنتحر جوكاسته . وتنتهي المأساة بأنّ أوديب يلقى جزاءه على جريمته التي ارتكبها عن جهل ورغم مساعيه المعروفة ليتفاداها . فهل كان افتراض فرويد مسوّغاً بأن هذه الأسطورة تثبت رأيه في أنّ دوافع لا شعورية متعلقة بغشيان المحارم والحقد النابع عنها على الأب المنافس يمكن ايجادها في كل طفل ذكر ؟ والحق أنه ليبدو كأنّ الأسطورة تؤيد نظرية فرويد في أنّ عقدة أوديب تحمل حقاً اسمه .

على أننا إذا بحثنا الأسطورة على نحو أدق واجهتنا أسئلة تبعث على الشك في صحة هذا التفسير . وباديء ذي بدء يلفت انتباهنا ما يلي : لو كان تحليل فرويد صحيحاً لكان علينا أن نتوقع أن الأسطورة ذكرت لنا أن أوديب التقى جوكاسته من دون أن يعلم أنها كانت أمه ، وأنه وقع في هواها ومن ثم ، وعن جهل أيضا ، قتل

أباه . ولكن لا شيء في الأسطورة يشير إلى أن أوديب جُذِب إلى جوكاسته أو انه وقع في هواها . والسبب الوحيد الذي يُعيِّن لنا لزواج أوديب وجوكاسته هو أنها ، إن صحَّ التعبير ، جزء لا يتجزأ من العرش . ولو كان علينا أن نعتقد حقاً أن أسطورة موضوعها الأساسي علاقة غشيان المحارم بين الأم والابن ، أما كان سقط عنصر الود والمحبة بين الاثنين كليهما نهائياً ؟ ويشتمل هذا السؤال على أكبر قدر من الاهمية سببها حقيقة الأمر أنَّ نبوءة الزواج بالأم لم تذكر في أقدم روايات الكاهن إلاَّ في حالة واحدة هي رواية نيكولاوس الدمشقي التي تعود في رأي كارل روبرت الى مصدر متأخر نسبياً[٣٦] .

وفضلاً عن ذلك يوصف أوديب بأنه البطل الشجاع الحكيم الذي يصبح حامي حمى ثيبة وولي نعمتها . وأنى لنا أن نفهم أن يقال عن أوديب نفسه إنه ارتكب في نظر معاصريه أشنع الجرائم ؟

ولقد أجاب المرء أحياناً عن هذا السؤال بالدلالة على أن طبيعة المأساة تقوم طبقاً لمفهوم اليونانيين بأنَّ العظماء وذوي السلطان والأقوياء ينزل بهم الشر فجأة . وسنرى من بعد هل مثل هذه الاجابة كافية أم أنَّ تفسيراً آخر يعطي جواباً أكثر اقناعاً وإرضاء .

وتواجهنا الاسئلة المذكورة عند النظر الى مسرحية «أوديب ملكاً» . فإذا درسنا هذه المأساة وحدها من دون أن نحسب حساباً للجزأين الآخرين من الثلاثية «أوديب في كولونس» و«انتيغوني» فإنَّ جواباً شافياً محال . على أننا قادرون على الأقل على أن نضع افتراضاً بأن الأسطورة لا ينبغي فهمها على أنها رمز الحب الخاص بسفاح القربى بين الأم والابن ، بل تمرُّد الابن على سلطة الأب في الأسرة الأبوية (البطريركية) ، وأنَّ زواج أوديب وجوكاسته ليس إلاَّ عنصراً ثانوياً ورمزاً لانتصار الابن الذي يحل مكان الأب بكل امتيازاته .

وفي وسعنا اختبار صحة هذه الفرضية على حين ندرس أسطورة أوديب ونبحثها ، ولا سيما في الصيغة التي يصور بها سوفوكليس الأسطورة في كلا الجزأين من الثلاثية ، في «أوديب في كولونوس» و «انتيغوني» . (والحق أنه لصحيح أن

---

(٣٦) انظر : كارل روبرت : أوديب ، برلين ، ١٩١٥ .

الثلاثيّة لم تكتب في هذا الترتيب؛ وقد يكون بعض العلماء على صواب في ما ذهبوا اليه أن سوفوكليس لم يخطط المسرحيات الثلاث على أن تكون ثلاثيّة . ومع هذا ينبغي أن نحلل المسرحيات الثلاث على أنها كلٌ لا يتجزأ . ويعزّ علينا أن نسلم بأن سوفوكليس صوّر مصير أوديب وأولاده في ثلاث مسرحيات من دون أن نتوخى العلاقة الضمنية للكل .)

وفي مسرحية «أوديب في كولونوس» نجد أوديب قبيل موته في غابة إلاهات الانتقام بالقرب من أثينا . وبعد أن سمل عينيه بنفسه بقي في بادىء الأمر في ثيبة التي حكمها عمه كريون الذي ينفيه بعد مدة من الزمن . وترافقه ابنتاه انتيغوني واسميني الى المنفى ، على حين يمتنع كلا الابنين ، ايتوكليس وبولينايكس عن أن يساعدا أباهما الأعمى . وبعد أن يغادر الأب ثيبة يتصارع الاخوان على العرش ، وينتصر ايتوكليس ؛ على أن بولينايكس يأبى الاستسلام والاذعان ويحاول أن يستولي على المدينة بمساعدة أجنبية وينتزع السلطة من أخيه . وفي مسرحية «أوديب في كولونس» نرى بولينايكس يطلب الصفح والغفران من أبيه ويلتمس منه التأييد والمؤازرة . على أنّ حقد أوديب على الولدين لا يرحم . فرغم استعطاف بولينايكس الحار الذي تدعمه انتيغوني برجائها وتوسلها يرفض الأب أن يسامح الابن . وآخر ما يقوله هو :

«اغرب عن وجهي ، أيها المخلوق المشوّه ، الذي لا أبا له هنا !
خذ ! أيها المنافق التعيس ، اللعنات ،
التي أرسلها إليك : ألّا ينتصر سيفك أبداً
على مدينة الآباء وألا تعود أبداً
إلى أرجوس ، إذ أنّه ، وأنت قاتله بنفسك ، سترمي بك
يد الأخ التي نبذتك .
استمعي إلي يا لعناتي واذهبْ به بعيداً
أنت أيها الليل الرهيب ، ليل الأب ترتروس*

(*) ترتروس (Tartaros) : في الأصل هاوية عميقة بعيدة عن الارض بُعْد السماء عنها . كانت سجناً لكرونوس (أصغر العمالقة) والجبابرة العمالقة الآخرين . ثم أصبحت ، فيما بعد ، المكان =

وأنت يا أرواح هذه الغابة المقدسة ، وكذلك أنت يا آريس(**) ،
الذي أثار ضغينة الأخوين الخبيثة !
لقد تناهى الى مسمعك ، فاذهب واخبر بها
شعب ثيبة والعصبة
التي تكاتفت معك : أنَّ أوديب
أرسل لابنيه هذه الهدايا الفخرية»

وفي مسرحية «انتيغوني» نجد صراعاً آخر موضوعاً أساسياً من موضوعات المسرحية المأساوية ، وهو صراع الابن والأب . فهنا يواجه كريون ، ممثل المبدأ السلطوي في الدولة والأسرة ، ابنه هايمون الذي يلومه على استبداده الذي لا يرحم وقسوته على انتيغوني . ويحاول هايمون أن يقتل أباه ، وحين يخفق في مسعاه ينتحر .

إنَّ الموضوع الذي يتخلل المسرحيات الثلاث هو الصراع بين الأب والابن . ففي «أوديب الملك» يقتل أوديب أباه لايوس الذي كان أراد أن يقتله وهو طفل . وفي «أوديب في كولونس» يطلق أوديب عنان حقده الوحشي العنيف على ابنيه ، وفي «انتيغوني» نجد الحقد نفسه بين كريون وهايمون . فلا وجود لمشكلة غشيان المحارم ، لا في علاقة ولدي أوديب بأمهما ولا في علاقة هايمون بأمه أو يريديكه .

فإذا حللنا «أوديب الملك» بالنظر إلى الثلاثية كلها بدا الافتراض مقنعاً بأنَّ المشكلة الحقيقية التي تدور حولها مسرحية «أوديب الملك» أيضا هي الصراع بين الاب والابن وليس مشكلة الزنا بالمحارم .

وكان فرويد حلل العداء بين أوديب وأبيه على أنه منافسة لا شعورية خلقتها ميول الابن الخاصة بسفاح القربى . وحين لا نوافق نحن على هذا التفسير يبرز السؤال عن الكيفية التي ينبغي علينا أن نفسر بها الصراع بين الأب والابن الذي يمكن الوقوع عليه أيضاً في المسرحيات المأساوية الثلاث .

= الذي يتعذب فيه الملعونون . وكان ينظر الى ترتروس على أنها تشخيص لابن ايثر (الاثير) من غايا ، ربة الأرض وواهبة الحياة . (المترجم) .

(**) أريس : ابن زيوس وهيرا . إله الحرب والاعصار ، لا سيما البرق والرعود . (المترجم) .

وتقدّم «انتيغوني» مفتاحاً لذلك . إن السبب لتمرد هايمون على كريون يعود إلى علاقة كريون الخاصة بهايمون . فكريون يمثل المبدأ الصارم في استبداده سواء في الأسرة أم في الدولة ؛ وعلى هذا النوع من السلطة المطلقة يتمرد هايمون ويثور . إنّ تحليلاً لثلاثية أوديب لسوف يبين أن مناهضته السلطة الأبوية المطلقة هي الموضوع الأساسي وأن منشأ هذا الصراع يعود إلى عهد بعيد ، إلى الصراعات القديمة قدم الزمن بين النظام الاجتماعي الذي يمثل سلطة الأب والنظام الاجتماعي الذي يمثل سلطة الأم . فأوديب يمثّل ، كما يمثل هايمون وانتيغوني ، مبدأ سلطة الأم . وهم كلهم يهاجمون نظاماً اجتماعياً ودينياً يقوم على حكم الأب وامتيازاته التي يمثلها لايوس وكريون .

ولما أنّ هذا التحليل يقوم على تحليل باخ أوفين للاسطورة اليونانية فإنه لضروري أن نعرّف القارىء بشيء من مبادىء نظرية باخ أوفين (Bachofen) . ففي كتابه «حق الأم» الذي ظهر عام ١٨٦١م ، يذهب باخ أوفين إلى أنّ الصلات الجنسية كانت في بدء تاريخ البشرية مختلطة مشوشة وغير شرعية . ولهذا السبب فإنّ الأبوة أو النسبة إلى الأبوين لم تكن مضمونة إلاّ من جهة الأم وأنه لم يكن في الامكان عزو قرابة الدم إلاّ إليها وأنها كانت ، بسبب ذلك ، السلطة والمشرّع والحاكم سواء في المجموعة الأسرية أم في المجتمع . وعندما حلل باخ أوفين وثائق دينية من العصر اليوناني والروماني القديم خلص الى النتيجة أن سيادة النساء لم تتجلّ في نطاق المجتمع والمنظمة الأسرية فحسب ، بل في الدين أيضاً . ووجد براهين على أنه قبل الايمان بالهة الأولب كانت هنالك ديانة كنّ فيها إلاهات وأشكال أمهات أعلى الآلهة .

وذهب باخ أوفين الى أن الرجال كانوا ظهروا على النساء في عملية امتدت زمناً طويلاً وأخضعوهن وأنهم كانوا أفلحوا في أن يحكموا في تسلسل رتب اجتماعي . وتميّز هذا النظام الأبوي (البطريركي) الذي جاء على هذا النحو بتوحيد الزواج (ولو من جهة المرأة على الأقل) وتميز بسلطة الأب في الأسرة وبدور الرجال الكبير في مجتمع منظم تنظيماً متسلسل المراتب والدرجات . وطابقت ديانة هذه الحضارة البطريركية تنظيمها الاجتماعي . وبدلاً من إلاهات صار الهة ذكور فقط أعلى الحكام على الناس ، قياساً على سلطة الأب في الأسرة .

ومن أهم الأمثلة وأبرزها على تحليل باخ أوفين للأسطورة اليونانية هو تحليله لمسرحية اسخيلوس «الاوريستيا» التي هي ، بحسب تفسيره ، تصوير رمزي للصراع النهائي الحاسم بين الإلاهات والآلهة .

لقد قتلت كليتمنسترا زوجها أجاممنون لكي لا تضطر الى التخلي عن عشيقها (اجيست) . واوريست ابنها من اجاممنون ينتقم لموت أبيه بأن يقتل الأم والعشيق . أمّا ربات الانتقام اللواتي يمثلن نظام سلطة الأم والامهات القديمات فيلاحقن اوريست ويطلبن معاقبته ، على حين يؤازر أبولو وأثينا (التي لم تولد من امرأة ، بل ولدت من رأس زيوس) أوريست ممثلين عن الدين الأبوي (البطريركي) . ولا يوجد للعالم الخاص بنظام سلطة الأم إلاّ رابطة مقدسة هي رابطة الأم والطفل . وعلى هذا يكون قتل الأم أيضاً من أكبر الجرائم التي لا تغتفر . ومن ناحية نظام سلطة الأب فإنَّ حبّ الابن للأب ورهبته منه أعلى الواجبات ؛ وعلى هذا فإن قتل الأب هو من أكبر الجرائم . إن قتل كلتيمنسترا لزوجها ، الذي هو من ناحية نظام سلطة الأب جريمة نكراء بسبب منزلة الزوج العالية ، ليدان على نحو متباين انطلاقاً من وجهة النظر الخاصة بنظام سلطة الأم ، ذلك لأنها «لم تكن مرتبطة بالرجل الذي قتلته ، برابطة الدم» . ولا يثير قتل الزوج ربات الانتقام لأنها لا تقيم وزناً إلاّ لرابطة الدم وقدسية الأم . أمّا بالنسبة لآلهة الاولمب فإنَّ قتل الأم ليس بجريمة إذا كان مقروناً بالثأر لموت الأب . وفي مسرحية «الاوريستيا» يُبرأ أوريست ولو أنَّ هذا النصر ، نصر نظام سلطة الأب ، يخفف بعض الشيء بوساطة مصالحة مع الالاهات المهزومات . فهن يعلنَّ موافقتهنّ على النظام الجديد ويكتفين بالدور الثانوي ، دور حاميات الأرض وإلاهات خصب الأراضي الزراعية .

ولقد بيّن باخ أوفين أن الفرق بين نظام سلطةالأب ونظام سلطة الأم تجاوز سيادة الرجال أو النساء الاجتماعية بحيث إنها ، أي هذه السيادة ، كانت لها علاقتها بالمبادىء الاجتماعية والمبادىء الاخلاقية على سواء . وتتميز حضارة نظام سلطة الأم بانها تؤكد روابط الدم والارتباط بالأرض والتقبل السلبي لأوضاع الطبيعة كلها . أما مجتمع نظام سلطة الأب فتميّز باحترام القانون الذي وضعه الانسان وبتفكير تغلب عليه العقلانية وبالسعي لتغيير الأوضاع الطبيعية . وبالنسبة إلى هذه المبادىء فإنَّ حضارة نظام سلطة الأب هي تقدّم ثابت أكيد مقابل عالم نظام سلطة

الأم . على أنّ المبادىء الخاصة بنظام سلطة الأم كانت ، من جهة أخرى ، متفوقة ومهيمنة على المبادىء المظفرة العائدة إلى نظام سلطة الأب . وتبعاً للمفهوم الخاص بنظام سلطة الأم فإنّ الجميع سواسية ، ذلك لأنهم كلهم أولاد أمهات ، وكل واحد منهم هو ولد الأم الأرض وتحب الأم أطفالها كلهم ، بلا قيد وبلا شرط ، حباً لا تباين فيه لأن حبها يقوم على أساس أنهم أطفالها هي بالذات ، ولا يقوم على خدمة مميزة أو انجاز مميز . إنّ هدف الحياة هو سعادة البشر ، وما من شيء أكثر أهمية وأعظم كرامة وأجدر من الوجود الانساني والحياة . أما نظام سلطة الأب فيرى طاعة السلطة والاذعان لها أمّ الفضائل . وعوضاً من مبدأ المساواة نجد مفهوم الأب المفضل ونظام تسلسل الرتب والدرجات في المجتمع .

وقال باخ أوفين في مقدمة كتابه «حق الأم» : «إنّ تلك العلاقة التي ترعرعت عليها الانسانية في باديء الأمر وارتقت الى الأدب والأخلاق والتي تصلح منطلقاً لتطور كل فضيلة ولتهذيب كل جانب نبيل من جوانب الوجود هي سحر الأمومة الذي يفعل فعله في خضم حياةٍ مليئة بالعنف والذي يعد المبدأ الالهي للحب والاتحاد والسلام . وفي صون الجنين تسبق الزوجة الزوج الى أن تتعلم كيف تبسط اهتمامها المحب على كائنات أخرى متخطية حدود ذاتها وتوجه كل مواهب الاختراع والابداع التي تمتلكها إلى الابقاء على وجود الغير والحفاظ عليه وتجميله . ومنها يبدأ الآن كل نهوض بالأدب والاخلاق ، ومنها تبدأ كل نعمة في الحياة وكل حب شديد وتفانٍ وكلّ رعاية وكل نوح .

على أنّ الحب النابع من الأمومة ليس بأكثر عمقاً فحسب ، بل أعم أيضاً وأكثر شمولية . وكما أن نظام سلطة الأب يقوم على الحصر والتحديد والتقييد فإنّ نظام سلطة الأم يقوم على العمرمية والشمول . ومن الأمومة الوالدة تنشأ الأخوة العامة لجميع البشر الذين يندمج وعيهم وتقديرهم وعرفانهم بتطوير الأبوة وتكميلها وتهذيبها . فالأسرة القائمة على حب الأب تنتهي إلى هيئة فردية ؛ أمّا الأسرة القائمة على حق الأم فتحمل ذلك الطابع النموذجي العام الذي يبدأ به كل تطور ويميّز الحياة المادية من الحياة الفكرية الرفيعة . فالصورة الغانية لديميتر* ، أم الأرض ،

(*) (Demeter) : هي ربة الزراعة عند اليونان وابنة كرونوس واخت زيوس . (المترجم)

هي أن بطن كل امرأة سيهب مواليد الأخرى اخوة واخوات ، وسيبقى هذا حتى تنحل وحدة الجماعة بتكوين الأبوة ويتغلب مبدأ التفرغ والانقسام على الشيء الواحد غير المتمايز . وظهر في حكومات الأم هذا الجانب من مبدأ الأمومة بمظهر متنوع ، بل إنه لقي نفسه قبولاً واعترافاً صنيغ صياغة قانونية ؛ وعليه يقوم ذلك المبدأ ، مبدأ حرية عامة ومساواة عامة ، سنجده في أكثر الأحايين أحد السمات الأساسية في حياة شعوب وأقوام تحكمها النساء . وتفرط حكومات تحكمها النساء تفريطاً خاصاً على غياب الانقسام الروحي والنفور من الشقاق . . .

إنَّ سمة من سمات انسانية رقيقة نراها تبرز في تعابير الوجه في اللوحات المصرية لتتخلل الأدب والأخلاق في العالم الذي تسوسه النساء .»[٣٧] ويبرهن على صحة اكتشاف باخ أوفين الامريكي لويس هـ . مورجان الذي خلص ، بمعزل عنه ، إلى النتيجة أنَّ نظام القرابة لهنود أمريكا ، مثله مثل نظام القرابة في آسيا وافريقيا واستراليا ، قام على أساس مبدأ سلطة الأمومة وأنَّ أهم المؤسسات الاجتماعية في مثل هذه الحضارات ، أي رباط العشيرة ، كانت أشيدت على مبدأ سلطة الأم[٣٨] . والحق أنَّ آراء مورجان في مبادىء القيمة في مجتمع أمومي كانت شبيهة كل الشبه بآراء باخ أوفين . لقد وضع النظرية القائلة إن أعلى أشكال الحضارة سيكون تكراراً ، لكنها على مستوى أعلى ، لمبادىء الحرية والمساواة والأخوة التي كانت مميزة لروابط العشيرة القديمة . ولقد طعن معظم علماء الانتربولوجيا في نظرية باخ أوفين ومورجان في نظام سلطة الأم ، هذا اذا لم يغفلها المرء إغفالاً تاماً . كما أن دراسات روبرت بريفولت لاقت المصير نفسه ؛ فقد استأنف هذا أبحاث باخ أوفين[٣٩] ودللَّ عليها بتحليل رابع لبيانات انتربولوجية . وإنَّ الحدة التي هوجمت بها نظرية سلطة الأم لتبعث على الشك في أنَّ النقد لم يكن خلواً من التغرضات ذات المنشأ الوجداني ومن التحامل على رأي أو تفسير هو

---

٣٧) انظر : باخ أوفين ، يوهان ياكوب : حق الأمومة ، ص ١٤ ـ ١٦ .

٣٨) انظر : مورجان : ل . ه : نظم رابطة الدم والقرابة في الأسرة الانسانية ، ١٨٧٠ ، حيث عرض لهذا بشيء من الحذر على حين تناول ذلك على نحو أكثر جزماً وحزماً في : المجتمع القديم ، نيويورك ١٨٧٧ .

٣٩) انظر : بريفولت ، ر . : الأمهات : لندن ١٩٢٨ .

غريب كل الغرابة عن تفكير حضارتنا الأبوية وعن حسّها . وليس من شك في أنّ كثيراً من الاعتراضات الفردية على نظرية سلطة الأم المطلقة مسوّغة , أما فرضية باخ أوفين الأساسية ودعواه أننا واجدون تحت ديانة اليونان الأبوية (البطريركية) الحديثة أقدم طبقة لديانة أمومية (متريركية) فإنها لتبدو لي ، مع هذا ، معللة تعليلاً مقنعاً .

أننا الآن ، وبعد هذه اللمحة الموجزة في نظرية باخ أوفين ، في وضع أفضل لنستأنف الحديث عن فرضيتنا بأن العداء بين الأب والابن الذي هو موضوع ثلاثية سوفوكليس يجب فهمه على أنه هجوم ممثلي النظام الأمومي المغلوب على النظام الابوي المظفر .

ولا تقدم لنا مسرحية «أوديب ملكاً» إلّا القليل من الاثباتات المباشرة على نظريتنا ، بصرف النظر عن بعض النقاط التي نريد أن نتطرق اليها الآن . ومن الناحية التاريخية تقدّم لنا أسطورة أوديب الأصلية بمختلف رواياتها الموجودة في اليونان والتي بنى عليها سوفوكليس مسرحيته دليلاً مهماً . ففي مختلف صياغات الأسطورة كان لشخص أوديب دائماً علاقة بعبادة إلاهات الأرض الممثلات لدين أمومي . وفي كل روايات هذه الأسطورة تقريباً ، بدءاً من الاجزاء التي تتناول التخلي عن الطفل بطرحه في العراء وانتهاء بالأجزاء التي يحتل فيها موت أوديب مكان الصدارة تظهر آثار هذه الصلة[٤٠] . وهكذا كان لإلهة الأرض ، ديميتر ، مثلاً معبد في ايتيونوس أيضاً[٤١] ، وعلى هذا كانت ايتيونوس المدينة البوتية الوحيدة التي صانت تابوت أوديب ورعت مزاره المقدس . وأغلب الظن أن الأسطورة كلها كانت ترجع إليها . وفي كولونوس (بالقرب من أثينا) حيث وجد أوديب مثواه الأخير كان لديميتر وربات الانتقام معبد قديم ، وأغلب الظن أنه كان موجوداً قبل نشوء أسطورة أوديب[٤٢] .

---

٤٠) انظر : شنايديفين ، فريدريش فيلهلم ، أسطورة أوديب ، (أبحاث الجمعية الملكية للعلوم في غوتينغين ، مجلد ٥) غويتنغين ١٨٥٢ ، ص ١٩٢ . (دار نشر ديتريش) .

٤١) انظر : روبرت ، كارل ، أوديب ، برلين ١٩١٥ ، ص ١ وما بعدها .

٤٢) انظر : المرجع السابق ، ص ٢١ .

ولقد أبرز سوفوكليس ، كما سنرى ، هذه العلاقة بين أوديب وإلاهات الأرض ووكدها في مسرحية «أوديب في كولونوس» توكيداً شديداً . ويبدو أنَّ وجهاً آخر من أوجه أسطورة أوديب ، وهو علاقة أوديب بأبي الهول ، يشير أيضاً إلى علاقة أوديب بالمبدأ الأمومي كما وصفه باخ أوفين . فأبو الهول كان أعلن أن ذلك الذي يستطيع حل اللغز قادر على أن ينقذ المدينة من غضبه . وينجح أوديب في ذلك على حين كان الآخرون ممن سبقوه أخفقوا . وبذلك يصبح منقذ ثيبة ؛ على أننا إذا انعمنا النظر في اللغز فإننا نلاحظ أنه لا يقدم ولا يؤخر بالقياس إلى مقدار الجائزة لقاء حله الصحيح . أنَّ أيَّ صبي ذكي في الثانية عشرة ليستطيع أن يحزر أن الذي يسير على أربع ثم على اثنتين وأخيراً على ثلاث هو الانسان . لِمَ كان الحل الصحيح البرهان لمثل هذه القوى الخارقة والدليل على أن تجعل من صاحبها منقذاً للمدينة ؟ ونجد الجواب على هذا السؤال حين نحلل المدلول الحقيقي للغز ونراعي في أثناء هذا التحليل المعايير لتفسير الأساطير والأحلام كما تطورت على أيدي باخ أوفين وفرويد . (على أن تفسيرهما لأسطورة أبي الهول يختلف عن التفسير التالي هنا . فباخ أوفين يؤكد طبيعة السؤال ويرى أنَّ أبا الهول يعرّف الانسان من حيث وجوده المادي الأرضي ، وهذا يعني وفق وجهات نظر متعلقة بنظام سلطة الأم . ويذهب فرويد إلى أن فضول الطفل الجنسي يتبدى في اللغز على نحو رمزي . على أنَّ باخ أوفين وفرويد أوضحا معاً أن أهمَّ عناصر المضمون الحقيقي لحلم من الأحلام أو أسطورة من الأساطير كثيراً ما يظهر بمظهر الجزء غير المهم تقريباً أو الجزء التافه من الصيغة الصريحة ، على حين يظهر الشيء الذي يهمّ حقاً أنه ليس له في ذلك إلاَّ دور ثانوي ، ليس غير .)

وإذا طبقنا هذا المبدأ على أسطورة أبي الهول جاز ألاّ يكون العنصر الأهم في الأحجية هو الجزء الذي يتمّ توكيده في الصيغة الصريحة توكيداً خاصاً ، بل حلّ اللغز : وهو «الانسان» . وحين نترجم كلمات أبي الهول من اللغة الرمزية إلى اللغة الواضحة المكشوفة نسمعه يقول : إنَّ ذلك الذي يعرف أنَّ أهم جواب يستطيع الانسان أن يعطيه عن أصعب الأسئلة التي تطرح عليه هو الانسان نفسه . وإن هذا ليستطيع أن ينقذ البشرية . فاللغز نفسه الذي لا يتطلب حلّه إلاَّ القليل من الفطنة لا يقوم إلاَّ مقام حجاب للمعنى الكامن للسؤال الذي يدور موضوعه حول أهمية

الانسان . على أن هذا التوكيد الشديد بالذات أن للانسان أهميته وشأنه يعود إلى مبدأ العالم الذي يخضع لسلطة الأم ، كما وصفه باخ أوفين . وفي مسرحية «انتيغوني» يجعل سوفوكليس هذا المبدأ مركزاً لموقف انتيغوني المناقض لموقف كريون . وإنَّ الشيء الأهم في نظر كريون والنظام الأبوي (البطريركي) الذي يمثله هو الدولة والقوانين التي أوجدها الناس وأنَّ على المرء أن يخضع لها . على أن الشيء الذي يهم انتيغوني هو الانسان نفسه والقانون الطبيعي والمحبة . فأوديب يصبح منقذ مدنية ثيبة لأنه أثبت لأبي الهول بجوابه أنّه ينتمي إلى نفس العالم الذي تمثّله أنتيغوني ويتجلى في النظام الأمومي ، نظام سلطة الأم المطلقة .

ويظهر أنَّ هنالك شخصاً واحداً في الأسطورة وفي مسرحية سوفوكليس «أوديب ملكاً» يدحض فرضيتنا ويعارضها ، إنه جوكاستا . فإذا ذهبنا إلى أنها تمثل مبدأ سلطة الأم المطلقة فسيبرز السؤال لماذا تملك الأم عوض من أن تجني ثمرة الانتصار ، هذا إذا صحّ التفسير المعطى هنا . والاجابة على هذا السؤال ستبيّن أن دور جوكاستا لا يعارض فرضيتنا ، بل على الضدّ من ذلك ، إنه يؤيدها ويعززها . وينحصر جرْمُ جوكاستا في أنها لم تحقق واجبها كأم ، وأنها أرادت أن تقتل طفلها لكي تنقذ الزوج . ولقد كان هذا في مفهوم المجتمع الأبوي (البطريركي) قراراً مشروعاً ؛ أما في مفهوم المجتمع الأمومي (المتريركي) فكان هذا جريمة لا تغتفر . فهي التي تجرّ بهذا الجرم إلى سلسلة حوادث تؤدي في نهاية المطاف الى هلاكها وهلاك زوجها وابنها أيضاً . ولكي نفهم هذا ينبغي ألاّ تغيب عنا الحقيقة الواقعة أن الأسطورة ، كما عرفها سوفوكلس ، كانت تعدّلت وفقاً للنظام الأبوي ، نظام سلطة الأب المطلقة ، بحيث يكون إطار المعايير الصريح المفهوم نظام الأبوة وأنَّ المعنى الكامن القديم لا يبرز إلاّ في شكل مخفي ومشوّه في كثيرٍ من الأحيان . وكان نظام سلطة الأب المطلقة انتصر ، وتبيّن الأسطورة الأسباب لانهيار نظام الأمومة وتريد أن توضح لنا أنَّ الأم سببت انهيارها الذاتي بأنها أخلت بأسمى واجباتها . على أننا لا نستطيع أن ندلي بحكم نهائي في ما إذا كان هذا التحليل لدور جوكاستا والملك أوديب صحيحاً إلاّ بعد أن نحلل الجزأين الآخرين من الثلاثية وهما «أوديب في كولونوس» و«أنتيغوني» . وإننا لنرى في مسرحية «أوديب في كولونوس» أوديب الأعمى يصل بصحبة ابنتيه كلتيهما إلى غابة إلاهات الأرض بالقرب من أثينا . ولقد

تنبأ الكاهن أن أوديب سيحمي أثينا من غارات أعدائها إذا ما دفن في هذه الغابة . وفي سياق المسرحية ينبيء أوديب ثيسيوس بنبوءة الكاهن . ويتقبل ثيسيوس هـذا الطلب مسروراً ذلك أنه قدّر على أوديب أن يصبح بعد موته حامي مدينة اثينا والمنعم عليها . ويعتكف أوديب في غابة الإلاهات ويموت موتاً غامضاً لا يعلمه إلاَّ ثيسيوس . فمن هنَّ الإلاهات ؟ ولِمَ يقدِّمن لأوديب مكان عبادة ؟ وماذا يعني الوحي الذي ينبيء أن أوديب سيكون له من جديد دور المنقذ والحامي المنعم إذا ما لقي مثواه الأخير في هذه الغابة ؟

وفي مسرحية «أوديب في كولونوس» يتوسل أوديب للإلاهات :

«أيتها النسوة المحترمات ذوات النظرة الصافية ،
بما أني ألقيت عندكن أوّلا عصا الترحال
فاحترمن ، إذاً ، نبوءة أبولو فيَّ !
ولما انه يتنبأ بالكثير من الشر والشؤم
فقد وعد طوال سنين براحة متأخرة :
في البلد الأخير سقف مضياف في مقرّ
النساء المبجلات . وهناك أتممت
أنا أيامي الشاقة ، أيام الشدّة ، مانحاً الأجر الوفير
لمن يكرم وفادتي وشرّاً مستطيراً
لمن طردني .»

يسمي أوديب الإلاهات «النساء المحترمات» «والنساء المبجلات» .

لماذا هن محترمات هكذا ومهابات ما دمن في نظره إلاهات مثواه الأخير اللواتي سـمنحنه السلام في آخر المطاف ؟ ولِمَ تقول الجوقة :

«ويسير الشيخ على غير هدى من أرض إلى أرض ،
فلو كان من المكان
لما دخل هو حديقة النساء الرهيبات التي
لا يمكن الاقتراب منها :
ونمر عابري سبيل
صـامتاً وبكماً ،

ونحرك الشفاه
لنداء غير مسموع
وها إنَّ أحداً ما آتٍ من غير رهبة أو خوف !»

إنَّ الجواب على هذا السؤال لا يأتي إلاَّ من مبدأ التفسير الذي عرفه باخ أوفين وفرويد والذي ينطبق على الأساطير والاحلام على سواء . فحين يعود أحد العناصر البارزة في أسطورة وحلم الى مرحلة موغلة في القدم ولا يعود إلى نظام الاقيسة والتساوي في الرتبة والقيمة في عهد الصياغة النهائية للأسطورة عندها يكون لهذا في كثير من الأحيان شيء مخيف في حدّ ذاته ، شيء يبعث على الرهبة . ولما أنه يمسّ شيئاً خفياً هو التابو (المحرّم) فإنَّ خوفاً من نوع خاص يسيطر على العقل الواعي ، ألا وهو الخوف من الشيء الغامض المجهول .

وفي أحد المواضع في مسرحية «فاوست» التي لم تفهم فهماً كافياً عالج غوته مسألة الخوف من الأمهات الغامضات مثلما عالجها سوفوكليس في مسرحية «أوديب في كولونوس» . ويقول ميفيستو فيلس :

«وعلى كره اكشف سرّاً أعلى .
الالاهات يتربعن على العرش منفردات في جلال ،
ولا يحيط بهن مكان ولا حتى زمان ،
والحديث عنهن حيرة ،
إنهن الأمهات !
فاوست (مذعوراً) : أمهات !
ميفيستوفيلس : ألا يفزعك هذا ؟
فاوست : الأمهات ! الأمهات ! - إنَّ لهذا وقعاً غاية في الغرابة
ميفيستوفيلس : إنَّ الأمر لكذلك . الالاهات اللواتي تجهلوهن
أيها الفانون ، إنّا لنسميهن على مضض .
ولك أن تبحث عن منزلهن في الأغوار ؛
وأنت نفسك المسؤول عن أننا نحتاج اليهن»[٤٣]

---

٤٣) انظر : غوته ، يوهان فولفغانغ فون «الأعمال الكاملة» فاوست ، المجلد ١٣ الجزء الثاني ، =

وهنا ، وكما هي الحال في مأساة سوفوكليس ، يخيف ذكر الالاهات محضاً ويفزع ذلك لأنهن ينتمين إلى عالم موغل في القدم بعيد عن ضياء النهار والوعي . وكما يتضح من هذه النبذة السريعة فقد استبق غوته نظرية باخ أوفين . وبناء على مذكرات ايكرمان (في العاشر من كانون الثاني عام ١٨٣٠) فقد ذكر غوته أنه : «وجد لدى بلوتارك أن الحديث في العصر اليوناني القديم كان عن أمهات بصفتهن إلاهات . » والموضع الذي استشهدنا به لتونا بدا لمعظم المعلقين والشارحين غامضاً ملغزاً ، وحاولوا أن يفسروا الأمهات على أنهن رمز لأفكار افلاطونية وانهن ملكوت غير محدد الشكل لعالم العقل الباطني وغير ذلك . والحق أنه يجب أن يبقى أيضاً ملغزاً حين لا يفهمه المرء بمفهوم معلومات باخ أوفين .

وفي نهاية المطاف يخلد أوديب الجوّال للراحة في حديقة هؤلاء الالاهات «الرهيبات» ، وهنا يجد موطنه الحقيقي . ومع أنَّ أوديب نفسه رجل فانه ينتمي الى عالم هؤلاء الالاهات في المرحلة الأمومية، وترتكز قوته على ارتباطه بهن .

إنَّ عودة أوديب إلى غابة الالاهات هي في الحقيقة أهم المفاتيح ؛ على أنها ليست المفتاح الوحيد لفهم مكانته ممثلاً لنظام سلطة الأم . ونجد عند سوفوكليس إلماعاً آخر إلى نظام سلطة الأم حين يشير أوديب وهو يمدح ابنتيه إلى نظام سلطة الأم المصري ؛ (وأغلب الظن أنَّ سوفوكليس يرجع هنا إلى موضع عند هيرودوت) :

«كم طابق خاطرهما ومجرى يومهما كلّه
طريقة المصريين !
هناك يجلس الرجل في بيته وينسج
على حين تسعى النساء في الخارج
ويحملن هماً لحاجة الحياة .
ويليق بالابنين شظف العيش هذا .
لكنهما يلزمان الحجرة مثل النساء ،
وانتما تحملان عبأهما طوعاً وتقومان
بأود الأب المسكين»

= رواق مظلم ، الأبيات رقم ٦٢١١ - ٦٢١٩ .

وبمعنى مماثل يفصح أوديب عن نفسه حين يقارن ابنتيه بابنيه ويقول في انتيغوني وإسمينا :

«من كلتا هاتين اللتين ليستا إلاّ فتاتين
سيكون لي خبزي اليومي بقدر ما تستطيعان
ومأوى ليلي وكل خدمة من خدمات الأبناء ،
أما هما فينقضان على عرشي ،
على صولجان بلادي وشرف حكمها .
لكن المرء لن يراني أبداً في عصبتهما ،
ولن ينعما أبداً بالعرش» .

ولقد سبق لنا أن طرحنا السؤال : أما كان على المسرحية أن تخبرنا أن أوديب عشق أمه من دون أن يدري لو كان غشيان المحارم هو حقاً الشيء الجوهري في جرمه . وفي مسرحية «أوديب في كلونوس» يترك سوفوكليس أوديب يجيب بنفسه على هذا السؤال . فالزواج بها لم يحقق له مرامه ولم يكن قراره الشخصي ، بل كان احدى الجوائز لمنقذ المدينة .

«وإلى سرير رهيب
ربطتني المدينة ، واويلتاه ،
وما من أحد أحسّ باللعنة .»

ولقد سبق أن أشرنا إلى أنّ الموضوع الأساسي في الثلاثية ، أي الصراع بين الاب والابن ، قد ظهر تماماً في مسرحية «أوديب في كولونوس» . فالكره بين الأب والابن ليس هنا كرهاً لا شعورياً كما في «أوديب ملكاً» . بل على الضد من ذلك فإن أوديب يشعر بكرهه لابنيه شعوراً مطلقاً ، ويرميهما بأنهما خرجا على قانون الطبيعة الأزلي . ويزعم أن لعنته أقوى من صلاة ابنيه لبوسايدون «وإن كانت لا تزال تحتفظ دايكه (Dike) الرفيعة المقام بمقامها القديم الى جانب زيوس» . وفي الوقت نفسه

دايكه (Dike) : هي إلاهة العدالة وحامية الروابط الطبيعية لا حقوق الابن البكر التي أوجدها الانسان . وهي ابنة زيوس ومستشارة في جلسات أبيها القضائية فتكشف سيئات الناس وجرائمهم . (المترجم) .

يفصح عن كرهه لأبويه كليهما على حين يرميهما بأنهما كانا نويا أن يضحيا بحياته .
وفي مسرحية «أوديب في كولونوس» ليس من وجود لأية إشارة الى أنَّ عداء الابنين لأبيهما أوديب مرتبط بشكل أو بآخر بموضوع غشيان المحارم . فالفكرة الوحيدة التي يمكننا أن نجدها في المأساة هي طمعهما في السلطة وتنافسهما مع أبيهما .

وتبين نهاية مسرحية «أوديب في كولونوس» بوضوح أكثر معنى ارتباط أوديب بالالاهات الأرض . وبعد أن تصلي الجوقة الى «الالاهات غير المرئيات» وإلى «إلاهة العالم السفلي» يروي الرسول كيف مات أوديب . فقد ودع ابنتيه وذهب ، لا يصحبه أحد إلاَّ ثيسيوس ؛ على أنَّ هذا لا يأخذ بيده إلى معبد الإلاهات . والظاهر أنه ليس في حاجة إلى قيادة ؛ إذ أنه هنا في بيته أخيراً ويعرف طريقه . ويقول الرسول عن ثيسيوس :

«ولما أنَّ الملك وضع يده متراساً
أمام عينه ، لكأنما رأى ، وهو مقشعرّ ،
صورة مدهشة بديعة أمامه»

ولدينا هنا أيضاً إشارة ملحة الى شيء ما هو مخيف ورهيب . إنَّ الأبيات التي تلي الاستشهاد أعلاه لتبين بوضوح كيف تمتزج بقايا الدين ذي السلطة الأمومية بنظام السلطة الأبوية السائد . ويروي الرسول أنه رأى ثيسيوس :

«بعد فترة وجيزة رآه المرء
ينحني إلى الأرض ، وفي الوقت نفسه
يرفع صلاته الى مقر الالهة»

وتبين خاتمة وصف موت أوديب نفس الخليط من النظامين الأبوي والأمومي . ويمضي الرسول قائلاً :

«ولكن أية نهاية انتهى ذلك الشيخ ،
لا أحد يعرف هذا إلا ثيسيوس بالذات
إذ أن ومضاً بارقاً لإله
لم يتخطفه ، ولا زوبعة
ثارت من البحر في تلك اللحظة .
كان هذا رسول الالهة ، والأرض انشقت

واحتضنته برقة
ومن دون عذاب ومرض نأى هذا الرجل
وغاب عن هذا العالم ، وما من أحد
مثله كان رائعاً يستحق الاعجاب .
ومنْ بدا له هذا سخفاً فلن أستطيع
أن أهديه إذا ظنّ نفسه أكثر حكمة»

فالرسول لا يعرف ما ينبغي أن يظنه ولا يعرف هل غيّب أوديب عن هذه الدنيا الالهة فوق أم الالاهات تحت ، وهل غاب من هذه الدنيا عن عالم الأباء أم عن عالم الأمهات . على أننا نستطيع أن نكون على ثقة من أنه في صيغة وضعت منذ قرون بعد انتصار آلهة الاولمب على إلاهات الارض لا يمكن أن يكون هذا الشك إلاّ تعبيراً عن الاقتناع الخفي بأن أوديب أعيد إلى المكان الذي انتمي اليه ، أي إلى الأمهات .

وكم هي متباينة نهاية «أوديب في كولونوس» عن نهاية «أوديب ملكاً» ! ففي المسرحية الأخيرة «أوديب ملكاً» بدا مصير أوديب محتوماً بأنه مصير المجرم المأساوي الذي يفصله جرمه إلى الأبد عن أسرته وبني قومه وحظه ، إنه المصير أن يكون منبوذاً ومكروهاً من الجميع وإنْ كان يرثى له . وفي «أوديب في كولونوس» يموت وحوله ابنتاه المحبوبتان وأصدقاء جدد صار ولي نعمتهم ، وليس لديه أي احساس بالذنب ، بل مقتنع بحقه ، لا بصفته منبوذاً ، بل بصفته شخصاً وجد أخيرا طريقه الى البيت على الأرض والى الالاهات اللواتي يحكمن هناك . فالذنب المأساوي الذي يتخلل كل شيء في مسرحية «أوديب ملكاً» يزول ، ولا يبقى إلاّ صراع مرير كل المرارة ومعقد كما كان عليه في السابق ، وهو الصراع بين الأب والابن .

والصراع بين مبدأ سلطة الأبوة ومبدأ سلطة الأم هو موضوع مسرحية «انتيغوني» ، الجزء الثالث من الثلاثية . وهنا يتخذ شخص كريون الذي كان في كلتا المسرحيتين الاخريين على شيء من عدم الوضوح ، لوناً ومعالم . فقد جعل من نفسه طاغية مدينة ثيبة بعد أن كان سقط ابنا أوديب كلاهما ، الأول عند الهجوم على المدينة التي أراد أن يستأثر فيها بالسلطة ، والآخر عند الدفاع عن عرشه . وأمر كريون أن يوارى الملك الشرعي ، أما جثة المعتدي فيجب أن تترك بلا دفن ، فكان

هذا أسوأ اذلال وأشنع فضح استطاع المرء أن يقوم به نحو انسان تبعاً للعادات اليونانية . إنَّ المبدأ الذي مثله كريون هو أفضلية قوانين الدولة على روابط الدم وأفضلية طاعة السلطة على اتباع وصية الانسانية الطبيعية . وتأبى انتيغوني أن تخرق قوانين الدم وتضامن الكائنات البشرية كلها من أجل المبدأ السلطوي الاستبدادي القائم على تسلسل المراتب .

ولقد وصف باخ أوفين كلا المبدأين اللذين يمثلهما كريون وانتيغوني بمبدأ الأبوة ومبدأ الأمومة . وفي مبدأ الأمومة تعد أواصر قربى الدم الرباط الأساسي المتين ؛ إنه مبدأ مساواة البشر كلهم ومبدأ احترام الحياة الانسانية ومبدأ المحبة . أما في مبدأ الأبوة فيكون للعلاقة بين الرجل والمرأة والحاكم والمحكوم الأولوية على روابط الدم ؛ إنه مبدأ النظام والسلطة والطاعة وتسلسل المراتب .

وتمثل انتيغوني مبدأ الأمومة . وعلى هذا فهي الغريم الذي يرفض كل مصالحة أو حل وسط . وهي خصم كريون ، ممثل السلطة الأبوية . أمّا اسمينا فقد رضيت بهزيمتها وأذعنت للنظام الأبوي المنتصر . فهي ترمز الى النساء في ظل السيادة الأبوية . ويبين سوفوكلس على نحو واضح جداً طبيعة دور إسمينا حين يتركها تقول لانتيغوني التي عزمت على أن تخالفَ أمر كريون :

«والآن وقد بقينا نحن الاثنتين وحيدتين : انظري ،
كيف سنهلك على أفظع صورة ،
إذا ما خرجنا عنوة على أمر الملك وسلطانه
لا ، فالمسألة مسألة فهم ، تارةً : أننا نساء
ولا نستطيع ، إذاً ، أن نقاتل رجالاً .
وتارة أخرى : اننا محكومون من الأقوى ،
فعلينا ، إذاً ، أن نذعن لهؤلاء وللأقسى من ذلك .
ولهذا سأتوسل الى مَنْ هم تحت الثرى
ليغفروا لي لان عسفاً وجوراً نزلا بي ،
وامتثلت للذين بيدهم مقاليد الحكم ،
إذ أنه ليس من الحكمة أن يفعل المرء أكثر مما في طوقه»

لقد قبلت اسمينا بالسلطة الرجولية معياراً نهائياً . وارتضت هزيمة النساء

«اللواتي لم يخلقن ليتصارعن مع الرجال» . إن وفاءهما للالاهات لا يظهر إلا في أنها تتوسل إليهن ليغفرن لها أنه يجب أن تذعن لسلطة الحاكم وجبروته .

ويتجلى المبدأ الانساني لعالم الأمومة بتوكيده عظمة الانسان ومكانته وكرامته على نحوٍ جميل ومقنع في نشيد الجوقة التي تثني به على قوة الانسان :

«إنها لأشياء هائلة كثيرة ، لكن لا شيء
غاية في الهول كالانسان
فهو الذي يجوب أيضاً البحار المظلمة
في عاصفة الجنوب الشتائي
ويقتحم الموج المتلاطم .
والأرض أقدس مقدسات الالهة ،
التي لا تنضب ولا تكل ولا تملّ
لا يروضها ،
ويحرث يقلب جوف الأرض سنة تلو سنة
يحرثها على الخيل وبالمحراث»

ويتكشف الصراع بين كلا المبدأين في تطور المسرحية المتواصل . وتصرّ انتيغوني على أن القانون الذي تنصاع له ليس قانون الهة الاولمب . «إذ ليسوا موجودين منذ اليوم ولا منذ أمس : وهؤلاء يحيون منذ القدم ، ولا أحد يعرف من أين جاؤوا .» وفي وسعنا أن نضيف أن قانون الدفن هو القانون الذي يقضي بإعادة الجثة الى الأم الأرض ويضرب جذورة في القوانين الاساسية لدين الأمومة . فانتيغوني تمثل تضامن البشر ومبدأ المحبة الأمومية الشاملة : «لا ! ليس الكراهية ، بل المحبة طبيعة المرأة .»

ويرى كريون أن الامتثال للسلطة يمثل أعظم القيم وأسماها . وما على التضامن والمحبة إلاّ أن يستسلما إذا ما ناصبا الطاعة العداء وعارضاها . ويجب أن ينتصر هو على انتيغوني لكي يبقي على سلطة الأبوة ويبقي بذلك على رجولته . وعلى هذا يقول :

«ما عدت الرجل ولكانت هي الرجل لو بقيت فعلة كهذه
من دون عقاب .»

ويعبّر كريون عن المبدأ الأبوي المستبد تعبيراً لا لبس فيه ولا ابهام :

«حسناً ، يا بني !
لذا يجب أن يكون في قرارة نفسك أنك في كل شيء
تقف وراء والدك مؤيداً رأيه .
ولذلك يصلي الرجل بأن تولد له ذرية مطيعة وتكون له خلفة في البيت
يقابلون العدو شرّا بشر
كما أنهم يحترمون الصديق أيضاً احترامهم للأب نفسه .
أما مَنْ ينجب أطفالا لا خير فيهم : فأي شيء يقول
الناس عنه إلاّ أنه خلق لنفسه العذاب
وبعث على السخرية الكثيرة عند الاعداء ،
وعلى هذا لا تفقد وعيك ، يا بنيَّ ، حباً باللذة ،
ومن أجل امرأة .
صدِّقني : إنَّ عناقاً بارداً هو هذا : أنْ
تكون امرأة رديئة ضجيعةً
لك في بيتك . فأي سوءِ حال دائم سيكون لك
أسوأ من صديق سيء !
لا ، فالفظها لفظك لعدو خبيث ،
ودع هذه الفتاة يأخذها الرجل في الجحيم .
اذ لما امسكت بها كانت الوحيدة في المدينة
التي أظهرت العصيان ،
ولذلك لن أجعل من نفسي كاذباً أمام المدينة : لا ، سأقتلها !
ولترفعْ ، إذا ، صراخها إلى زيوس ، حامي السلالة من ذوي
القربى ! فإنني وإن كنت أضيق الحصار في بيتي
على الفوضى ، فكيف لا يكون هذا بعدئذ خارج الأسرة !
فمن كان الرجل الصالح في بيته
أثبت أيضا أنه في الدولة عادل .
إنَّ رجلاً كهذا ، وأقول بارتياح ! لسوف

يحسن الحكم ، ولسوف يترك آخرين يحسنون السيطرة عليه
وإذا اتخذ مكانه أيضاً في عواصف الحرب
فسيقاوم على أنه الرجل الولي الأمين الشجاع .
على أنّ من يتجاوز الحدود الموضوعة له
ويخرق القوانين أو يفكر في أن يأمر أولي الأمر
فلن ينال مني أبداً مدحاً .
لا ، إنّ من ولاه الشعب أموره يجب أن يطاع
في كل صغيرة وكبيرة ، عدلاً كان أو ظلماً .
فليس من بلية أشدّ نكرا من الفساد والاخلال بالنظام
إنّ هذا ليدمر مدناً ويخلي البيوت .
وإنه ليدفع إلى الهرب في قعقعة الحراب
أما الذين يقفون بانضباط وطاعة ملبّين
فسيحافظ لهم معظم الناس على الناس .
وعلى هذا يجب على المرء أن يكون مسؤولا عن النظام ،
وألّا يخضع أبداً لامرأة . .
وإن كان لا بدّ من ذلك ، فالأحرى أن يرضخ المرء لرجل
بدلاً من أن يسمي المرء هذا خضوعاً للنساء !»

السلطة في الأسرة والسلطة في الدولة هما كلتاهما اسمى القيم وهما على علاقة متبادلة ويمثلها كريون . فالأبناء ملك الأب ، وينحصر دورهم في أن يكونوا «مطيعين خدومين» للأب . إن سلطة الأب في الأسرة أساس لسلطة الحاكم في الدولة . والمواطنون ملك للدولة ولحاكمها ؛ وعلى هذا لا يوجد «شرٌّ أعظم من انعدام قواعد ضبط السلوك والعمل» . ويمثل هيمون ، ابن كريون ، المبادىء التي تصارع انتيغوني من أجلها . ومع أنه يحاول في بادىء الأمر أن يهدي أباه ويقنعه فإنه يحتج بالعقل «على أنه أسمى من كل الممتلكات الموجودة» ، ويحتج بارادة الشعب . وحين يتهم كريون انتيغوني بمرض الاخلال بالنظام والعصيان يأتي ردّ هيمون الثائر «أنّ شعب ثيبة كله ينكر هذا» . ويرد كريون قائلاً :

«أينبغي على الشعب أن يملي عليَّ كيف يجب أن أحكم ؟

هيمون : ألا ترى كيف تقول هذا قولة حدث في السن .

كريون : ومن أجل من ينبغي أن أحكم هذا البلد إن لم يكن من أجل نفسي ؟

هيمون : الدولة التي يحكمها واحد فقط ليست بدولة .

كريون : أليست الدولة لمن يحكم فيها ؟

هيمون : لقد أحسنت الحكم لنفسك فقط في بلدٍ خالٍ !

كريون : هذا المخلوق ، كما يبدو ، ينحاز إلى المرأة .»

ويشير هيمون إلى الإلاهات النظام الأمومي حين يرد في النهاية قائلاً : «بل دفاعاً عنك وعن نفسي وعن الآلهة تحت أيضاً» . إنَّ الكلام على المبدأين كليهما واضح كل الوضوح . ولا تزود المسرحية المأساوية العمل إلاَّ بالقرار النهائي . فكريون دفن انتيغوني حيّةً في كهف ؛ وهذا ،من ناحية أخرى ، تعبير رمزي عن الارتباط بالإلاهات الارض . فالعراف تيرسياس الذي كانت مهمته في مسرحية «أوديب ملكاً» أن يعلم أوديب بجرمه يظهر من جديد ؛ ومهمته هذه المرة أن ينبه كريون إلى جريمته .

ويستجيب كريون مذعوراً ويحاول أن ينقذ انتيغوني . ويندفع إلى الكهف حيث دفنها ؛ على أن أنتيغوني كانت ماتت . ويحاول هيمون أن يقتل أباه وحين يخفق في ذلك ينتحر . وتنتحر اوريديس ، زوجة كريون ، حين تعلم بمصير ابنها . وتلعن زوجها على أنّه قاتل أولادها . ويدرك كريون أنَّ عالمه تحطم كلياً وأنَّ مبادئه كلها خانته . ويعترف بإفلاسه الاخلاقي وتنتهي المسرحية باعترافه

«الويل لي ! لي أنا ! لن يقع هذا على كاهل أحد غيري .
فهنا الذنب ذنبي أنا !
أنا ، أنا الذي قتلك أيتها التعيسة !
أجل ، أنا ، وأقول الحقيقة ! ـ أنا ! أيها الخدم !
خذوني بأسرع ما يمكن ، ابعدوني من هذا الطريق !
أنا الذي لم يعد شيئاً يذكر .
سيروا بي بعيداً ،أنا الرجل المغرور ،
الذي قتلك أنت يا بني عن غير قصد

وقتلك أيضاً أنت أيتها المسجاة هنا ! الويل لي ! أنا التعيس
ولست أدري كيف أنظر اليك ، أنى لي أن انظر إليك ؟
كل شيء أمسكه بيدي زائف وغير مناسب
على أنه من هناك وعلى رأسي
انقض قضاء لا سبيل الى التغلب عليه !»

نحن الآن قادرون على أن نجيب على كل الاسئلة المطروحة في البداية فهل المسألة في أسطورة أوديب على نحو ما عرضت في ثلاثية سوفوكليس هي مسألة جريمة غشيان المحارم ؛ وهل قتل الأب التعبير الرمزي عن بغض ناشيء عن غيرة ؟ ولئن كان الجواب في نهاية مسرحية «أوديب ملكاً» لا يزال موضع شك فإنه لم يعد هكذا تقريباً في نهاية مسرحية «انتيغوني» .

إنَّ من ينهزم في النهاية ليس أوديب ، بل كريون ؛ ويهزم معه مبدأ الاستبداد وسيطرة الانسان على الانسان وسيادة الأب على الابن وتحكم الحاكم المطلق بشعبه . وحين نوافق على نظرية الاشكال الامومية للمجتمع والدين فلا مجال عندئذ للشك في أن أوديب وهيمون وانتيغوني يمثلون مبدأ سلطة الأم القديم ، مبدأ المساواة والديمقراطية ، على حين يمثّل كريون سلطة الابوة والطاعة .

إنَّ مفكراً مثل هيجل قد حلّل قبل باخ أوفين بسنوات كثيرة الصراع المصوّر في مسرحية «انتيغوني» بالطريقة نفسها. فهو يقول عن انتيغوني : «أمّا الآلهة الذين تجلّهم فهم آلهة العالم السفلي» الآلهة البواطن ، آلهة الشعور بالحب والقرابة ، لا آلهة النهار ، آلهة حياة الدولة والشعب الحرة المتكبرة»[٤٤] . وبهذا الرأي يقف هيجل الى جانب الدولة وقوانينها موقفاً شديداً بحيث إنه يصف رأي كريون بأنه رأي «حياة الدولة والشعب الحرة المتكبرة ، مع أنَّ الحقيقة التي لا يمكن نكرانها هي أنَّ كريون لا يمثل الحرية ، بل الاستبداد . ونظراً لهذا التعاطف المتميز الذي يبديه هيجل فإنَّ الأهم من ذلك أنه يبين على نحو واضح جداً أن أنتيغوني تمثل مبادىء الحب والقرابة والاحساس التي وصفها باخ أوفين فيما بعد بأنها المبادىء المميزة لعالم

---

٤٤) أنظر : هيجل ، جورج فيلهلم فريدريش ، علم الجمال ، مجلد ١٣ ، ص ٥٢ ، وكذلك أيضاً الفلسفة والدين ، مجلد ١٦ ، ص١٣٣ .

الأمومة . ولكن على حين لم يعد ميل هيجل الى المبادىء الأبوية مدعاة للعجب فإنَّ المرء لا يتوقع أن يجده في مؤلفات باخ أوفين أيضاً . ومع هذا فإنَّ موقف باخ أوفين من المجتمع الأمومي موقف متناقض . والظاهر أنه قدّر نظام سلطة الأمومة وكره مبادىء سلطة الأبوة : لكنه لما كان بروتستانتياً ورعاً وآمن بتقدم العقل فإنه كان مقتنعاً أيضاً بتفوق نظام سلطة الأبوة على نظام سلطة الأمومة . وفي القسم الكبير من مؤلفاته يعبّر عن ميله الى مبدأ الأمومة . وفي مواضع أخرى(٤٥) يقف إلى جانب آلهة الاولمب كما يقف هيجل تماماً . ففي نظره يقف أوديب على الحد الفاصل بين عالم الأمومة وعالم الأبوّة . ولما أنه لا يعرف أباه فإنَّ هذه الحقيقة تشير إلى نظام أمومي لا يكون الأب فيه معروفاً كل المعرفة ، بل الأم ، ليس غير . أما حقيقة الأمر أنه يكتشف أباه أخيراً فترمز في رأي باخ أوفين الى بداية نظام الأبوة الذي يكون فيه الأب الحقيقي معروفاً . ويقول :«لا يرتبط التقدم إلى مرحلة أعلى من مراحل الوجود إلا بأوديب . فهو احدى تلك الشخصيات العظيمة التي تؤدي آلامها وعذاباتها الى أدب انساني أجمل وإلى خلق انساني أنبل وتقف ، وهي لا تزال ترتكز على وضع الأشياء القديم وتنبثق منه ، آخر ضحية كبيرة لهذا الوضع نفسه ، على أنها بذلك تبرز في الوقت نفسه مشيدة عصراً جديداً .» ويؤكد باخ أوفين بخاصة الحقيقة أن ربات الانتقام اللواتي هن إلاهات الامومة المهابات خضعن لعالم أبولو وأن العلاقة بينهن وبين أوديب تعني انتصار مبدأ الأبوة . ويبدو لي تحليل باخ أوفين انه لا ينصف الحقيقة أن كريون هو المهزوم أخلاقياً مع أنه الوحيد الذي بقي حيّاً ويرمز إلى عالم الأبوة . ولنا أن نذهب الى أن سوفوكليس أراد أن يقول بذلك إن عالم الأبوة انتصر ؛ على أنه سيهزم إذا لم يتبنَّ المبادىء الانسانية لنظام الأمومة القديم .

على أنَّ تحليلنا يتطلب تتمة أخرى عن طريق تأمل آخر . ولئن كانت ذكرى الصراع بين مبدأ الابوة ومبدأ الأمومة ولاسيما ذكرى عناصره الأسطورية لا تزال تحيا في الصراع بين أوديب وانتيغوني وهيمون من جهة وكريون من جهة أخرى فإنه ينبغي مع هذا فهم الصراع من الموقف الحضاري والسياسي الخاص في عهد

---

٤٥) انظر : باخ اوفين ، يوهان ياكوب ، نظام الأمومة ، ١٩٢٦ ص ٢٥٩ وما بعد ؛ إذ أن ما يعرضه هنا لينطبق أيضاً على تحليله الموجز لأسطورة أوديب .

سوفوكليس ومن ردود فعله على ذلك . إن الحرب البيليبونية وتهديد استقلال أثينا السياسي والطاعون الذي فتك بالمدينة في بداية الحرب ، هذا كله ساهم في أن يهزّ الاعراف والتقاليد الفلسفية والدينية كلّها . ولم تكن الحملات على الدين بشيء جديد ؛ على أنها بلغت ذروتها في تعاليم السوفسطائية التي كانت خصماً لسوفوكليس . لقد ناهض بخاصة أولئك السفسطائيين الذين لم ينادوا بالسلطة المطلقة لنخبة من رجال الفكر فحسب ، بل نادوا أيضاً بأنانية مستهترة على أنها مبدأ أخلاقي . فالاخلاق التي نادى بها معشر السفسطائيين الخاصة ببشر أنانيين متفوقين وانتهازيتهم اللا أخلاقية كانت النقيض التام لفلسفة سوفوكليس . ولقد خلق سوفوكليس في كريون شخصيّة مثلت هذه المدرسة السفسطائية ؛ بل إنَّ أقوال كريون شابهت بأسلوبها وتعابيرها أسلوب السفسطائيين وتعابيرهم .[٤٦] .

وعبر سوفوكليس في محاججاته السفسطائية عن التقليد الديني القديم للشعب تعبيراً جديداً وأكدّ الحب والمساواة والعدالة . «وعن هذه الأشياء كلها ينجم أن تدين سوفوكليس لا يحمل أية صبغة فلسفية مجردة ، بل إنَّ مثله مثل تدّين بندار الكامن في أعماق التقوى والعبادة بحيث إنه يعمل في شغفٍ بمنأى عن الطريق الحربي الكبير لدين الدولة ويأتمن على سرّه تلك القوى المعينة ذات الترتيب الثاني التي كانت دائماً أقرب الى الايمان الشعبي من الهة الاولمب ذوي المقام الرفيع ؛ واعتمد المرء على تلك القوى ، ولا سيما في ضائقة الحرب البيليونية إبان الجوع والأوبئة .[٤٧] .

ومن السهل التعرّف على إلاهات عالم الأمومة في هذه القوى ذات الترتيب الثاني التي ميّزها المرء من آلهة الاولمب ذوي المنزلة السامية . ونرى ، إذاً ، أن آراء سوفوكليس ، كما تبرز في ثلاثية أوديب ، تقوم على معارضته للمذهب السفسطائي المعاصر له وعلى ميله الى الأفكار الدينية غير الأولمبية القديمة . (وإنه لمن الممتع والمهم

---

٤٦) انظر : كاليكليس في كتاب افلاطون «جورجياس» وتراسيماخوس في كتاب «الدولة» ، شتوتغارت ١٩٣٩ .

٤٧) انظر : شميت ، فيلهلم ، تاريخ الأدب اليوناني ، الجزء الأول ، الكتاب الثاني ، ميونيخ ١٩٣٤ ، ص ٣٢٠ .

أن نؤكد ونثبت أنه ظهر في القرن التاسع عشر مرة ثانية نفس المزيج من افكار سياسية تقدمية وميل للمبادىء الأمومية الاسطورية في مؤلفات باخ أوفين وانجلز ومورجان .[٤٨] .

ولهذين السببين كليهما يدافع سوفوكليس عن المبدأ أنه لا يجوز أن تخضع كرامة الانسان وقدسية الروابط الانسانية لمطالب استبدادية لا انسانية خاصة بالدولة او لتأملات انتهازية .[٤٩] وإن مشكلة العداء بين الأب والابن كانت أيضاً ذات أهمية في حياة الشاعر الشخصية . فالابن يوفون قاضى اباه الهرم وطالب المحكمة بأن تجرده من حقه في أن يزاول شؤونه التجارية بنفسه ـ وتلك قضية ربحها سوفوكليس .)

ب ـ أسطورة التكوين

تروي أسطورة التكوين البابلية (اينوما إليش) عن تمرّد مظفر للآلهة على تيامات ، الأم الكبيرة ، التي كانت تحكم الكون ويتحدون ضدها وينتخبون مردوخ قائداً لهم في هذا الصراع . وبعد حرب مريرة تُقتل تيامات ، ومن جسدها تتكون السماء والأرض . ويحكم مردوخ على أنه الإله الاعلى .

على انه قبل أن يتم اختياره حاكماً أعلى يجب أن يجتاز امتحاناً يبدو في سياق القصة كلها تافهاً وغامضاً ملغزاً ؛ على أنه ، وكما سأحاول تبيان ذلك ، المفتاح لفهم الأسطورة . ويوصف الامتحان على النحو التالي :

ثمَّ وضعوا ثوباً في وسطهم ،
وقالوا لمردوخ ، مولودهم الأول :
حقاً أيها السيد ، مصيرك هو أعظم المصائر بين الآلهة ،
هيّا أمرْ بالتدمير والخلق ، وسيكون لك ذلك !

---

٤٨) يتناول فروم هذا الموضوع ويحلله في : فروم ، اريش ، أهمية نظرية نظام الأمومة من ناحية علم النفس الاجتماعي ، في : مجلة البحوث الاجتماعية ، باريس ٣(١٩٣٤) ، ص ١٩٦ ـ ٢٢٧ .

٤٩) انظر أيضاً : نيستله ، فيلهلم ، سوفوكليس والسفسطائية ، في : علم اللغة الكلاسيكي شيكاغو ٥ (١٩١٠) ، ص ١٢٩ ومابعد .

وليفنِ الثوب بكلمة من فمك ،
وأمر مرة أخرى فيكون الثوب من جديد !»
وأصدر الأمرَ ونطـق به ،
وفني الثوب ،
وأمر مرة أخرى
وصار الثوب مرة أخرى
ولما رأى أباؤه الالهة ، سلطان كلمته
سرّوا عندئذ ومجدوه وقالوا :
«مردوخ ملك !»

(اينوما إليش اللوح الرابع)

ما معنى هذا الامتحان ؟ أليس للنص وقع أقرب إلى السحر الذي لا يقدم ولا يؤخر منه إلى امتحان حاسم من شأنه أن يحدد ما إذا كان مردوخ قادراً على أن يهزم تيامات ؟

ولكي نفهم مدلول الامتحان علينا أن نستعيد الى الذاكرة ما قيل في أثناء معالجة أسطورة أوديب عن مسألة سلطة الأمومة . ومما لا شك فيه أن المسألة في الأسطورة البابلية هي مسألة الصراع بين مبدأ سلطة الأبوة ومبدأ سلطة الأمومة للنظام الاجتماعي والدين . فالابناء الذكور يريدون أن ينتزعوا السيادة من الأم الكبيرة . ولكن أنّى لهم أن يهزموها إذا كانوا مغلوبين في ناحية جوهرية ؟ فللنساء قوة الخلق الطبيعية . وهنَّ يستطعن انجاب الأطفال . أما الرجال فهم من حيث هذا عقماء . (ومما لا جدال فيه أنه لا غنى عن نطفة الذكر لإنشاء الطفل ، كما أنه لا غنى عن بيضة الأنثى ؛ على أن هذه المعرفة هي اثبات علمي أكثر مما هي حقيقة بارزة للعيان كيف يكون الحبل او ولادة طفل . وفضلاً عن ذلك فإنَّ دور الأب في تكوين الطفل ينتهي بعملية الاخصاب ، على حين لا يبـدأ دور الأم إلاَّ بحمل الطفل وبولادته وتربيته .) وخلافاً لما ذهب إليه فرويد أن «الحسد من القضيب» ظاهرة طبيعية في بنية النفس الأنثوية فإنَّ هنالك أسباباً وجيهة للافتراض أنه كان لدى الرجل قبل تأسيس حكمه واثبات سيادته «حسدٌ من الولادة» يستطيع المرء أن يجده حتى الآن في كثير من الحالات . فلكي يهزم الرجل أمه يجب أن يبرهن أنه

ليس خاضعاً لها فيستطيع أن ينتج شيئاً ما . ولما أنه لا يستطيع أن ينجب شيئاً بجسده فعليه أن يقوم بذلك على نحو آخر : فهو ينتج شيئاً بفمه ، بكلمته وتفكيره . هذا هو ، إذاً ، مفهوم الامتحان : فمردوخ لا يستطيع أن يقهر تيامات إلاّ إذا أثبتت أنه هو أيضاً قادر على أن يخلق شيئاً ، ولو كان على نحو آخر . ويدلنا الامتحان على التعارض العميق بين الرجل والمرأة الذي يقوم عليه الصراع بين تيامات ومردوخ ، وكذلك الصراع بين الجنسين كليهما بعامة . وبانتصاره ينشيء مردوخ سيادة الرجل ويقلل بذلك من قيمة قوة الانتاج الطبيعية عند النساء ؛ ويتولى الرجل سلطته التي تقوم على قدرته على أن ينتج شيئاً بقوة تفكيره . إنها تلك الصيغة من صيغ الانتاج التي يقوم عليها تطور الحضارة الانسانية .

وتبدأ أسطورة العهد القديم حيث تنتهي الأسطورة البابلية . ويتم انشاء السلطة العليا لإله ذكر ولا يبقى أثر تقريباً للمرحلة الأمومية السابقة . «فاختيار» مردوخ صار أهم موضوعات رواية التكوين في الكتاب المقدس . فالله خلق الكون بكلمته : ولم تعد المرأة وقواها الخلاقة ضرورية لذلك . حتى المجرى الطبيعي للأشياء أنَّ النساء يلدن الرجال انقلب رأساً على عقب . إنَّ حواء تخلق من ضلع آدم (كما خرجت اثينا من رأس زيوس) . على أنَّ ذكرى سيادة الأم لم تنمح كل الانمحاء . ففي شخص حواء نرى المرأة المتفوقة على الرجل . فهي تمسك بزمام المبادرة وتأكل من الثمرة المحرمة . ولا تستشير آدم قبل ذلك ، بل تعطيه الثمرة ببساطة ليأكلها . وحين ينكشف أمرهما لا يستطيع أن يقدم إلاّ أعذاراً غير مناسبة شبه خرقاء . ولا يكون لمكانته المرموقة رسوخها وأسبابها إلا بعد الخطيئة . ويقول الرب لحواء : «ومع هذا تتلهفين الى الرجل ؛ لكنه سيسود عليك» (سفر التكوين الاصحاح الثالث ، ١٦) . ويشير تأسيس السلطة العليا للرجل إلى موقف سابق يكن حَكَم فيه بعد . وهنا ، وفي النفي المطلق لدور المرأة الخلاق فقط ، نتبين آثار دور الأم السائد الكامن تحت ذلك والذي هو أحد مقومات النص الصريح للأسطورة البابلية .

إنَّ هذه الاسطورة مثال مناسب على آلية التحريف والرقابة التي لها دور كبير جداً في تفسير فرويد للأحلام والأساطير . ثم إنَّ اسطورة العهد القديم لا تزال تشتمل على التذكير بمباديء دينية واجتماعية قديمة . ولكن لما تكونت الصيغة

المعروفة لدينا كانت هذه المبادىء القديمة لا تزال تعارض الآراء السائدة بحيث لم يعد يستطيع المرء أن يعبّر عنها بصراحة . أمّا اليوم فلا نتبين آثار النظام السابق إلاّ في تفاصيل صغيرة (وأغلب الظن أن تيامات البابلية تظهر في رواية الكتاب المقدس بصورة تيحوم أو «غمر» الذي «كان عليه ظلمة» ـ التكوين ١ ، ٢) ، وذلك في ردود أفعال مبالغ فيها وأقوال متناقضة وفي علائق بين الأسطورة المتأخرة وصيغ متغيرة قديمة للموضوع نفسه .

جـ ـ ذات القبعة الحمراء (ليلى والذئب)

إنَّ حكاية «ذات القبعة الحمراء» مثال مناسب على آراء فرويد وتقدّم في الوقت نفسه شكلاً مختلفاً لموضوع الصراع الأبوي الأمومي الذي وجدناه في ثلاثية أوديب وفي اسطورة التكوين . وتنص الحكاية على ما يلي : «كان في قديم الزمان فتاة صغيرة حلوة أحبت كل انسان نظر إليها مجرّد نظر ؛ على أنَّ أكثر من أحبتهم كانت جدتها التي لم تعرف أي شيء كان عليها أن تهبه للطفلة . وذات مرة أهدتها قبعة من المخمل الأحمر ؛ ولما أن هذه القبعة ناسبتها تماماً وصارت تلبسها دائماً سميت «بذات القبعة الحمراء» . وذات يوم قالت لها أمها : تعالي يا ذات القبعة الحمراء ، هذه قطعة من الكعك وزجاجة نبيذ ، خذيها إلى جدتك ، فهي مريضة وواهنة القوى ، وستنتعش بهما . انطلقي قبل أن يشتد الحرّ . واذا خرجت فامشي بأدب ولا تحيدي عن الطريق وإلاّ سقطت وكسرت الزجاجة ، ولن تحصل الجدة على شيء . واذا دخلت غرفتها فلا تنسي أن تحيي تحية الصباح ولا تجوسي بعينيك في أرجاء الغرفة .»

قالت ذات القبعة الحمراء لأمها : «سأقوم بكل شيء على أحسن وجه .» وصافحتها مؤكدة وعدها . أما الجدة فكانت تسكن في الغابة على مسافة نصف ساعة من القرية . وحين وصلت ذات القبعة الحمراء إلى الغابة التقاها الذئب . لكن ذات القبعة الحمراء لم تعرف أي صنف من أصناف الحيوانات الشريرة كان هذا الحيوان ولم تخف منه . قال الذئب : «صباح الخير يا ذات القبعة الحمراء» . «شكراً جزيلاً ، يا ذئب» . «إلى أين في مثل هذه الساعة المبكرة ، يا ذات القبعة الحمراء ؟» ـ «إلى الجدة» ـ «وماذا تحملين تحت المئزر ؟» ـ «كعكة ونبيذاً ، أمس

عملنا كعكة ؛ ولابأس أن ترفه جدتي المريضة عن نفسها قليلاً وتقوّي نفسها بذلك» . «وأين تسكن جدتك ، يا ذات القبعة الحمراء ؟» .

قالت ذات القبعة الحمراء : «على بعد ربع ساعة من هنا ، في الغابة ، تحت شجرات البلوط الثلاث ، هناك بيتها ، وتحت يوجد سياج الجوز ، ولا شك أنك تعرف هذا» .

قال الذئب في ذات نفسه : «هذه الطفلة الصغيرة الناعمة ، إنها لقمة سائغة وستكون أكثر مستساغاً من العجوز ؛ وما عليك إلا أن تبدأ في دهاء ومكر لكي تفترسهما كلتيهما .» ومشى قليلاً الى جانب ذات القبعة الحمراء ثم قال : «يا ذات القبعة الحمراء ، انظري الى هذه الزهور الجميلة من حولك ، ولماذا لا تجيلين النظر فيها حولك ؟ أظن أنك لا تسمعين أبداً كيف تغني الطيور غناء لطيفاً ؟ تسيرين وحدك وكأنك سائرة إلى المدرسة ؛ وكل شيء في الغابة سارٌ ومفرح .» .

وفتحت ذات القبعة الحمراء عينيها . ولما رأت أشعة الشمس وهي تتراقص بين الأشجار وكل شيء يحفل بالزهور الجميلة خطر ببالها : «ماذا لو أحضرت لجدتي باقة زهور نضرة ، فستفرح بها . والوقت مبكر جداً والنهار لا يزال في أوله وسأصل في الوقت المناسب .»

وتركت الطريق وجرت إلى الغابة بحثاً عن الزهور . وكلّما قطفت زهرة ظنت أن هنالك زهوراً أجمل وجرت وراءها وتوغلت في الغابة . أما الذئب فقد سار على فوره إلى بيت الجدة ودق الباب .

«من في الخارج ؟» - «ذات القبعة الحمراء التي أحضرت لك الكعكة والنبيذ ، افتحي» . صاحت الجدة : «ما عليك إلا أن تضغطي على الاكرة فقط . فقواي واهية ولا أستطيع النهوض .» وضغط الذئب على الاكرة وانفتح الباب ، ومن دون أن ينطق بكلمة مشى مباشرة الى سرير الجدة وابتلعها . ثم لبس ثيابها ووضع قلنسوتها على رأسه وتمدد في سريرها وأنزل الستائر . أما ذات القبعة الحمراء فقد راحت تبحث عن الزهور . ولما جمعت الكثير منها بحيث لم تستطع أن تحمل المزيد خطرت الجدة ببالها مرة أخرى . ومضت اليها . واستغربت جدا وفكرت : «يا إلهي ، كم ساورني الخوف في هذا اليوم ، وكم يطيب لي أن أكون عند الجدة !» وصاحت : «صباح الخير» لكنها لم تتلق جواباً . وهنا توجهت الى السرير وأرجعت

الستائر : واذا الجدة استلقت وأغرقت وجهها بالقلنسوة وبدت غريبة . «يا سلام يا جدتي ، كم عيناك كبيرتان !» - «لكي أراك بهما على نحو أفضل» - «يا سلام يا جدتي ، كم يداك كبيرتان !» - «لكي أستطيع أن أمسك بك على نحو أفضل» . «ولكن يا جدتي ، كم فمك كبير !» - «لكي أستطيع ان التهمك على نحو أفضل» . وما تفوّه الذئب بهذا حتى قفز من السرير والتهم المسكينة ذات القبعة الحمراء .

ولما كان الذئب أشبع رغباته عاود الاستلقاء في الفراش ونام ، وأخذ يشخر شخيراً عالياً . وفي تلك اللحظة مر الصياد بالبيت . وقال في نفسه : يا لشخير المرأة العجوز ، عليك أن ترى ما إذا كان بها سوء .» وعندئذ دخل الغرفة . ولما تقدم من السرير رأى أنَّ الذئب كان فيه . قال : «أهنا أجدك ، أيها الآثم ، لقد بحثت عنك طويلاً» .

وهنا أراد أن يصوب بندقيته ، فخطر بباله أنَّ الذئب قد يكون افترس الجدة وقد يسعه انقاذها . فلم يطلق النار ، بل تناول مقصاً وراح يشق بطن الذئب النائم . وما إن فتح البطن قليلاً حتى رأى ذات القبعة الحمراء تتألق ، ثم تابع الشق ، عندها قفزت الفتاة وصاحت : يا للخوف الذي خفته ، كم كان المكان مظلماً في بطن الذئب ! كما أنَّ العجوز خرجت حية وأوشكت أن تختنق . على أنَّ ذات القبعة الحمراء أسرعت وأحضرت حجارة كبيرة لتملأ بها بطن الذئب . ولما استيقظ الذئب أراد أن يقفز عالياً ؛ على أن الحجارة كانت ثقيلة جداً بحيث انه تهالك الى الأرض وسقط ميتاً .

وهنا ابتهج الثلاثة . وسلخ الصياد جلد الذئب وعاد به الى البيت ، وأكلت الجدة الكعكة وشربت النبيذ الذي كانت ذات القبعة الحمراء أحضرته وتماثلت للشفاء . أما ذات القبعة الحمراء فقد قالت في ذات نفسها : «لن تغادري الطريق وحدك طوال حياتك وتخرجي إلى الغابة إذا ما منعتك أمك عن ذلك .»(*) .

(*) أخذ النص الأصلي من حكايات الاخوين غريم «يعقوب غريم (١٧٨٥ - ١٨٦٣) وفيلهلم غريم (١٧٨٦ - ١٨٥٩) اللذين أسسا علم اللغة الالمانية وآدابها وعُنيا بجمع الحكايا والاساطير ؛ أصدرا معاً «حكايات البيوت والأطفال» و«الاساطير الالمانية» «والمعجم الالماني» الـذي يتتبع الكلمة في أصلها وحالات استعمالها وتحولات معانيها فضلاً عن المؤلفات الاخرى العديدة . (المترجم)

إنَّ «القبعة الحمراء» رمز للحيض . وإن الفتاة الصغيرة التي نسمع عن مغامرتها أصبحت امرأة ناضجة وترى نفسها الآن وهي تواجه حياتها الجنسية . فالتحذير «ألاّ تتحول عن الطريق أو تحيد عنه» «وألاّ تكسر الزجاجة» انذار واضح بمخاطر الجنس وفقدان البكارة .

ويثير منظر الفتاة شهوة الذئب الجنسية ويحاول أن يغريها بأن يقول لها : «انظري الى هذه الزهور الجميلة التي تحيط بك ، لماذا لا تنظرين فيها حولك ؟ أظن أنك لا تسمعين أبداً كيف تغني الطيور الغناء اللطيف ؟» «وتفتح عينيها» ذات القبعة الحمراء ، فهي تمتثل لنصيحة الذئب «وتتوغل في أعماق الغابة» . وهنا تصطنع وسيلة عملية نفعية مميزة : فلكي تقتنع هي بأنها لا تجافي الصواب تقول لنفسها إنَّ الجدة ستفرح بالزهور التي قد تجلبها لها .

على أن هذا الخروج عن درب الفضيلة المستقيم يُعاقب عليه العقاب الشديد . فالذئب يتزيا بزي الجدة ويلتهم ذات القبعة الحمراء البريئة . وحين يشبع نهمه ينام .

وإلى ذلك الحد يبدو أن الحكاية لا تتناول إلاّ الموضوع الواحد الذي يعبر عن مسألة أخلاقية وهو خطر الحياة الجنسية . على أنه موضوع بالغ التعقيد . فأي دور للرجل في ذلك ؟ وكيف يتم تصوير الحياة الجنسية ؟

فالرجل يظهر في صورة حيوان ماكر غير مكترث ؛ ويتم تصوير الفعل الجنسي بأنه عمل حيواني وحشي يلتهم الرجل فيه المرأة . فالنساء اللواتي يحببن الرجال وينبسطن بالنشاط الجنسي لا يشاطرن هذا الرأي . فهو تعبير عن عداء دفين للرجال والنشاط الجنسي . على أن الحقد على الرجال والتحيز ضدهم يبرزان في نهاية الحكايات على نحو واضح . فهنا أيضاً ، كما في الأسطورة البابلية ، يجب أن نتذكر أنَّ تفوق المرأة ينحصر في أنها تستطيع ان تنجب أطفالا . وكيف يتعرض الذئب للهزء والسخرية ؟ بأن يوصف وهو يحاول أن يقوم بدور امرأة حامل في بطنها أحياء . وتضع ذات القبعة الحمراء في بطنه حجارة هي رمز للعقم . ويخرّ الذئب وينفق . وتبعاً لقانون القصاص القديم يطبق على فعلته ما يطبق على الجريمة : فالحجارة التي هي رمز العقم تميته . وبهذا يتعرض تطاوله لأن يقوم بدور المرأة الحامل للهزء والسخرية .

وهذه الحكاية التي شخصياتها نساء ينتمين إلى أجيال ثلاثة (والصياد هو في النهاية شخصية الأب التقليدية التي ليس لها وزن حقيقي) تتناول الصراع بين الرجل والمرأة . إنها قصة انتصار نساء يكرهن رجالاً وتنتهي بانتصارهن . إنها النقيض التام لأسطورة أوديب التي يبرز فيها الرجل ظافراً .

د . الطقس السبتي :

إنَّ الرموز التي وقفنا عليها حتى الآن هي تصورات مجازية مجردة من الألفاظ وترمز إلى هاجس أو احساس أو فكرة . على أنَّ هنالك نوعاً آخر من الرموز التي لا يقلّ مدلولها في تاريخ الانسانية عن مدلول تلك الرموز التي ترد في الأحلام والأساطير أو الحكايات . وأعني الطقس الرمزي الذي يمثل فيه عمل ما ، لا كلمة أو صورة ، تجربة روحية أو حادثة نفسية . ونصطنع في الحياة اليومية كل الطقوس الرمزية من هذا القبيل . فحين نرفع القبعة علامة احترامنا أو نحني رأسنا علامة اجلالنا أو حين نهز يد انسان لنعبّر عن مشاعرنا الودية ، عندها لا نصطنع رمزاً لغوياً ، بل نقوم بعمل رمزي . فالرموز الشبيهة بالتي ذكرناها لتوّنا سهلة الفهم مثلها مثل بعض الاحلام الواضحة لكل انسان دونما مقدمات . وهنالك أيضاً رموز دينية يمكن فهمها من دون صعوبة كما هي العادة العبرية القديمة مثلاً ، عادة تمزيق الثوب علامة على الحزن . هذا وإنَّ هناك طقوساً أخرى كثيرة مثل الطقس السبتي مثلاً ، وهي معقدة تعقيد اللغة الرمزية لكثير من الأحلام والأساطير وتحتاج كذلك الى تفسير .

فأحكام الصيام أيام السبت تحتل مكاناً بارزاً في العهد القديم . والحق أنَّ الموضوع يتعلق هنا بطقس وحيد مذكور في الوصايا العشر . «اذكر يوم السبت وقدّسه ! ستة أيام تعمل وتنجز كل عمل ! يوم السبت يوم راحة مكرّس للرب ، الهك ، لا تقم فيه بأي عمل ، أنت وابنك وابنتك ، عبدك وأمتك ، وبهائمك والغريب الذي له حق السكن في أنحاء مدينتك . لأنَّ في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل شيء يعود اليها . وفي اليوم السابع استراح . لذلك بارك الرب يوم السبت وأعلنه بأنه مقدس (خروج ، الاصحاح العشرون ، ٨ ـ ١١) . وفي الصياغة الأخرى للوصايا العشر (تثنية ، الاصحاح الخامس ، ١٢ ـ

١٥) يتكرز الأمر بصيام أيام السبت ، مع أنه لا يشار هنا إلى استراحة الرب في اليوم السابع ، بل إلى الخروج من مصر : «اذكر لما كنت عبداً في مصر اخرجك الرب ، إلهك ، من هناك بيد قوية وذراع ممدودة . ولهذا فرض الرب الهك عليك أن تصوم السبت» (تثنية ، الاصحاح الخامس ، ١٥) .

ويظهر تنظيم السبت مقنعاً للانسان المعاصر كل الاقناع . ولئن كتب علينا أن نستريح عن العمل يوماً واحداً من أيام الاسبوع فإنَّ هذا يبدو لنا اجراء طبيعياً اجتماعياً وصحياً يهدف الى أن يهيء لنا انشراحاً وراحة جسدية وذهنية نحتاجها لكي لا يلتهمنا العمل اليومي . وما من شك أن هذا الايضاح صحيح بقدر ما له من نفوذ بالغ ؛ على أنه لا يجيبنا على بعض الأسئلة التي تبرز اذا ما انعمنا النظر بعض الشيء في وصية يوم السبت في العهد القديم ، ولا سيما الطقس السبتي كما تكون في التقليد اللاحق بالعهد القديم .

وما السبب أنَّ هذا القانون الاجتماعي الصحي غاية في الأهمية بحيث انه ألحق بالوصايا العشر التي لا تحدد إلاّ مباديء أساسية في الدين والاخلاق ؟ وما وجه العلاقة بينه وبين «استراحة» الرب في اليوم السابع وما معنى أن الرب «استراح» ؟ هل صورة الرب مجسمة وشبيهة بالانسان بحيث ينبغي عليه أن يستريح بعد ستة أيام من العمل الشاق ؟ ولماذا يتم ربط يوم السبت في الرواية الثانية للوصايا العشر بالحرية وليس باستراحة الرب ؟ وما التسمية المشتركة لكلا الايضاحين ؟ وفضلاً عن ذلك ـ وربما كان هذا أهم الأسئلة ، أنّى لنا أن نفسر الطقس السبتي المعقد إذا اعتمدنا على التحليل الاجتماعي الصحي للاستراحة ؟ ففي العهد القديم يعدّ الرجل الذي «يحتطب حطباً يوم السبت» مدنساً ليو السبت ، وعقوبته الموت . وفي التطور الأخير ليس العمل بمفهومنا الحالي ممن فحسب ، بل اشغال من مثل : اشعال النار ، ولو كان الغرض منها الارتي والانشراح ولو لم تتطلب جهداً جسدياً . وممنوع أيضاً نزع عود حشيش واحد مر الأرض أو حمل أي شيء ولو كان خفيف الحمل مثل منديل . فالمسألة في هذا كله ليست مسألة عمل بمفهوم الجهد البدني ؛ وكثيراً ما يكون تجنبه أكثر ازعاجاً ومضايقة من القيام به . فهل عندنا هنا علاقة بمبالغات قسرية شاذة لطقس كان في الأصل (معقولاً وسليماً) ، أم لعلنا نفهم هذا الطقس فهماً خاطئاً وكان علينا أن نعيد النظر

في مفهومنا ؟ إنَّ تحليلاً مفصلاً للمدلول الرمزي للطقس السبتي سيبين أنه لا علاقة لنا هنا بالمحافظة المفرطة قسراً على وصية ، بل لنا علاقة بمفهوم العمل والراحة الذي يتمايز من مفهومنا الحديث .

وبادىء ذي بدء لا يعدّ العهد القديم والتلمود العمل فينا بعد جهداً بدنياً ، بل يفيد التعريف أن «العمل» هو تدخل الانسان في العالم الفيزيائي ، سواء أكان تدخلاً بناءً أم هداماً . «والراحة» هي حالة السلم بين الانسان والطبيعة . وواجب الانسان أن يترك الطبيعة بكراً لا تمسّ ، ولا يسمح له بأن يغيرها على حين ينشىء فيها شيئاً جديداً أو يهدم أيضاً . حتى أبسط التغييرات التي يقوم بها على الحادثة الطبيعية تمثل إخلالاً بالراحة وانتهاكاً لها . والسبت يوم الانسجام التام بين الانسان والطبيعة . و«العمل» هو اختلال التوازن في شتى أنواعه بين الانسان والطبيعة . وبناء على هذا التعريف العام نستطيع أن نفهم الطقس السبتي .

إنَّ كل عمل شاق ، مثل الحرث أو البناء ، هو عمل بهذا المفهوم وبمفهومنا الحديث أيضاً . أما إشعال عود ثقاب أو قلع عشبة واحدة من الارض فلا يتطلب أي جهد ؛ على أن كليهما رمز لنشاط الانسان وتدخله في مجرى الطبيعة . ويمثلان تصدّع السلام بين الانسان والطبيعة . ويوضح لنا هذا المبدأ لماذا يمنع التلمود من حمل أي شيء مهما كان سهلاً خفيفاً . والحمل في ذاته ليس ممنوعاً . فمن حقي ، مثلاً ، أن أحمل داخل بيتي أو أرضي حملاً ثقيلاً من دون أن أخلّ بوصية السبت . على أنه لا يجوز لي أن أجلب منديلاً أو أي شيء آخر من مكان الى مكان آخر ، كأنْ يكون من أحد المنازل إلى مكان عام في الشارع . وتمثل هذه الوصية توسيعاً لفكرة السلام من الحقل الاجتماعي الى حقل الطبيعة . فلا يجوز للانسان أن يخلّ بتوازن الطبيعة ، أو أن يغيره ، كما لا يجوز له أن يزاول أية أعمال فحسب ، بل إنَّ عليه أن يتحاشى أبسط صيغ نقل الملكية ، أي نقلها من مكان إلى مكان آخر .

ويرمز يوم السبت إلى حالة الوحدة بين الانسان والطبيعة ، بين الانسان والانسان . وعلى حين لا يعمل المرء ، أي لا يشارك في عملية التغييرات في الطبيعة والمجتمع يتحرر من قيود الزمان ، ولو كان هذا في يوم واحد من الاسبوع ، ليس غير .

وليس من سبيل الى فهم المدلول الكامل لهذه الفكرة إلاَّ في سياق مفهوم

العهد القديم عن علاقة الانسان والطبيعة . وقبل «خطيئة» آدم ، أي قبل أن يجوز الانسان على العقل ، عاش في انسجام تام مع الطبيعة . فالعمل الأول للعصيان الذي هو في الوقت نفسه بداية الحرية الانسانية يفتح عينيه بحيث يعرف الآن ما هو خير وما هو شر ويعرف نفسه كما يعرف الغير الذين هم سواسية ، ومع هذا فكل واحد نسيج وحده ويرتبطون بروابط المحبة ، ومع هذا فهم وحيدون . لقد بدأ تاريخ البشرية . ولعن الله الانسان على عصيانه . وأين تنحصر هذه اللعنة ؟ عداء وصراع يعلن عنهما بين الانسان والحيوان («بذور عداوة أبذرها بينك [الحية] وبين المرأة ، بين نسلك ونسلها . فالانسان يصيبك على رأسك وأنت تصيبينه في عقبه» (التكوين ، الاصحاح الثالث ، ١٥) عداوة وصراع بين الانسان والأرض المزروعة («لذلك ملعونة هي الأرض ، ملعونة بسببك . وبعناء ومشقة ستأكل منها طوال حياتك . وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، وعليك أن تأكل نبات الحقل . وبالعرق في الوجه ستأكل خبزك إلى أن تعود الى الأرض الزراعية» ـ (التكوين الاصحاح الثالث ، ١٧ ـ ١٩) ويتم الاعلان عن عداوة أو صراع بين الرجل والمرأة («ومع هذا تشتاقين الى الرجل ؛ على أنه سوف يسود عليك» ـ التكوين ، الاصحاح الثالث ، ١٦) . وحلّ محل الانسجام الأصلي السابق للفردية شقاق وصراع .[٥٠]

فما هو إذاً ، برؤية تنبؤية ، هدف الانسان ؟ إنّ هدفه أنْ يعيش من جديد في سلام ووئام مع الآخرين ومع الحيوانات والأرض . فالوئام الجديد يتمايز من وئام الجنة واتساقها . فلا يمكن بلوغه إلاّ إذا تطور الانسان تطوراً كاملاً لكي يصبح انسانياً حقاً ، وإذا ادرك الحقيقة وعرفها وطبق العدل وإذا طوّر قوة عقله الى الحد الذي يتحرر فيه من قيود بشرية ومن قيود العواطف اللا عقلانية . ونجد في تبشيرات الأنبياء رموزاً لا حصر لها لهذه الفكرة . فلقد عاد للأرض خصبها اللا محدود ، وتستحيل السيوف إلى محاريث ، ويعيش الاسد والحمل معاً في سلام ؛ ولم يعد هنالك حرب ، وستلد النساء أطفالهن من دون آلام (التلمود) ، وستتوحد الانسانية كلها في الحقيقة والمحبة . وهذا الوئام الذي بلوغه هو هدف العملية التاريخية ، يرمز إليه بشخص المسيح .

---

(٥٠) انظر فروم ، اريش ، الخوف من الحرية ، نيويورك ١٩٤١

ونستطيع الآن أن نفهم مدلول الطقس السبتي فهماً كاملاً . فالسبت هو سَبْق لعصر المسيح ، كما أن عهد المسيح سيوصف بأنه عهد «السبت الأبدي» . أما السبت فليس في الحقيقة السبق الرمزي لعصر المسيح فحسب ، بل ينظر إليه على أنه طليعته الحقيقية وسبّاقه الحقيقي . وإنه لمذكور في التلمود (السبت ١١٨/آ) : «لو أنَّ بني اسرائيل صاموا سبتين مرة واحدة فقط صياماً كاملاً لكان المسيح موجوداً .» فالاستراحة ، لا العمل ، لها بناء على ذلك مدلول آخر غير «انشراحنا» المعاصر . وفي حالة الراحة يسبق الانسان حالة الحرية الانسائية التي ستتحقق ذات مرة في آخر المطاف . فالعلاقة بين الانسان والطبيعة ، وبين الانسان والانسان هي علاقة الانسجام والوئام والسلام وعدم التدخل . والعمل هو رمز الصراع وفقدان الاتساق ، والراحة هي تعبير عن الكرامة والسلام والحرية .

فإذا كنا فهمنا هذا وجدنا أيضاً جواباً عن بعض الأسئلة التي سبق أن طرحناها . وعلى هذا يحتل السبت في دين العهد القديم مكاناً مركزياً لأنه أكثر من «يوم الراحة» بالمفهوم الحديث . إنه رمز الخلاص والحرية . وهذا هو أيضاً مدلول «استراحة» الرب . فالرب ليس بحاجة إلى هذه الاستراحة لأنه متعب ؛ إنها تعبير عن الفكرة بأنه مهما كانت الخليقة كبيرة أيضاً ، فإن السلام أعظم منها وهو قمتها . وعمل الرب نعمة للانسان ومنّة . فعليه أن «يستريح» لا لأنه متعب ، بل لأنه حرّ ، وعندها لا يكون هو الرب الكامل في ربوبيته إلاّ إذا توقف عن العمل . وعلى هذا فالانسان لا يكون انساناً كاملاً في انسانيته إلاّ حين لا يعمل وحين يعيش مع الطبيعة والآخرين في سلام ووئام . ولهذا فإنَّ وصية السبت يكون لها أساسها ، تارة باستراحة الرب وتارة أخرى بالخلاص من مصر . وكلاهما يعني الشيء نفسه ، وكلاهما يوضح الآخر : الاستراحة هي الحرية .

ليس في ودي أن أترك هذا الموضوع من دون أن أتطرق بايجاز الى بعض النواحي الأخرى للطقس السبتي التي هي ذات أهمية لفهمه الكامل . ويبدو أن يوم السبت كان يوم عطلة عند البابليين ؛ على أنه كان له مدلول يختلف عن سبت الكتاب المقدس . . فالسبت البابلي كان يوم الحزن وتهذيب النفس ، كان يوماً مكهفراً وكان كرّس لكوكب زحل (والتسمية الانجليزية ليوم السبت Saturday لا تزال تبشر حتى هذا اليوم إلى ذلك) ، وكان المرء يحاول أن يهدىء غضبه بالخصي

الذاتي والعقوبة الذاتية . ثم غير يوم العطلة هذا طابعه شيئاً فشيئاً . أما في العهد القديم فقد تخلّ اليوم المقدس عن طابعه بأنه يوم التعذيب الذاتي والحزن . فلم يعد يوماً «سيئاً» ، بل يوم طيب . ولقد استحال يوم السبت إلى عكس السبت «شباطو» البابلي المكفهر . فلقد صار يوم الفرح والانبساط والأكل والشرب والحب الجنسي الى جانب دراسة الكتاب المقدس وكتابات دينية كانت في الألفي سنة الماضية مميزة للاحتفال اليهودي بيوم السبت . وصار من سبت الخضوع لقوى زحل الشريرة سبتُ الحرية والحبور . وليس في وسعنا أن نفهم التحول في جو هذا اليوم وفي مدلوله إلاّ إذا وضعنا مدلول زحل نصب أعيننا . فزحل (ساتورن) يرمز إلى الزمن طبقاً لتقليد ميتافيزيقي فلكي قديم . وزحل هو إله الزمن . وعلى هذا فهو إله الموت . وما دام الانسان مثل الاله ، منح روحاً وعقلاً وحرية ، فهو لا يخضع لا للزمن ولا للفناء . وحاول البابليون أن يهدئوا خاطر المهيمن على الزمن بالخصي الذاتي . ويقوم الكتاب المقدس بتفسيره ليوم السبت بمحاولة جديدة كل الجدة ليحلّ المشكلة : فعلى من يوقف التدخل في الطبيعة يوماً كاملاً يعطل الزمن . وإذا لم يوجد أي تبدل أو أي عمل أو أي تدخل للانسان فلا يوجد أيضاً أي زمن . وبدلاً من يوم سبت يخضع فيه الانسان أمام رب الزمن فإنّ سبت الكتاب المقدس يرمز إلى انتصار الانسان على الزمن . ويُلغى الزمن . وينزل زحل عن عرشه ، ولا سيما في اليوم الذي كرّس له .

هـ . رواية كافكا «القضية»

إنّ رواية كافكا «القضية» مثال رائع على عمل فني كتب بلغة رمزية . وكما في كثير من الأحلام يتم هنا تصوير حوادث ، كل حادثة منها هي في حد ذاتها واقعية . ومع هذا فإن هذا كله محال وخيالي . ولكي تُفهم الرواية يجب أن تُقرأ وكأننا نستمع الى قصة حلم طويل معقد تجري فيه حوادث خارجية في المكان والزمان ، على أنها تمثل في أثناء ذلك أفكار الحالم ومشاعره ، والحالم هنا في هذه الحالة بطل الرواية ك .

تبدأ الرواية بجملة فيها شيء من الغرابة : «لا بدّ أن يكون أحدهم وشى بيوسف ك . ، إذ أنه ومن دون أن يكون فعل شراً ألقي القبضُ عليه ذات صباح .»

فما معنى «ألقي القبض عليه» ؟[٥١] هذا يعني أن يتوقف ويمنع من الحركة ثم «يحبس» إن رجلاً يتهم بجريمة لتوقفه الشرطة ، ويتوقف كائن حي عن تطوره العادي «ويسجن» . وتصطنع القصة الصريحة مفهوم التوقيف . أما المعنى الرمزي له فهو الحبس . ويشعر ك . أنه معوق في تطوره ومحاصر .

«وفي فقرة رائعة يوضح كافكا لماذا كان هذا حدث . كان ك . صرف حياته على النحو التالي : «في هذا الربيع اعتاد ك . أن يمضي الأمسيات بأنه كان يقوم بعد العمل ، إذا ما استطاع وفي معظم الأحيان كان يجلس في المكتب حتى التاسعة ، بمشوار قصير وحيداً أو بصحبة موظف ثم يذهب بعدئذ إلى خمارة حيث اعتاد أن يجلس حتى الساعة الحادية عشرة مع رجال أكبر منه سناً أحياناً إلى منضدة كانت ركنا للزائرين الدائمين . على أنه كانت هنالك أيضاً استثناءات من هذا التقسيم حين كان ك . يتلقى مثلاً من مدير المصرف الذي كان يقدّر فيه قدرته على العمل وأمانته ، دعوة إلى نزهة بالسيارة أو إلى عشاء في منزله . وفضلاً عن ذلك كان ك . يذهب مرة واحدة في الاسبوع إلى فتاةٍ تدعى إلزا كانت تخدم طوال الليل في احدى الحانات ولا تستقبل الزيارات في أثناء النهار إلا من السرير .»[٥٢]

كانت حياة فارغة رتيبة عقيمة من دون حب ومن دون انتاج . والحق أنه كان لقي صعوبات و«أوفف» ، سمع صوت ضميره الذي أسرَّ إليه بذلك وأنذره بالخطر الذي كان يحدق بشخصيته .

وتطلعنا الجملة الثانية على أن «طاهية السيدة غرونباخ ، مؤجرته ، التي كانت تحضر له الفطور في نحو الثامنة من كل يوم لم تأت هذه المرة . ولم يكن هذا حدث قط .»[٥٣] وتبدو الحالة الخاصة عديمة الأهمية . والحق أن الأمور تبدو غير منسجمة مع بعضها ذلك أنه بعد حديث مثير عن اعتقاله يأتي ذكر موضوع تافه غاية في الابتذال وهو أن الفطور لم يؤتَ به . أما هنا وفي كثير من الأحلام فإنَّ موضوعاً هو في ظاهره تافه وعديم الأهمية ليشتمل على معلومات مهمة عن طبع ك . الذي

---

٥١) انظر : كافكا ، فرانس : القضية ، ص ٢٥٩ .
٥٢) المرجع نفسه ، ص٢٧٢ .
٥٣) المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ .

هو انسان ذو «اتجاه استيعابي» . فكل مساعيه تتوجه إلى أن يتلقى شيئاً من الآخرين لا أن يعطي شيئاً أبداً أو أن ينجز شيئاً .(٥٤) .

إنه وقف على الآخرين الذين ينبغي عليهم أن يقوموا بأوده ويكفلوه ويحموه . فهو لا يزال طفلاً متعلقاً بأمه ينتظر كل شيء من مساعدتها ويستغلها ويستفيد منها . وكما هو مميز للناس ذوي هذا الاتجاه والموقف فإنه أيضاً حريص على أن يكون ودوداً لطيفاً فيمنحه الآخرون ، ولا سيما النساء ، الشيء الذي هو بحاجة إليه . وأعظم مخاوفه أن يغتاظ منه آخرون فلا يهبونه شيئاً بعد الآن . وهو مقتنع أن كل ما هو خير يأتي من الخارج . وتنحصر مشكلة حياته أن يتجنب المجازفة بأن هذا المصدر قد ينضب . وعلى هذا انعدم احساسه بقوته واعترى صدره خوف شديد من أنَّ الناس الذين يعتمد عليهم قد يتخلون عنه .

ولا يعرف ك . من شكاه وبما اتُهم . ويتساءل : أي ناس كانوا هؤلاء ؟ وعمَّ تحدثوا ؟ وإلى أية مصلحة أو دائرة ينتمون ؟ وحين يتكلم ، فيما بعد ، مع «المراقب» الذي يشغل في تسلسل رتب المحكمة مكانة عالية يزداد الصوت وضوحاً . ويطرح عليه ك . كل الأسئلة الممكنة التي ليس لها علاقة بأم المشاكل ، أي بأية تهمة هو في الحقيقة متهم . وفي إجابته على ذلك يبدي المراقب ملاحظة تتضمن أهم الايضاحات والاستكشافات التي استطاع ك . أن يطلع عليها في ذلك الوقت ، وهذا ما يحدث بالمناسبة لكل انسان يجد نفسه في مأزق ويبحث عن عون . ويقول المراقب : «ولكنني اذا لم اجب عن أسئلتك أيضاً فانني أستطيع أن أنصحك على الأقل بأن تقلل من تفكيرك بنا وبالشيء الذي سيحدث لك ، والأحرى أن تفكر بنفسك . » ولا يفطن ك . إلى ما يرمي اليه المراقب من قوله هذا . ولا يفطن الى أن المشكلة قائمة في ذاته وأنه هو وحده قادر على أن ينقذ نفسه . أما الحقيقة أنه لم يستطع أن يمتثل لنصيحة المراقب فهي دليل على أنه يجب أن يسلّم بالهزيمة في آخر المطاف .

---

٥٤) انظر : وصف هذا الاتجاه في : فروم ، إريش ، الانسان وحيداً ، بحث في علم نفس الاخلاق ، نيويورك ١٩٤٧ .

وينتهي المشهد الأول بملاحظة أخرى للمراقب تلقي مزيداً من الضوء على نوع الاتهام وسبب القبض عليه . «سترغب في الذهاب الآن الى المصرف ؟» ـ سأل ك : «إلى المصرف ؟ ظننت أنه مقبوض عليّ» . . «أنّى لي أن أذهب اذا الى المصرف ما دمت موقوفاً ؟» ـ قال المراقب الذي كان عند الباب : «إذاً إلى المصرف ما دمت موقوفاً ؟» ـ قال المراقب الذي كان عند الباب : «هكذا ، إذاً ، لقد أسأت فهمي . أنت مقبوض عليك ، وبكل تأكيد ، على أنَّ هذا لن يمنعك من أن تمارس وظيفتك .

قال ك . وقد اقترب من المراقب : «في مثل هذه الأحوال ليس التوقيف أو الحبس بسيء جداً . قال المراقب : لم أعن شيئاً آخر بهذا قط . قال ك . وقد ازداد قرباً : «ولكنه لا يبدو أنه كان هنالك ضرورة إلى تبليغ التوقيف .»[٥٥] .

والحقيقة أن هذا ما كان ليحدث وقلّما يحدث هذا . فحين يلقى القبض على شخص ما فلا يجوز له أن يباشر أعماله او أن يستأنف ، كما سنرى فيما بعد ، نشاطاته الأخرى المألوفة . فهذا الأمر الغريب يعبّر تعبيراً رمزياً عن أن عمله في المصرف وكل ما فعله لم يتأثر في الحقيقة بسجنه الداخلي . فهو بصفته انساناً يكاد يكون ميتاً منذ زمن ؛ على أنه استطاع ، مع هذا ، أن يستمر في حياته موظفاً في مصرف لأن هذا العمل لم يمسّ جوهر طبيعته .

ولا يستشعر ك . إلاّ على نحو غامض غير محدد أن حياته ضاعت سدى وأنَّ مصيره آيل إلى الزوال في القريب العاجل . وبدءاً من هنا تتناول الرواية ردَّ فعله على هذا الاحساس وعلى مساعيه للدفاع عن نفسه وانقاذ نفسه . والنهاية مأساوية . ومع أنه يسمع صوت ضميره ، لكنه لا يفهم نفسه . وبدلاً من القيام بالمحاولة ليفهم السبب الحقيقي للقبض عليه يتوخى أن يتحاشى كل نوع من أنواع المعرفة ؛ وبدلاً من أن يساعد نفسه بالطريقة الوحيدة التي يمكن أن تساعده بأن يعرف الحقيقة . ويحاول أن يتغير فإنه يبحث عن مساعدة حيث يستحيل عليه إيجادها ، وذلك عند الآخرين وعند محامين ونساء ربما استطاع أن يستثمر «علاقاتهن» على حين يؤكد دائماً براءته ويأمر الصوت الذي أسرَّ له بأنه مذنب بأن يلزم الصمت .

---

٥٥) انظر : كافكا ، فرانس : القضية ، ص ٢٧٢ .

ولربما كان في وسعه أن يجد حلاً لو لم يضطرب حسه الاخلاقي . فهو لا يعرف إلاَّ ضرباً واحداً من الشرع الأخلاقي : السلطة الصارمة التي ينصّ أمرها الاساسي : «عليك بالطاعة» . ولا يعرف إلاَّ «الضمير المستبد» الذي يرى الطاعة أسمى الفضائل والعصيان أرذل الجرائم وأشنعها . وقلّما يعرف أن هنالك ضميراً من نوع آخر ، هو الضمير الانساني ، والصوت الذي في أعماقنا هو الذي يعيدنا الى ذواتنا .[٥٦] وتصوّر الرواية كلا النوعين تصويراً رمزياً . فالضمير الانساني يمثله المراقب ورجل الدين فيما بعد . وأمَّا الضمير المستبد فيمثله المحكمة والقضاة والمستشارون والمحامون الفاسدون والآخرون الذين لهم كلهم علاقة بالقضية . ويقوم خطأ ك . المأساوي على أنه يسمع صوت الضمير الانساني ، لكنه، مع هذا، يظنه بالخطأ صوت الضمير المستبد ، كما أنه يدافع عن نفسه أمام السلطات التي ادعت عليه بأن يذعن لهم أو يثور عليهم بدلاً أن يقاتل من أجل نفسه باسم الضمير الانساني . وتوصف «المحكمة» بأنها مستبدة فاسدة قذرة ، فهي لا تستند في اجراءاتها القضائية على العقل والعدل .. وإن منظر الكتب القانونية التي يستعملها القضاة والتي اطلعته عليها زوجة أحد الخدم تعبير رمزي على هذا الفساد :«كانت كتباً قديمة مهترئة ، وكاد أن يكون غلاف أحد المجلدات مكسوراً في وسطه ، ولم تعلق قطع الأوراق مع بعضها إلاَّ بخيوط . قال ك . وهو يهز الرأس :«يا لقذارة كل شيء هنا» ، وقبل أن يتمكن ك . من أن يمدَّ يده الى الكتب مسحت المرأة بمئزرها الغبار مسحاً سطحياً على الأقل . وفتح ك . أول كتاب ، وطالعته صورة خليعة . جلس رجل وامرأة عاريين على أريكة ، وكان من السهل أن يتبين المرء غاية الرسام ، على أنَّ انعدام المهارة عنده كان كبيراً جداً بحيث إنه لم يكن يُرى ؛ النهاية إلاَّ رجل وامرأة ارتفعا بجسديهما المبالغ فيهما من الصورة وجلسا باعتدال حدّ مفرط أكثر مما ينبغي ونتيجة لمنظور خاطيء لم يلتفت أحدهما إلى الآ- إلاَّ بمشقة . ولم يقلب ك . في الكتاب بعد ذلك ، بل اكتفى بأن فتح صفحة العنوان لكتاب آخر . كان رواية عنوانها : المتاعب التي كان على غريتي أن تعانيها من

---

٥٦) انظر : الفصل الذي يتناول الضمير الانساني والضمير المستبد في : إريش فروم : الانسان وحيداً . بحث في علم نفس الأخلاق ، نيويورك ١٩٤٧ .

زوجها هانز» . قال ك :«تلك هي كتب القانون التي تدرس هنا ، وهؤلاء الناس هم الذين سيعدمونني» .[٥٧]

ويظهر الفساد أيضاً في أن زوجة حاجب المحكمة يغتصبها القضاة وأحد طلبة القانون جنسياً وأنّه لا حق لها ولا لزوجها أن يحتجا على ذلك . ويثور ك . على المحكمة بين الحين والحين ، على حين يُظهر لحاجب المحكمة ميلاً شديداً إذ يضيف هذا بعد أن حدج ك . «نظرة انيسة أليفة» «لم يكن فعل هذا حتى الآن رغم كل ود وإيناس» : «إن المرء ليتمرد ويثور دائماً وأبداً .»[٥٨]

على أن ثورة ك . تستبدل بخضوع . فلا يخطر بباله أن القانون الأخلاقي لا تمثله المحكمة المستبدة ، بل ضميره هو .

وقد لا يكون من الصواب كله أن يقال إنّ الفكرة لم تخطر بباله قط . مرة واحدة عند نهاية رحلته يقترب من الحقيقة أكثر من أي وقت آخر . فهو يستمع الى صورة الضمير الانساني الذي يمثله رجل الدين في الكنيسة . لقد ذهب الى الكنيسة ليقابل هناك أحد أصدقاء العمل الذي كان عليه أن يريه المدينة ؛ على أنّ الزميل لم يلتزم بالموعد ، ويجد ك . نفسه وحيداً في الكنيسة ، في نفسه شيء من الوحشة والحيرة إلى أن ناداه أخيراً «صوتٌ لم يقبل أية أعذار أو حجج» قائلاً : «يوسف ك . !»

«توقف ك . ونظر الى الأرض . وبصورة مؤقتة كان لا يزال حرّاً ، كان في إمكانه أن يتابع المسير وأن يولي هارباً من أحد الأبواب الخشبية السوداء الصغيرة التي لم تكن ببعيدة عنه . وقد يعني أنه لم يكن فهم أو أنه كان فهم ؛ على أنه لم يرد أن يهتم بذلك . ولكن حين التفت كان ثابتاً لم يتزحزح ، إذ أنه اعمل ذهنه عندئذ انه كان فهم جيداً انه كان المنادى حقاً وانه أراد أن يلبي النداء أيضاً . فلو كرر رجل الدين نداءه لكان انصرف ك . قطعاً ، على أنه حين بقي كل شيء هادئاً ساكناً وبقي ك . ينتظر أيضاً أدار رأسه قليلاً ، إذ أنه أراد أن يرى ما كان يقوم به رجل الدين في تلك اللحظة . كان يقف بهدوء على المنبر كما وقف سابقاً ، ولكنه كان

---

٥٧) انظر : كافكا ، فراس ، القضية ، ص ٢٩٩ وما بعد .

٥٨) المرجع نفسه ، ص ٣٠٨ .

واضحاً انه كان انتبه إلى التفاتة ك . الرأسية . فلو لم يستدرك . الآن استدارة كاملة لكان هذا لعبة استخفاء صبيانية . وقام بذلك . وأشار اليه رجل الدين بسبابته أن اقترب . ولما أنَّ كل شيء صار الآن مكشوفاً فقد تقدم بخطوات سريعة عريضة صوب المنبر . وقام بذلك أيضا بدافع الفضول ولكي يختصر المسألة . وتوقف عند المقاعد الأولى ، على أنَّ المسافة بدت لرجل الدين كبيرة جداً ، ومدّ يده مشيرا بالسبابة المنكسة بحدة الى مكان لصق المنبر . وامتثل ك . أيضاً لذلك . كان عليه أن يميل رأسه كثيراً إلى الخلف فوق هذا المكان لكي يرى رجل الدين . «أنت يوسف ك .» قال رجل الدين ورفع احدى يديه على الدرابزين بحرية غير محددة . «نعم» ، قال ك . وتذكر الطريقة التي كان ذكر بها اسمه دائماً بصراحة ؛ ومنذ فترة من الزمن صار عبئاً عليه ، كما ان اسمه الآن بات يعرفه ناس اجتمع بهم أول مرّة ، وكم كان جميلاً أن يقدّم نفسه باديء ذي بدء وأن يُعرف بعدئذ . قال رجل الدين بصوت خفيض : «أنت متهم» .

قال ك : «أجل ، لقد اعلموني بذلك .»

قال رجل الدين : «أنت ، إذاً ، الشخص الذي أبحث عنه . أنا كاهن السجن المعاون .»

قال ك : «هكذا إذاً .»

قال رجل الدين : «لقد استدعيتك الى هنا لاتحدث معك .»

قال ك . «لم يكن لي علم بذلك . جئت الى هنا لأُري الكنيسة لأحد الايطاليين .»

قال رجل الدين : «دعك من هذه الأشياء الثانوية . ما الشيء الذي تحمله في يدك ؟ أهو كتاب صلوات ؟»

أجاب ك . : «لا ، إنه مجموعة صور لآثار المدينة وروائعها .»

قال رجل الدين : «ضعها جانباً !» ورماها ك . بعنف بعيداً فانفتحت وانزلقت قليلاً على الأرض بأوراق متكسّرة .

سأل رجل الدين : «هل تدري أن قضيتك لا تبشر بخير» .

قال ك : «يبدو لي الأمر هكذا أيضاً . لقد بذلت كل الجهود ، ولكن الى الآن بدون نتيجة . على أنني لم أنهِ بعد المعروض .»

سأل الكاهن: «وكيف تتصور نهايتك ؟»

قال ك: «سبق لي ان فكرت أن الأمر يجب أن ينتهي نهاية طيبة. والآن يساورني شك في ذلك أحياناً. ولست أدري كيف ستؤول الأمور. فهل تعرف ؟»

قال الكاهن: «لا. على أنني أخشى أن تنتهي نهاية سيئة. فالناس يحسبونك مذنباً. وقد لا تخرج قضيتك عن نطاق محكمة وضيعة. ويرى الناس بصورة مؤقتة على الأقل ذنبك مؤكداً».

قال ك: «لكنني لست مذنباً. إنَّ هذا لخطأ. أنّى للمرء أن يكون مذنباً. فنحن كلنا هنا بشر، أحدنا مثل الآخر»

قال الكاهن: «هذا صحيح، ولكن المذنبين يتكلمون هكذا عادة.»

سأل ك: «هل أنت متغرض عليّ ؟»

قال الكاهن: «ليس عندي أيُّ تغرض ضدك.»

قال ك: «اشكرك. اما الآخرون كلهم الشركاء في القضية فعندهم تغرّض ضدي. كما أنهم يبثونه في نفوس الناس غير المشتركين. ووضعي يزداد صعوبة على صعوبة».

قال الكاهن: «لن يأتي الحكم دفعة واحدة. فالاجراءات القضائية تتحول تدريجيا الى الحكم.»

قال ك.: «هكذا هي الحال إذاً،» ونكّس الرأس.

سأل الكاهن: «وما الشيء الذي تريد أن تعمله بقضيتك في القريب العاجل ؟»

قال ك: أريد أن أبحث عن عون»، ورفع الرأس ليرى كيف سيكون حكم الكاهن على ذلك. «هنالك امكانيات محددة لم استغلّها».

قال الكاهن مستنكراً: «أنت تبحث عن مساعدة غريبة أكثر من اللزوم، ولا سيما لدى النساء. ألا ترى أنها ليست المساعدة الحقيقية ؟».

قال ك: أحياناً، بل في أكثر الأحيان أستطيع أن أقرّك على ذلك، لكن ليس دائماً. فللنساء سلطة كبيرة. فلو أني استطعت أن أحمل بعض النساء اللواتي أعرفهن على أن يعملن معاً من أجلي لكان من المفروض أن أتغلب على المصاعب وأنجح، ولا سيما لدى هذه المحكمة التي لا تتألف تقريباً إلّا من قناصي النساء

وأزياء النساء . فإن تظهر لقاضي التحقيق امرأة من بعيد تَرَهُ يخف لكي يدركها في الوقت المحدد متجاوزاً منصة المحكمة والمتهم .» ويميل الكاهن الرأس الى الدرابزين ؛ الآن فقط بدت مظلة المنبر أنها تثقل كاهله . أية زوبعة عاصفة يمكن أن تكون في الخارج ؟ لم يعد النهار كئيباً . كان ليلاً عميقاً . وما من نقش على زجاج النوافذ الكبيرة كان بقادر على أن يعترض الجدار المظلم حتى بشعاع خافت ، والآن بالذات أخذ خادم الكنيسة يطفيء الشموع على المذبح ، واحدة تلو الأخرى .

سأل ك . الكاهن :«هل أنت غاضب عليَّ ؟ لعلك لا تدري أي نوع من المحاكم تخدم أنت .» ولم يتلقَّ جواباً

قال ك :«انها ليست الا خبري وتجاربي !»

كان المكان فوق لا يزال هادئاً . سأل ك : لم إنو إهانتك أو جرحك ؟ وهنا صرخ الكاهن من فوق الى تحت :«ألا ترى على بعد خطوتين ؟» كان في الصراخ غضبٌ ، لكنه كان في الوقت نفسه وكأنه صادر عن شخص يرى شخصاً يسقط ويصرخ في غير حيطة وبلا إرادة لأنه هو نفسه خائف مذعور .»[٥٩] .

إنَّ الكاهن يعرف ما التهمة الموجهة الى ك : في الحقيقة . كما يعرف أيضاً أن قضيته ستنتهي نهاية سيئة . وفي هذا الوقت لا يزال لدى ك . الفرصة ليتأمل في أعماق ذاته ويتساءل ما التهمة المتهم بها في الحقيقة ؛ على أنه ، بناء على موقفه السابق ، لا يشغله إلاَّ المصدر الذي يستطيع ان يحصل منه على مساعدة . وحين يقول له الكاهن مستنكراً انه يبحث عن مساعدة غريبة أكثر من اللازم لا يستجيب لذلك إلاَّ خشية أن يكون الكاهن غاضباً عليه ؛ على أنَّ هذا هو غضب المحبة الذي يعتمر به صدر الانسان الذي يرى آخر يسقط ويعرف أن هذا قد يستطيع أن يساعد نفسه وأنَّ لا أحد غيره يستطيع أن يساعده . وليس في وسع الكاهن أن يقول أكثر من ذلك . وحين يتوجه ك . إلى المدخل الرئيسي يسأله الكاهن :«أتريد الانصراف ؟» ومع أن ك . لم يفكر بذلك في تلك اللحظة يقول على الفور :«طبعاً ، يجب أن أنصرف ، فأنا وكيل مصرف ، والناس ينتظرونني . لم آتِ إلى هنا إلاَّ لكي أُري زميلاً اجنبياً الكنيسة» - «إذهب الآن ، إذاً» يقول الكاهن ويمدّ

---

٥٩) المرجع نفسه ، ص ٤٢٩ - ٤٣١ .

يده الى ك . ويقول ك :على انني لا أستطيع أن أجد طريقي في الظلمة وحيداً»(٦٠) .

الحق أنَّ ك . يجد نفسه في مأزق مأساوي لانسان لا يجد طريقه وحده في الظلمة ويصرّ على أن الآخرين وحدهم قادرون على إرشاده ، ويبحث عن عون ؛ لكنه يرفض المساعدة الوحيدة التي كان في وسع رجل الدين أن يقدمها له . وانطلاقاً من هذه الورطة الداخلية لا يستطيع أن يفهم الكاهن . ويسأل ك . : «ألا تريد مني شيئاً آخر ؟» ويقول الكاهن : «لا» ويقول ك : «كنت فيما مضى غاية في اللطف معي وأوضحت لي كل شيء ، أما الآن فتتخلى عني لكأنني لا اهمك بشيء أبداً» . قال الكاهن : «عليك أن تفهم أنت أولاً من أكون أنا .»

قال ك . : «أنت قس السجن المعاون» ، واقترب من الكاهن . لم تكن عودته الفورية إلى المقعد بضرورية كما كان تصوّرها . كان في وسعه أن يلازم مكانه .

قال الكاهن : أنا ، إذاً ، أحد أعضاء المحكمة . ولِمَ كان علي أن أطلب شيئاً منك . فالمحكمة لا تريد مني شيئاً . فهي تستقبلك حين تأتي وتخلي سبيلك حين تذهب» .(٦١) .

ويبيّن الكاهن بجلاء أن موقفه ليس استبدادياً على الاطلاق . فهو يريد أن يساعد ك . بدافع حب الغير ؛ على أنه ليس له أي تأثير على نتيجة قضية ك . وخلاصتها . وفي رأي الكاهن يتعلق الموضوع أولا وأخيراً بمشكلة ك . فإذا رفض أن يدركها ادراكاً كاملاً يجب أن يبقى أعمى ، ولأن الحقيقة لا يدركها أحد إلاّ إذا ادركها هو نفسه .

إنَّ الشيء المحير في الرواية انه ما من موضع يقال فيه إنَّ القانون الأخلاقي الذي يمثله الكاهن والقانون الذي تمثله المحكمة شيئان متباينان ؛ بل على العكس فإن الكاهن بصفته قس السجن المساعد في القضية الصريحة هو جزء من هيئة المحكمة . على أن هذه البلبلة في القصة ترمز الى البلبلة في صدر ك . فهو يرى

---

٦٠) المرجع نفسه ، ص ٤٣٩ .

٦١) المرجع نفسه ، ص ٤٣٩ وما بعد .

كلتا الجهتين القضائيتين شيئاً واحداً . ولما انه عاجز عن أن يميّز بينهما فيبقى في صراع مع الضمير المستبد ولا يستطيع أن يفهم نفسه .

ويمرّ عام منذ أن علم ك . أول مرة بالقبض عليه . لقد كان هذا عشية عيد ميلاده الواحد والثلاثين . ولقد خسر قضيته . ويأتي سيدان ليأخذاه الى الاعدام . ورغم مساعيه اليائسة لم يفلح في أن يطرح السؤال المناسب ، ولم يكتشف ما التهمة المتهم بها ومَنْ اتهمه وكيف كان في وسعه أن ينقذ نفسه .

وتنتهي القصة كما تنتهي أحلام كثيرة في هيئة كابوس شديد . ولكن على حين يفحص الجلادون سكاكينهم بشكليات غريبة عجيبة مضحكة يفهم ك . أول مرة سبب قضيته : «كان في ودي دائماً أن أضرب في الدنيا بعشرين يد وفوق ذلك إلى غاية غير محبذّة كثيراً . كان هذا مخالفاً للواقع . هل ينبغي علي الآن أن أبيّن أن القضية التي دامت سنة كاملة لم تستطع أن تعلمني ؟ هل ينبغي علي أن أمضي انساناً بليداً ثقيل الفهم ؟ أينبغي أن يذكرني الناس أنني أردت أن انهي القضية في بدايتها وأنني ، الآن ، وفي نهايتها ، أريد أن استأنفها . لا أريد أن يقال هذا .»[٦٢]

إنها المرة الأولى التي اتضح فيها ليوسف ك . كم كانت حياته جشعة متهالكة على الدنيا وفارغة . وإنها المرة الاولى التي يستطيع ان يرى فيها امكانية الصداقة والتضامن الانساني : «ووقعت نظراته على آخر طابق من طوابق البيت الملاصق للمقلع . ومثلما يخفق ضوء شعاع ، هكذا تباعد مصراعا نافذة هناك ، انسان ما ، ضعيف وهزيل عن بعد وارتفاع ، يميل بجسده الى الأمام بهزة ويمد ذراعيه الى أبعد حد . ومن كان هذا ؟ صديق ؟ إنسان طيب ؟ أحد المشاركين ؟ شخص كانت نيته المساعدة ؟ هل كان بمفرده ؟ أكان هو الكل ؟ أكانت هناك بقية من المساعدة ؟ أكانت هناك بقية من الاعتراضات التي كان نساها المرء ؟ ومن المؤكد انه كان هنالك شيء من هذا القبيل . حقاً إن المنطق لا يتزعزع ، لكنه لا يصمد امام إنسان يريد أن يعيش . أين كان القاضي الذي لم يكن رآه قط ؟ أين كانت المحكمة العليا التي

---

٦٢) المرجع نفسه ، ص ٤٤٢ .

لم يكن جاء اليها قط ؟ ورفع يديه وباعد بين اصابعه كلها»[٦٣] . لقد حاول ك . طوال حياته أن يجد جواباً على هذه الأسئلة ، أو بمعنى آخر ، أن يترك آخرين يجيبون عنها . وفي تلك اللحظة يطرح أسئلة هي الأسئلة الصحيحة . والخوف من الموت ، ليس غيره ، يمنحه القوة ليفهم امكانية الحب والصداقة ، ويؤمن على نحو غير معقول أول مرة بالحياة في لحظة الموت .

○○
○○

---

٦٣) المرجع نفسه ، ص٤٤٤ .

ثبت المراجع

(باللغتين العربية والاجنبية)

- Artemidor von Daldis: Das Traumbuch, deutsch von Karl Brackertz, München 1979 (DTV.).

ـ ارتميدوروس الافسوسي : كتاب الاحلام ، ترجمه إلى الألمانية كارل براكيرتس ، ميونيخ ١٩٧٩ (دار نشر كتاب الجيب-الالماني) .

- Aristoteles: Kleine Schriften zur Lehrkunde, in: über die Seele. Die Lehrschriften, h.g.v. Dr. Paul Gohlke, Padeborn[2] 1953.

ـ ارسطو : مؤلفات صغيرة في علم التدريس ، في : عن النفس . اصدرها وترجمها وشرحها د . باول غولكي ، باديبورن ١٩٥٣[٢] .

- Bachofen, J.J.: Das Mutterrecht, in: Manfred Schroeter (Hg.), Der Mythos von Orient und Occident. Eine Metaphysik der alten Welt. Aus den Werken von J.J. Bachofen. Mit einer Einleitung von Alfred Baeumler, München 1926.

ـ باخ أوفين ، يوهان ياكوب : حق الامومة ، في : مانفريد شروتر (ناشر) الاسطورة في الشرق والغرب . ميتافيزيقا العالم القديم . مختارات من مؤلفات ب أوفين . قدّم لها ألفريد بويملر ، ميونيخ ١٩٢٦ .

: Mutterrecht u. Urreligion. Eine Auswahl, hg. v. Rudolf Marx, Stuttgart 1954.

حق الامومة والدين الاصلي . مختارات نشرها رودلف ماركس ، شتوتغارت ١٩٥٤ .

- Bergson, H.: Der Traum, in: Die seelische Energie, Aufsätze u. Vorträge, deutsch von Eugen Lerch, Jena 1928, S. 76-97.

- برغسون ، هنري : الحلم ، في : الطاقة الروحية ، مقالات ومحاضرات نقلها إلى الالمانية اويغن ليرش ، يينا ١٩٢٨ ، ص ٧٦ - ٩٧ .

- Brifault, R.: The mothers. A study of the Origins of Sentiments and Institutions, 3 Bände, London 1988.

- بريغولت ، روبرت : الامهات . دراسة في منشأ العواطف والمؤسسات ، ثلاثة مجلدات ، لندن ١٩٢٨ .

- Cicero: über die Weissagung, zitiert in: R. Wood, World of Dreams. An Authology, New York 1947.

- شيشرون ، ماركوس تولوس : في التنبؤ ، نقلاً عن : ر . وود : عالم الاحلام . مختارات ، نيويورك ١٩٤٧ .

- Enuma Elish: The Babylonian Genesis, hg.v. Alexander Heidel, Chicago 1942.

- إينوما إيليش : التكوين البابلي ، إصدار ألكسندر هايدل ، شيكاغو ١٩٤٢ .

- Emerson, R.W.: Lectures and Biographical Sktches « De monology », Combridge/Boston, New york 1904.

- ايمرسون ، رالف والدو : محاضرات وصور وصفية أدبية معنيّة بالسيّر «دراسة الجن والايمان بها» ، كمبردج/بوسطن ، نيويورك ١٩٠٤ .

- Freud, S.: Gesammlte Werke (G.W.), Bände 1-17, London 1940-1952 und Frankfurt 1960 (S. Fischer verlag).

- فرويد ، سيغموند : المؤلفات الكاملة في ١٧ مجلداً ، لندن ١٩٤٠ - ١٩٥٢ ، وكذلك فرنكفورت ١٩٦٠ (دار نشر فيشر) .

- : Die Traumdeutung, G.W. Bd. 2 und 3. 1900

- : كتاب الاحلام ، المؤلفات الكاملة ، المجلد الثاني والثالث ، ١٩٠٠ .

- Fromm, E.: Gesamtausgabe (GA), hg.v. Rainer Funk, 10 Bände, Stuttgart 1980/81.

- فروم ، إريش : الطبعة الكاملة ، اصدرها راينر فونك في عشرة مجلدات ، شتوتغارت ١٩٨٠ - ١٩٨١ .

- : Die Sozielpsychologische Bedeutung der Mutterrechtstheorie, in: Zeitschrift für Sozialforschung, Paris 3 (1934) S. 196-227);

- : معنى نظرية حق الام من ناحية علم النفس الاجتماعي ، في : مجلة الابحاث الاجتماعية ، باريس ٣(١٩٣٤) ص ١٩٦ - ٢٢٧ .

- : Escape from Freedom, New york 1941

- : الفرار أو الخوف من الحرية ، نيويورك ١٩٤١

- : Man for himself. An Inquiry into the Psychology of Ethics, New york 1947.

- : الانسان وحيداً . بحث في علم نفس الاخلاق ، نيويورك ١٩٤٧ .

- : psychoanalyse und Ethik, Bausteine zu einer humanistischen Charakterologie, GA II, S. 1-157.

- : علم النفس التحليلي والاخلاق ، مقالات في علم الخلق الانساني ، الطبعة الكاملة ، المجلد الثاني ، ص ١ - ١٥٧ .

- : The Oedipus Complex and the Oedipus Myth, in: R.N. Anshen (Hg.). The Family: Its Functions and Destiny, New yofk 1949, S. 334-358.

- : عقدة اوديب واسطورة أوديب ، في : ر . ن . انشين (ناشر) . الاسرة : وظائفها وقدرها ، نيويورك ١٩٤٩ ، ص ٣٣٤ - ٣٥٨ .

- : Psychoanalysis and Religion, New Haven 1950

- : حلم النفس التحليلي والدين ، نيوهافن ١٩٥٠ .

- : علم النفس التحليلي والدين ، زيوريخ ١٩٦٦ ؛ شتوتغارت ١٩٧٩ .

- Gifford, E.W.: Mohave and Yunma Indians, Zitiert in: R. Wood, World of Dreams, An Anthology, New york 1947.

- حيفورد ، إ . و . : هنود اليوما والموهاف ، في : ر . وود : عالم الاحلام . مختارات ، نيويورك ١٩٤٧ .

- Guttnann, J.: Die Philosophie des Judentums, München 1933.

ـ جوتمان ، يوليوس : فلسفة اليهودية ، ميونيخ ١٩٣٣ .

- Hegel, G.W.F.: Sämtliche Werke, Jubiläums ausgabe, neu.hg.v.H. Glocknr, Band 1-26, Stuttgert 1927-

ـ هيجل ، غوتفريد فيلهلم فريدريش : المؤلفات الكاملة ، طبعة اليوبيل ، اصدرها من جديد هـ . غلوكنر في ٢٦ مجلداً ، شتوتغارت ١٩٢٧ ـ ومابعد .

- Hobbes, Th.: Leviathan, deutsch von J.P. Mayer, Stuttgart 1978 (Reclam).

ـ هوبز ، توماس : اللوياثان (الحيوان البحري الضخم) ، نقله إلى الالمانية ي ، ب . ماير ، شيتوتغارت ١٩٧٨ (دار نشر ريكلام) .

- Jung, C.G.: Psychologie und Religion, Terry lectures 1937, überarbeitete deutsche Fassung, in: gesammelte Werke Band 11, S.1-117, Zürich/Stuttgart 1963.

ـ يونغ ، كارل غوستاف : علم النفس والدين ، محاضرات ١٩٣٧ ، صياغة المانية منقحة في : الاعمال الكاملة ، المجلد الحادي عشر ، ص ١ ـ ١١٧ ، زيوريخ/شتوتغارت ١٩٦٣ (دار نشر راشر)

- : über das psychologische Verständis pathologischer Vorgänge, in: gesammelte Werke, Band 3; Psychogenese der geisteskran kheiten, Zürich/Stuttgart 1968.

ـ : في فهم العمليات المرضية (الباتولوجية) في ضوء علم النفس ، في : الاعمال الكاملة ، المجلد الثالث : الفحص الكامل للامراض العقلية ، زيوريخ/شتوتغارت ١٩٦٨ (دار نشر راشر) .

- Kafka,F.: Der Proze ss, Frankfurt 1965.

ـ كافكا ، فرانس : القضية ، فرنكفورت ١٩٦٥ (دار نشر فيشر) .

- Kant, I.: Träume eines geistersehers, in: vorkritische Schriften, hg.v. Buchenau, Band II, Berlin 1922.

ـ كانط ، عمانوئيل : احلام واهم ، في : مؤلفات ما قبل النقد . اصدار بوخيناو ، المجلد الثاني برلين ١٩٢٢ .

ـ نيتشه ، فريدريش : ما وراء الخير والشر ، في : المؤلفات في ثلاثة مجلدات ، المجلد الثاني ، دار مشتاد ١٩٦٠

- Platon: Phaidon, in: Hauptwerke, ausgewählt und eingeleitet von Wilhelm Nestle, Leipzig 1931.

ـ افلاطون : فيدون ، في : المؤلفات الاساسية ، اختارها وقدّم لها فيلهلم نستلي ، لايبزيغ ١٩٣١ .

: Der Staat, überestzt von August Horneffer, Stuttgart 1939.

: الدولة ، ترجمة اوغست هورنيفر ، شتوتغارت ١٩٣٩ (دار نشر الفريد كرونر) .

- Rattray, R S.: Religion and Art in the Ashanti, in: R Wood, World of Dreams. An Anthology, New york 1947.

ـ راتري ، ر . س . : الدين والفن في الاشانتي ، في : ر . وود : عالم الاحلام . مختارات ، نيويورك ١٩٤٧ .

- Robert, C.: Ödipus, Berlin 1915.

ـ روبرت ، كارل : أوديب ، برلين ١٩١٥ .

- Schachtel, E.: Memory and Childhood Amnesia, in: Psychiatry, Washington 10 (1947) No.1

ـ شاختل ، ارنست : الذاكرة وفقدان ذاكرة الطفولة ، في : الطب النفسي ، واشنطن ١٠ (١٩٤٧) رقم ١ .

Schmid, W.: Geschichte der griechischen Literatur, 1. Teil, 2. buch (=Handbuch ler Altertums-Wissenschaft, hg.v. Walter Otto, 7. Abteilung) München 1934/1959.

ـ شميت ، فيلهلم : تاريخ الادب اليوناني ، الجزء الاول ، الكتاب الثاني (=مرجع علم العصور القديمة ، نشر فالتر أوتو ، القسم السابع) ميونيخ ١٩٣٤/١٩٧٩ .

- Schneidewin, F.W.: Die Sage des Ödipus (=Ab- handlung der Königlichen gesellschaft der wissenschaften zu Göttingen, Band 5), göttingen 1852 (Dietrich Verlag).

ـ شنايديفين ، فريدريش فيلهلم : اسطورة أوديب (= بحوث جمعية العلوم الملكية في غوتينغين ، مجلد ٥) ، غوتينغين ١٨٥٢ (دار نشر ديتريش) .

- Landtman, G.: The Kiwai Papuans of British NewGuinea, zitiert in: R. Wood, World of Dreams. An Anthology, New york 1947.
- لاندمان ، جونار : البابوانز الكيوائيون في غينيا الجديدة ، في : ر . وود : عالم الاحلام . مختارات ، نيويورك ١٩٤٧ .
- Lincoln, J.S.: The Dream in Primitive Culture, in: R.Wood, World of Dreams. An Anthology, New york 1947.
- لينكولن ، جاكسون س . : الحلم في الحضارة البدائية ، في : ر . وود : عالم الاحلام . مختارات ، نيويورك ١٩٤٧ .
-Ldukrez:Von der Natur der Dinge, deutsch von Varl Ludwig von Knebel, Leipzig 1831; Frankfurt 1960.
- لوكريتس : في طبيعة الاشياء ، نقلها إلى الالمانية كارل لودفيغ فون كنيبل ، لايبزيغ ١٨٣٢ ؛ شتوتغارت ١٩٦٠ (على طريقة الكتابة الحديثة) .
- Moragn, L.H.: Systems of Sanguinity and Affinity of the Human Family, publication 218, Washigngton, 1870.
- مورجان ، لويس هـ . : نظم رابطة الدم والقرابة في الاسرة البشرية ، منشور ٢١٨ ، واشنطن ١٨٧٠ .
- : Ancient Society, Or Researches in the Lines of Human Progress from Savagery through Barbarism to Civilization, New york 1877.
: المجتمع القديم ، أو بحوث في مجرى التقدم الانساني من الهمجية والبربرية إلى المدينة والتحضر ، نيويورك ١٨٧٠
(بالالمانية : المجتمع الاول ، شتوتغارت ١٨٩١) .
- Nestle, W.: Sophokles und die Sophistik, in: Classical Philology, Chicago 5 (1910) S. 123 ff.
- نستلي ، فيلهلم : سوفوكليس والسفسطائية ، في : لغة اللغة الكلاسيكي ، شيكاغو ٥ (١٩١٠) ص ١٢٩ وما بعد
- Nietzche, F.: Jenseits von Gut und Böse, in: Werke in drei Bänden, hg.v. Karl Schlechta, Band II, Darmstadt 1960²

- Sophokles: Tragödien, hg. und mit einem Nachwort ver-sehen von **Wolfgang** Schadewaldt, Übersetzung von «Antigone» und «König Ödipus» durch W. Schadewaldt; von « Ödipus auf Kolonos » durch Frnst Buschor, Zürich 1968.

ـ سوفوكليس : مسرحيات ، نشرها وزودها بكلمة خاتمة فولفغانغ شاديفالد ، زيوريخ ١٩٦٨ ؛ (ترجم شاديغالد مسرحيتي «انتيغون» و«الملك أوديب» وترجم «أوديب في كولونوس» ارنست بوشور) .

- R. Wood, world of Dreams. An Anthology, New york 1947.

ـ سينسيوس السيريني : في الاحلام ، نقلاً عن : ر . وود: عالم الاحلام . مختارات ، نيويورك ١٩٤٧ .

- Talmud, Berachot: Der babylonische Talmud, hg.v. L. Goldschmidt, Band I, Den Haag 1933

ـ تلمود ، بيراخوت : التلمود البابلي ، نشره ل . غولد شميت ، دِنْ هاج ١٩٣٣ ، (المجلد الاول) .

- Voltaire: Dictionaire philosophique, Paris 1973

ـ فولتير : المعجم الفلسفي ، باريس ١٩٧٣ .

- Wood, R.: World of Dreams. An Anthology, New york 1947 (Randon House).

ـ وود ،ر : عالم الاحلام . مختارات ، نيويورك ١٩٤٧ (راندوم هاوز) .

الفهرس